ديزموند موريس

القرد العاري

دراسة للتطور العضوي والجنسي والاجتماع للإنسان



ترجمة: ميشيل أزرق

مراجعة: محمد قخة

القـــــرد العـــــاري

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب

The NAKED APE

By

DESMOND MORRIS

القرد العاري

تأليف ديزموند موريس

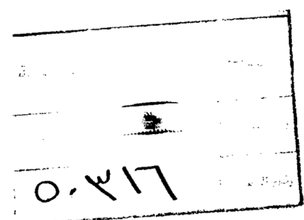
ترجمة ميشيل أزرق

الطبعة الثانية 1995

الناشر دار الحوار للنشر والتوزيع

اللاذقية- ص 1018- هاتف 422339- سورية

ديزموند موريس



القرد العاري

دراسة للتطور العضوي والجنسي والاجتماع للإنسان



ترجمة: ميشيل أزرق

مراجعة: محمد قجة



المدخـــــــل

هناك مائة وثلاثة وتسعون نوعاً من أنواع القردة والسعادين . من بينها مائة واثنان وتسعون يغطيها الشعـر . أمـا الشاذ منهـا فهـو ذلك الـذي سمـى نفسـه «بالانسان» . إن هذا النوع الأخير غير العادي والناجح جداً يقضي وقتـاً طويلاً في تفحص حوافزه العليا كما أنه يقضي وقتاً مماثلاً في تجاهل حوافزه الأساسية . انه يفخر بحجم دماغه المتفوق على كافة المخلوقات ، ولكنه يتجاهل حقيقة أن قضيبه الجنسي أكبر حجماً من قضبان الرئيسيات جميعاً وهو يتعمد ـ مخطئاً ـ نسبـة هذا الشرف الى الغوريلا . إنه مخلوق معبر جداً ومستكشف للحقائق من حوله كما انه مخلوق إجتماعي إلى حد كبير . لذا حان الوقت لتفحص سلوكه الأساسي .

إني عالم بالحيوان ، وأقول بأن القـرد العـاري ، هو حيوان . لذا فإنـه لمن العدل تجاه قلمي وتجاه نفسي أن أرفض تجنبه وذلك لأن بعضاً من سلوكياته معقـدة وجديرة بالاهتمام . إن عذرى في ذلك هو ان الإنسان مهما بلغ من اتساع المعرفة يبقى قرداً عارياً رغم ذلك . وفي اكتساب الإنسان بعض الحوافز الجديدة المصعدة لم يخسر أياً من الحوافز الدنيوية القديمة . فكثيراً ما يشكل ذلك سبباً في إحراجه وقد رافقته تلك الحوافز القديمة في مسار حياته منذ ملايين السنين أما حوافزه الجديدة فلم ترافقه في حياته سوى نحو من آلاف السنين على الأغلب . لذا فلا أمل له في تخلصه السريع من تلك الحوافز الوراثية التي رافقت تطوره الماضي . فالاحرى بالإنسان أن يكون أقل قلقاً وأن يكون حيواناً اسمى لو أدرك هذه الحقيقة . لربما كانت هذه هي المرحلة ذاتها التي يستطيع فيها العالم بالحيوان أن يساعد الإنسان .

إن أحد المظاهر الغريبة في الدراسات السابقة في سلوك القرد العـاري هو في كونها تجنبت ما هو واضح . لقد اندفع علماء الانتربولوجيا السابقون في دراسة جميع

الزوايا الميتة من العالم وذلك لكي يتوصلوا الى الحقائق الأساسية حول طبيعتنا البشرية ، ولكن نتائج ابحاثهم لم تصل إلى الهدف العلمي المطلوب . إنما أتوا بحقائق مذهلة حول عادات الانسان التناسلية الغريبة ونظام القرابة الغريب واجراءاته الطقسية الغريبة في المجتمع القبلي واستخدموا نتائجهم هذه وكأنها ذات أهمية بالغة في دراسة سلوكية جنسنا البشري بأكمله . لقد كانت نتائج هؤلاء العلماء جديرة بالاهتمام وقيمة جداً في زيادة معرفتنا بما قد يحدث لو أن مجموعة من القردة العارية حصرت في مجال ثقافي محكم . لقد أظهرت ابحاث هؤلاء العلماء إلى أي مدى يضل سلوكنا عن الطبيعي دون إحداث إنهيار إجتماعي . إلا أن الأمر الذي تتناوله هذه الأبحاث هو السلوك الطبيعي النموذجي للقرد العاري النموذجي . إن هذا الأمر لا يتم إلا عبر تفحص نماذج سلوكية يشترك فيها جميع البشر العاديين ـ تلك الكتلة الهائلة التي تمثل الجنس البشري بغالبيته العظمى . إن الدراسة البيولوجية هي الوحيدة المنطقية في تفهم سلوكية الإنسان . ربما قال العالم الانثروبولوجي في الماضي ان المجتمعات القبلية البسيطة هي أقرب إلى لب الموضوع من المجتمعات المتقدمة تقنياً . إلا أني أقول بأن هذا الأمر ليس صحيحاً . إن المجتمعات القبلية البسيطة المعاصرة لنا ليست بالضرورة بدائية بكل معنى الكلمة . فالمجتمعات القبلية البدائية لم تتواجد منذ آلاف السنين . فالقرد العاري هو أساساً مخلوق مستكشف وان فشل مجتمع ما في إحراز أي تقدم فمرد ذلك بمعنى آخر إلى فشل سعيه . ربما كان فشله يعود إلى عائق ما أخر تقدمه أو أن أمراً ما في هذا المجتمع يعمل ضد ميول الإنسان الطبيعيةفي استكشاف العالم من حوله. وربماكانت الخصائص التي أرساها هؤلاء العلماء الاقدمون في المجتمعات البدائية هي الأسباب نفسها التي أدت إلى عدم تقدم تلك المجتمعات . فلذا فإنه لمن الخطورة اعتبار تلك المعلومات كقاعدة لأي مخطط عام في دراسة سلوكنا البشري .

أما علماء النفس والمحللون النفسيون فقد بقوا ، خلافا لذلك ، أقرب إلى الموضوع ، فركزوا إهتماماتهم على الدراسات الطبية للعرق البشري . إلا أن معظم معلوماتهم التي استقوها في الماضي ـ وان لم تعان ما عانته معلومات علماء

الانثروبولوجيا من نقصان ـ بقيت لسوء الحظ منحازة . فالأفراد الذين استخلص علماء النفس منهم أحكامهم ، رغم خلفياتهم الاجتماعية كانوا زمراً بشرية فاشلة في بعض الجوانب فلو كان هؤلاء الأفراد اصحاء الجسم وناجحين أي بمعنى آخر أفراداً نموذجيين لما احتاجوا لمساعدة طبية من علماء النفس وبالتالي هم غير مؤهلين لأن يزيدوا مخزون علماء النفس من المعلومات إلا اني لا أرغب في تقليل قيمة أبحاث علماء النفس . فلقد زودتنا أبحاث هؤلاء ببصيرة قوية في الاهتداء إلى الطريق التي يمكن أن يتحطم عليها سلوكنا البشري . وإنني أشعر أنه يمكنني القول ببساطة بأن محاولتنا دراسة الأسس البيولوجية لطبيعة عرقنا البشري ككل ، إنما تبقى خاطئة إذا نحن اصررنا على مكتشفات علماء الانثروبولوجيا وعلماء النفس .

ويجدربي أن أضيف أن علم الانثروبولوجيا وعلم النفس كليهما في تغير سريع . فالكثير من العلماء المحدثين أخذوا يحدثون من الأبحاث القديمة وأخذوا يتحولون الى الأبحاث التي من شأنها دراسة الأصحاء النموذجيين من الناس . فهذا أحدهم يقول : «لقد وضعنا العربة أمام الحصان» . لقد درسنا الأفراد غير الطبيعيين وها نحن بدأنا متأخرين بدراسة الأفراد الطبيعيين .»

إن دراستي في هذا الكتاب تستقي معلوماتها من ثلاثة مصادر رئيسية :

١ ـ المعلومات عن ماضينا المستخرجة من المستحاثات ومن بقايا اسلافنا .
٢ ـ المعلومات المتوفرة عن سلوك الحيوان المبنية على الملاحظات المطولة في أنواع الحيوانات وبخاصة اقاربنا القردة والسعادين .
٣ ـ المعلومات المستقاة والمجمعة من الملاحظات البسيطة المباشرة لنماذج سلوكية شائعة بين جميع القردة العارية ذات الثقافة المعاصرة .

وبسبب حجم المهمة الملقاة على عاتقي فقد بات من الضروري زيادة تسهيل الأمر على القارىء . وللقيام بهذا الأمر فقد تجاهلت الأمور المفصلة وبعض التعابير التقنية وفضلت التركيز على جوانب حياتنا التي لها ما يوافقها في المخلوقات الأخرى :

من نشاطات كالإطعام والتنظيف والنوم والقتال والتناسل والعناية بالصغار . فكانت كلما اعترضتني هذه المشاكل الرئيسية كنت أقول كيف يتصرف القرد العاري ؟ كيف أقارن رد فعله بالقردة ؟ وكنت أخلص إلى النتيجة أن الإنسان في بعض الأحيان نسيج وحده . وكنت اسأل نفسي كيف يتفق شذوذه وقصته الخاصة بالتطور .

عند خوضي في هذه المشاكل أدرك بأني أسيء إلى بعض النـاس . فبعضهـم يفضل ألا نبحث في النواحي الحيوانية من الذات البشرية . فهم يتصورون بأني أسيء إلى عرقنا البشري عندما أدرسه مستعيناً باصطلاحات تستخدم في دراسة الحيوان . ولا استطيع سوى أن أؤكد لهؤلاء الناس أن ليس في نيتي الإساءة إلى العرق البشري .

وهناك فئة أخرى من الناس لا تحبذ تدخل علماء بالحيوان في حقل اختصاصهم . إلا أني أؤمن أن دراستي يمكن ان تكون ذات قيمة عظيمة مهما كانت نواقصها وأن هذه الدراسة سوف تلقي ضوءاً جديداً (أحياناً ضوء غير متوقع) على الطبيعة المعقدة لعرقنا البشري الخارق .

الفصـــــــل الأول

الأصـــــول

هناك بطاقة معلقة على قفص إحدى حدائق الحيوان تقول : «إن هذا الحيوان منشؤه جديد على العلم» . وفي داخل القفص تجد سنجاباً صغيراً له أقدام سوداء ومنشؤه افريقيا. فما من سنجاب ذي أقدام سوداء وجد في هذه القارة من قبل وما من شيء عرف عنه . فليس له اسم .

إلا أنه يشكل تحدياً صريحاً ومباشراً لعلماء الحيوان . ما هي الأمور التي جعلته فريداً ؟ كيف يختلف عن الثلاثمائة وستة وستين نوعاً آخر من السناجب المعروفة والمصنفة ؟ لا بد ، بطريقة ما ، وفي مرحلة ما من مراحل تطور فصيلة السنجب أن أسلافه قد انفصلت عن الفصائل الأخرى وكونت تجمعاً مستقلاً عن غيرها . ما هي البيئة التي أدت إلى إمكانية فصلها وجعلها شكلاً جديداً من أشكال الحياة ؟ لا بد أن هذه الفصيلة الجديدة قد اتخذت لنفسها أرضاً جديدة وأخذت تتبدل شيئاً فشيئاً وتؤقلم نفسها مع الظروف الحياتية الجديدة . إلا أنها حتى في هذه المرحلة كانت تتزاوج مع أقربائها المجاورين. إن هذه الفصيلة الجديدةلها حسنات في منطقتها الخاصة إلا أنها لا تعدو كونها فصيلة من الأصل الواحد ويمكن لها ان تستوعب في أصلها بني أقرانها في أي مرحلة كانت . فلو أنها على مر الزمن ، أخذت تنسحب نحو بيئتها التي اعتادت عليها عندئذ يحين الوقت لأن تصبح في معزل عن اقرانها من الأصل الواحد ولا تستطيع التزاوج بها . عندئذ في هذه المرحلة يطرأ على سلوكها الجنسي والاجتماعي تعديلات خاصة مما يجعل امر التزاوج بأقرانها المجاورة مستحيلاً . ففي

بداية الأمر يأخذ تشريحها الجسدي بالتبدل وتبدأ بالتأقلم مع طعام المنطقة الجديد كما ان تناسلها يأخذ بالاختلاف . فهي تبدأ باستدراج الجنس الآخر من فصيلتها الجديدة فقط . وأخيراً نجد أن نوعاً جديداً من السنجاب قد تطور واصبح منفصلاً ونوعا جديداً من أنواع الحياة أي النوع السابع والستين بعد الثلاثمائة .

عندما نلقي نظرة على سنجابنا غير المعروف في قفص حديقة الحيوان نستطيع ان نخمن هذه الأمور. كل ما نستطيع أن نؤكده هو تلك العلامات الفارقة في فروته وقدميه السوداوين والتي تجعلنا نعتبره سلالة جديدة . إلا أن هذه الاوصاف ما هي إلا أعراض . تماماً كما تفعل البقع الحمراء على جلد المريض في إعانة الطبيب على تشخيص المرض ولكي نفهم فعلاً هذا النوع الجديد من السنجاب علينا ان نستخدم تلك الأعراض الخارجية كنقطة بداية يجدر الاهتمام بها . ربما نحاول ان نحزر تاريخ الحيوان إلا أن ذلك يؤدي إلى خطورة . وبدلاً من ذلك سنحاول ان نبدأ (بكل تواضع) بإعطائه اسماً بسيطاً وواضحاً : فلنسمه السنجاب الافريقي الأسود القدمين . ولكن علينا أن نلاحظ وان نسجل كل جانب من سلوكه وتكوينه ونرى كيف يباين أو يشابه السنجاب العادي . بعد ذلك ، شيئاً فشيئاً نستطيع أن نجمع شتات تاريخه .

إن الحسنة الكبرى بالنسبة لنا عندما ندرس مثل هذا الحيوان هي أننا أنفسنا لسنا بذوي الأقدام السوداء . هذه الحقيقة تجبرنا على التواضع في موقفنا تجاه البحث العلمي . فحري ان تختلف الأمور بشكل مزعج عندما تقوم بدراسة الإنسان الحيواني . وحتى عالم الحيوان الذي اعتاد أن يسمي الحيوان باسمه يجد صعوبة في تجنب خيلائه كإنسان يتنازل فيبحث في موضوع الحيوان .

اننا نستطيع ان نتغلب على هذا الأمر إلى حد ما حينما ندرس المخلوق البشري إذا صممنا على اعتباره سلالة اخرى وشكلاً آخر من أشكال الحياة على طاولة التشريح ، ونحن بانتظار التحليل . كيف لنا أن نبدأ ؟ .

بالنسبة للسنجاب الجديد نستطيع أن نبدأ بمقارنته مع الفصائل الأخرى التي تبدو أكثر تقارباً مع بعضها بعضاً . فمن أسنانه ويديه وعينيه وخصائصه التشريحية الأخرى يبدو لنا بكل وضوح أنه نوع شاذ . ولكن كم يبدو الأمر غريباً لو وضعنا جلود مائةواثنتين وتسعين فصيلة من فصائل القردة والسعادين الواحد بجانب الآخر على شكل نسق ثم ضممنا اليها جلد إنسان في نقطة ما في هذه السلسلة الطويلة . فلو قدر لنا ان فعلنا ذلك لكان جلد الإنسان يتميز عن الجلود الأخرى كلية . عندئذ سيتحتم علينا أن نضعه في نهاية النسق بين الجلود الحيوانية الأخرى إلى جانب جلود القرود التي لا ذيل لها كالشمبانزي والغوريلا . إلا أنه يبدو مختلفاً هنا أيضاً .

فالأرجل طويلة جداً والذراعان قصيران والقدمان تبدوان غريبتين اذا ما قورنت هذه الأطراف بالنسبة للقرود . ويبدو واضحاً أن هذا النوع من المخلوقات قد تطورت عنده خصائص الحركة مما جعله يعدل في شكله الخارجي . وهناك خاصة اخرى تلفت انتباهنا وهي ان جلد الانسان عار ما عدا بعض الأمكنة كالإبط والرأس وحول الأعضاء الجنسية . أما بقية سطح الجلد فمعرضة تماماً للطبيعة . وإذا ما قورن جلد الإنسان ببقية القردة فالتناقض يبدو واضحاً . ويصبح القول ان هناك انواعاً من القردة لا تخلو جلودها من بعض الشعر في وجهها وصدرها إلا أنه ليس هناك بين المائة والاثنين والتسعين نوعاً من القردة ما تشابه مواصفاته مواصفات الانسان . لذا يصح لنا عند هذه النقطة ، أن نطلق على الإنسان لقب القرد العاري . ان هذا اللقب هو عبارة عن تسمية وصفية بسيطة تعتمد على ملاحظات بسيطة ولا تعتمد افتراضات خاصة . لعل هذا اللقب يساعدنا في الحفاظ على التوازن والموضوعية .

عندما يطيل العالم بالحيوان النظر الى هذه الزمرة من المخلوقات الغريبة متحيراً من ملامحه الفريدة ، لا بد له عندئذ من البدء بإجراء المقارنات . انّى لنا ان نجد العرى ميزة اولية بين الحيوانات ؟ فالحيوانات الأخرى لا تساعدنا في ذلك لذا بات من الضروري أن نوغل أكثر . فالمسح السريع للحيوانات الثديية بأكملها يثبت لنا انها لا تزال محتفظة بغطائها من الفراء وان نسبة ضئيلة من بين ٤٢٣٧ نوعاً من الحيوانات

المعاصرة قد تخلت عن جلودها التي يكسوها الفراء . لقد اكتسبت الثدييات الميزة الحسنة في كونها استطاعت ان تحافظ على حرارة جسدها العالية المنتظمة بخلاف اسلافها من الثدييات . ان هذا الأمر يجعل من عمل آلية الجسم الدقيقة فعالاً جداً .

إن جهاز التحكم بدرجات الحرارة في الجسم ذو قيمة حيوية وان تواجد طبقة شعرية عازلة على سطح الجلد يلعب دوراً اساسياً في منع تسرب الحرارة من الجسم . واثناء حرارة الشمس الشديدة فالشعر يمنع فيض الحرارة كما يمنع التعرض المباشر لأشعة الشمس . فلو اغفلنا الشعر فلا بد اذن ، من وجود سبب قوي للتخلي عنه وبغض النظر عن بعض الشواذ فإن هذه الخطوة الهامة لا يمكن أن تخطوها الثدييات إلا إذا استطاعت ان تؤ قلم نفسها في وسط جديد كلية اما الثدييات الطائرة كالوطاويط فقد اجبرت على عرى اجنحتها إلا أنها احتفظت بفرائها في مواضع اخرى ويصعب اعتبارها كمخلوقات عارية . أما الحيوانات الثديية الجحرية كحيوان الخلد والمدرع فقد قللت في بعض الأحيان من وجود كسائها الفرائي . وأما الحيوانات الثديية المائية كالحوت والدلفين والهيبوتاموس فقد تعرت تماما . إلا أن حيوانات اليابسة الثديية التي تأوي إلى ما بين النباتات فقد احتفظت ببعض الشعر الكثيف على جلدها . وبغض النظر عن تلك الحيوانات العملاقة الثقيلة الوزن كوحيد القرن والفيل (اللذين لهما مشاكل تدفئة وتبريد خاصة بهما) ينفرد القرد العاري بين آلاف المخلوقات الثديية الأخرى ذوات الشعر على سطح اليابسة ، بتعريه من الشعر .

عند هذا الحد يجبر العالم بالحيوان على استخلاص النتيجة . فهو اما أن يعتبر نفسه بصدد حيوان جحري أو حيوان ثديي مائي ، أو أنه بصدد ظاهرة شاذة تنفرد فعلا في تاريخ تطور القرد العاري إن أول عمل يقوم به العالم قبل الشروع في مراقبة الحيوان في شكله الحاضر هو ان يتقصى ماضيه ويتفحص اسلافه المباشرة لربما يتمكن من أن يحصل على بعض من الصورة لما يكون قد حدث وأدى إلى ظهور القرد العاري وذلك عندما نقوم بعملية فحص دقيقة للمستحاثات وبعملية تمحيص لأقرب أقربائه من الحيوانات .

سيطول بنا الأمر إذا أردنا أن نعرض هنا جميع الجزئيات الدقيقة من الحقائق التي جمعت بعد جهد جهيد في فترة القرن الماضي . ولكننا سنستفيض عن ذلك بتسليمنا أن هذه المهمة قد قام بها علماء القرن الماضي واننا سنكتفي بتلخيص النتائج التي يمكن ان تستخلص منها بالإضافة إلى ضم تلك المعلومات الى الحقائق التي جمعها العلماء أثناء مراقبتهم ودراستهم للقردة . إن فصيلة القردة التي ينتمي اليها القرد العاري نشأت من أصل الحيوانات البدائية التي تأكل الحشرات . لقد كانت هذه الثدييات المبكرة مخلوقات صغيرة تافهة تعدو في الغابات بينما كانت الزواحف تهيمن على الساحة الحيوانية . فبين ثمانين وخمسين مليون عام بعد انهيار عصر الزواحف بدأت هذه الحيوانات آكلة الحشرات بالظهور على اراضٍ جديدة . وهناك أخذت تنتشر وتنمو في أشكال غريبة وعديدة . لقد أصبح بعضها آكلة نباتات وتأوي الى الجحور وبعضها الآخر أصبح لها سيقان طويلة تنجو بها من أعدائها . كما أصبح لبعضها مخالب طويلة وأنياب حادة تقتل فريستها بها . وعلى الرغم من انسحاب الزواحف الهائلة الرئيسية من الساحة إلا أن اليابسة عادت ثانية وأصبحت مسرحاً للقتال .

وفي هذه الأثناء بقيت بعض المخلوقات ذوات الأرجل الصغيرة تتشبث بالنباتات والحشائش طلباً للنجاة . أما الحيوانات الآكلة للحشرات فقد بدأت توسع وجبة طعامها فتغلبت على مشكلة التهام الفواكه وأنواع الجوز والبراعم وأوراق الشجر . وبينما كانت هذه الحيوانات آخذة في التطور تحسن بصرها واصبحت عيناها في مقدمة الوجه وتطورت اليدان إلى مقبض للأعشاب . وبينما تطور بصرها وتطورت أطرافها نحو سهولة التحرك وتطور دماغها وكبر اخذت هذه المخلوقات تسيطر شيئاً فشيئاً على عالمها الأخضر .

في مرحلة ما بين خمسة وعشرين مليون إلى ثلاثين مليون عام بدأت هذه القردة المبكرة بالتطور نحو قردة بالمعنى الصحيح . لقد بدأت تتطور نحو بروز ذيل طويل مناسب ونحو نمو حجم الجسم . وبينما تطور بعضها فأصبح اختصاصياً في أكل أوراق

النباتات اتجه بعضها الآخر نحو استخراج وجبات الطعام المنوعة وبمرور الزمن أصبح بعض هذه المخلوقات الشبيهة بالقردة أكبر حجماً وأثقل وزناً من ذي قبل . وبدلاً من القفز انتقلت إلى مرحلة التأرجح على اغصان الأشجار . ولم تعد الحاجة إلى أذنابها ماسة في هذه المرحلة . وعلى الرغم من أن حجمها أخذ يعيقها وهي فوق الشجر إلا أنه جعلها أقل احتراساً وضرراً مما على الأرض .

هناك الكثير يمكن قوله في هذه المرحلة ـ أي مرحلة القردة ـ عما كانت تفعله في سبيل تأمين الراحة وسهولة قطف الفواكه في غابتها . وهي ما كانت تتنقل إلا إذا دفعتها بيئتها إلى الأماكن المفتوحة بخلاف الثدييات الأخرى التي خصت نفسها بالغابة . لقد انقضت ملايين السنين من التطور في تطوير هذه القردة الارستقراطية . ولو قدر لها العودة إلى الغابة ثانية فعليها أن تنافس الحيوانات المفترسة الآكلة للأعشاب التي خصت نفسها بالغابة . وهكذا نجد ان هذه القردة في الأماكن المفتوحة تقضم الفواكه ولا تتدخل فيما لا يعنيها .

لا بد لنا من التأكيد أن هذه الفصيلة من القردة اخذت تتطور فقط في مرحلة العالم القديم . أما بقية القردة فتطورت بمعزل عنه واصبحت من ساكني الأشجار في كل من مرحلة العالم القديم والجديد . إلا أن فرع القردة الاميركية لم تدرك تطور القرد العاري . ومن جهة ثانية فالقردة العارية السلف أخذت تنتشر في العالم القديم في مساحة واسعة من غابات غرب افريقيا وحتى جنوب شرق آسيا . أما اليوم فإن آثار هذا التطور تمكن ملاحظته في الشامبانزي والغوريلا الافريقيين وفي قردة الجبون والاورانج اوتانج الأسيويين . أما بين هذين القطبين فيخلو العالم من القردة ذات الشعر . لقد اختفت الغابات الكثيفة من العالم .

ماذا حدث للقردة المبكرة ؟ اننا نعلم أن المناخ بدأ يعمل ضدهاوانه في مرحلة ما منذ خمسين مليون سنة أخذت معاقلها من الغابات تنحسر في الحجم . لقد كانت القردة «السلف» مجبرة على القيام بأحد أمرين اما أن تتثبت بما تبقي من موطنها في الغابة

أو أن تخضع لطردها من الغابة . لقد بقي سلف الشامبانزي والاورانج اوتانج في معاقلهما إلا أن تعدادها أخذ يتناقص منذ ذلك الحين . إلا أن اسلاف القرد العاري غادروا الغابات وقذفوا بأنفسهم في خضم المنافسة مع سكان اليابسة الأخرى ، لقد كانت مغامرة خطرة بالنسبة لهم وبالنسبة لشروط التطور إلا أن المغامرة أثمرت وكانت النتيجة مجدية اضعافاً مضاعفة .

ان قصة نجاح القرد العاري منذ تلك المرحلة وما بعدها معروفة جداً إلا أن ملخصاً مختصراً يفيدنا وذلك لأنه من الضروري ان نتذكر الحوادث التي تلت ان كنا نود الوصول الى فهم موضوعي لسلوكية عرقنا البشري الحاضر .

عندما اعترضت اسلافنا بيئة جديدة جابهوا الاحتمالين التاليين : كان عليهم إما أن يصبحوا قتلة أفضل مما سبقهم من أكلة اللحوم في القديم أو أن يصبحوا نباتيين أفضل مما سبقهم من الحيوانات النباتية في القديم - أي بمعنى آخر ، كان النجاح حليفهم في كلتا الحالتين . ان عمر الزراعة ليس سوى نحو من آلاف السنين على الرغم من أننا الآن نتحدث عن ملايين السنين . لقد كان استغلال الحياة النباتية في الأماكن المفتوحة أمراً خارج نطاق قدرة اسلافنا إلى أن جاء تطور التقنية الزراعية العصرية . لقد كان ينقصهم الجهاز الهضمي الضروري لالتهام ما تجود به الأرض الزراعية . ولم تكن وجباتهم سوى ما يحصلون عليه من جذور النباتات على مستوى الأرض وكانت إمكاناتهم محدودة . فقد كانوا بدلاً من الوصول إلى أعلى الشجرة للحصول على فاكهة طازجة ، يكتفون بحفر وخدش في التربة الصلبة للحصول على طعامهم وهم يقاسون الأمرين .

لم تكن وجبات القرد في الغابة كلها من الفواكه وأنواع الجوز إذ لا ريب أن حاجته إلى البروتين الحيواني كانت عظيمة . ويجب ألا ننسى أنه ينحدر من سلالة آكلة الحشرات كما ذكرنا وأن موطنه القديم - أي الغابة - كان غنياً بالحشرات . وكانت وجباته تتألف من صغار الحيوانات والبيض والبق والضفادع والزواحف الصغيرة .

وأهم ما في الأمر أن هذه الوجبات لم تكن تشكل له متاعب هضمية . أضف إلى ذلك أن هذه الوجبات كانت متوفرة له على الأرض ولم يكن هناك ما يوقف دأبه في زيادة أصناف وجبته في الطعام . في البداية لم يكن قاتلاً محترفاً كبقية الحيوانات الآكلة للحوم حتى أن نمسا صغيراً كان باستطاعته ان يقتله ان لم نقل قطاً كبيراً يستطيع ذلك أيضاً . وكانت صغار الحيوان بما فيها المريضة والنحيلة جميعاً في متناول يده مما جعل الأمر سهلاً عليه ليخطو الخطوة الاولى نحو آكل اللحوم . إلا أن أولى المكافآت التي كان يكافأ بها في حياته هي كون ساقيه طويلتين تساعدانه على الجري هرباً من الخطر . وقد بقيت الحيوانات ذوات الحوافز الغنية بالبروتين خارج استطاعته .

نأتي الى المليون الاخير أو نحوه من السنين في تأريخ أسلاف القرد العاري والى عرض لسلسلة في التطور المشوق الذي رافق الانسان أو القرد العاري . لقد توافقت عدة حوادث وعلينا ان نعي هذا الأمر جيداً . لكن ما يحدث دائما هو عندما تروي القصة أن اجزاءها المنفصلة تنتشر وتتوسع وكأن كل تفصيل من هذه القصة يرفد التفصيل الآخر الا ان هذا الأمر مضلل للحقيقة . ان لسلالة القرود أدمغة كبيرة وذات نوعية عالية . ولهذه السلالة عينان جيدتان ويدان صالحتان للامساك . وهي بالضرورة تحتفظ بنسبة من التنظيم الاجتماعي . وبسبب حاجة سلالة القرود الى شجاعة لابأس بها للتغلب على فريستها ادى الأمر بالتالي الى تغيرات حيوية أخذت تطرأ عليها . فأصبحت أكثر استقامة في قامتها وازدادت سرعتها . اما ايديها فتحررت من قيود الحركة واصبحت قوية وفعالة وقادرة على حمل السلاح . أما الدفاع فأخذ يتعقد ويزداد ذكاؤه وسرعته على اتخاذ القرارات . لم تتعاقب هذه الأمور في تعاقب منتظم ، لقد تبلورت كل حلقة من السلسلة السابقة مع بعضها وفي آن واحد . وكل تقدم دقيق يطرأ كان يحث الآخر على الانبعاث وهكذا دواليك . هكذا نجد كيف تمت عملية وجود القرد الصياد او القرد القاتل .

قد نتساءل ماذا لو أن عملية التطور فضلت الخطا الاقل تعقيدا فأدت الى تواجد القط النموذجي أو الكلب القاتل أو نوعاً آخر من القطط ـ القردة ـ؟ ماذا يحدث لو

كبرت الاسنان واصبحت باجراءات بسيطة اسلحة على شكل أسنان مفترسة ؟ لو كان الأمر كذلك لوضعت سلالة القردة في تنافس مباشر مع القطط والكلاب المفترسة . ويعني ذلك ان التنافس معها يجب ان يتم بشروطها وعندئذ تكون العاقبة لا ريب وخيمة بالنسبة للقردة . (ان كل ما نعرفه أن هذا الأمر قد حدث وفشل لدرجة انه لم تكتشف اثاره) . وقد استعاض القرد العاري باسلحة صناعية بدلاً من أسلحة طبيعية وكانت النتيجة ايجابية .

كانت الخطوة التالية هي صناعة الأدوات بعد خطوة استعمالها ولم يؤ د ذلك الى تطور في فن الصيد بمعنى تقنية لاسلحة فحسب بل بمعنى التعاون الاجتماعي . لقد كانت القردة الصيادة تصطاد جماعياً وبتحسن وسائل الصيد لديها تحسنت ايضا طرق تنظيمها الاجتماعي . فقطيع الذئاب يشتت بعضه بعضا بخلاف القردة الصيادة التي تملك أدمغة أفضل من الذئاب تمكنها من استخدام عقولها في أمور تعود بالنفع على الجماعة . وبالتالي تطورت هذه العلاقات الاجتماعية وازدادت تعقيداً .

بشكل رئيسي كان هذا حال مجموعة الصيادين الذكور . اما الاناث فكانت تربي صغارها بحيث تصبح قادرة على مطاردة الفرائس وعملية القنص . وكلما ازداد الصيد تعقيدا طالت فترته واصبح ضرورياً للقرد الصياد ان يتخلى عن بعض طرقه البدوية التي مارسها أسلافه . فبات من الضروري ايجاد ما يشبه المنزل للعودة اليه حاملا صيده حيث الانثى وصغارها ينتظرونه ويشاركونه الطعام . ان لهذه الخطوة التأثير الكبير ، كما سنرى في الفصول التالية ، على الكثير من جوانب السلوك لدى أرقى القردة المعاصرة في الوقت الحاضر .

وهكذا أصبح القرد الصياد قردا يرتبط بالأرض . لقد بدأت تتأثر جميع نزواته الجنسية والأبوية والاجتماعية . اما طرقه القديمة في التجول وقطف الثمار فقد أخذت تتلاشى بسرعة . لقد ترك فعلا غابته . لقد أصبح قرداً له مسؤ ولياته . لقد بدأ يقلق نفسه حول ما يعادل الغسالات والبرادات ما قبل التاريخ . لقد بدأ يطور الأشياء التي

تؤ من له الراحة المنزلية من المدفأة وتخزين الطعام والمأوى الاصطناعي . ولكن علينا أن نتوقف هنا لبرهة لاننا خرجنا من مملكة علم البيولوجيا واخذنا ندخل الى مملكة الثقافة . ان الاسس البيولوجية لهذه الخطا المتقدمة تكمن في تطور الدفاع الى حد كبير ومعقد بشكل كاف يمكن القرد الصياد من اتخاذ هذه الخطا لكن الاشكال الدقيقة لهذه الخطا لم تعد قضية خاصة بعلم الوراثة . فالقرد الذي كان يقطن الغابة والذي أصبح يقطن الأرض المفتوحة ثم الأراضي الاقليمية قد أصبح الآن قرداً متحضراً . لذا بات من الضروري ان ندعو الى وقفة مؤ قتة .

وتجدر الاشارة هنا ان نكرر باننا في هذا الكتاب بصدد التفجر الثقافي الضخم الذي تلا والذي يفخر به القرد العاري المعاصر ـ ذلك التقدم الذي قاده من صناعة النار الى صناعة المركبات الفضائية . انها قصة مثيرة الى درجة ان القرد العاري معرض الى الوقوع في الغرور ، متناسيا ان تحت هذا السطح البراق لازال يكمن قرد (فالقرد هو قرد والوغد وغد رغم ارتدائه الحرير او اللون القرمزي) . حتى القرد الذي يغز و الفضاء يتبدل .

لا نستطيع ان نصل الى فهم موضوعي لوجودنا الخارق الا اذا القينا نظرة موضوعية على أصولنا ومن ثم تدارسنا الجوانب البيولوجية لسلوك الانسان المعاصر .

اذا قبلنا بتاريخ تطورنا كما هو ملخص هنا عندئذ تبر ز حقيقة واضحة وهي اننا نشأنا من أصل حيواني آكل للحوم . اما قياساً على القردة والنسانيس المعاصرة فاننا نبر ز منفردين ولكن تحولات من هذا القبيل ليست مجهولة بين الفصائل الأخرى من الحيوانات. فحيوان الباندا العملاق هو مثل حي للتطور المعكوس. فحينما كنا مخلوقات نباتية تحولت الى آكلة اللحوم تحول الباندا من آكل للحوم الى نباتي. فهو مثلنا مخلوق غير عادي ومنفرد . المشكلة هي ان تحولا رئيسيا من هذا القبيل ينتج حيواناً مزدوج الشخصية . ومتى خطا العتبة يقذف بنفسه الى دور جديد يلعبه بطاقة متطو رة عظيمة ـ لدرجة انه يحمل معه الكثير من السمات القديمة . لم يمض وقت كاف ليتخلى عن خصائصه القديمة بينما يحمل بسرعة خصائصه الجديدة . عندما غزا

السمك القديم اليابسة لاول مرة اخذت خصائصه الجديدة تتسابق الى الوجود بينما بقيت خصائصه المائية القديمة تجر أذيالها معها . يستغرق الامر ملايين من السنين لاكمال نموذج الحيوان الجديد بينما النموذج الرائد يبقى مزيجا شاذاً فعلاً . ان القرد العاري هو ذلك المزيج اذ يكيف جسمه باكمله وطريقته في الحياة وفق تواجده في الغابة . ثم فجأة يجد نفسه مقذوفاً به الى عالم يحتم عليه ان اراد الحياة ان يعيش كذئب ذكي وحامل للسلاح . علينا الآن أن نبحث في الكيفية التي تأثر بها ليس جسمه فحسب بل سلوكه وفي أي شكل يبقى سلوكنا متأثراً بارث الماضي .

ان احدى هذه الطرق لمعرفة ذلك هي اجراء مقارنة بين بنيان وطريقة الحياة لدى قرد حقيقي وهو يقطف الثمار وبين أحد الحيوانات آكلة اللحوم . وحتى يتوضح لدينا الفرق بين طريقتيهما في تناول الطعام عندئذ نستطيع ان نعيد البحث في وضع القرد العاري لنرى كيف يعمل ذلك المزيج .

ان أكثر النجوم اشعاعاً في مجرة الحيوانات الآكلة للحوم هي الكلاب البرية من جهة والذئاب والقطط الكبيرة كالاسود والنمور والفهود من جهة ثانية . انها مجهزة بشكل كامل باعضاء حسية دقيقة . فحاسة السمع لديها قوية لدرجة ان اذنيها الخارجيتين تستطيعان الحركة باي اتجاه لتلتقطا أقل صوت زمجرة أو حفيف . أما عيناها فرغم ضعفهما في تمييز التفاصيل والألوان تتجاوبان مع أقل حركة بشكل مذهل . واما حاسة الشم فهي قوية لدرجة انه يصعب علينا فهمها . فهي تستطيع بواسطة حاسة الشم لديها أن تختبر مجموعة كبيرة من الروائح . لا تستطيع ان تميز رائحة واحدة من بين مجموعة كبيرة من الروائح فحسب بل تستطيع ان تفرق بين المركب الواحد من الرائحة الواحدة المعقدة . لقد دلت التجارب التي أجريت عام ١٩٥٣ على أن حاسة الشم لدى الكلاب تفوق حاسةالشم لدى البشر بمليون أو ألف مليون مرة. لقدشك في صحة هذه التجارب المذهلة ولم تستطيع التجارب التي تلتها ان تثبت صحتها الا ان تخمين العلماء الأكثر دقة يقدر أن حاسة الشم لدى الكلاب تفوق مائة مرة حاسة الشم لدى الانسان .

وبالاضافة لهذه التجهيزات الحسية نجد آن لدى الكلاب البرية والقطط الكبيرة جسماً رياضياً . فلقد اختصت الكلاب بالجري السريع كالبرق وعند لحظة القتل الحاسمة نجد أنها مجهزة بفكين قويين واسنان متوحشة كما نجد لدى الأسود والنمور مثلاً أطرافاً امامية ذات عضلات قوية ومجهزة بمخالب شبيهة بالخناجر الحادة والضخمة .

لقد أصبح فعل القتل لدى هذه الحيوانات غاية في حد ذاتها اي غاية استهلاكية . ويصح القول انها في أحيان كثيرة لا تقتل لمجرد القتل . ولكن اذا الحيوان في الأسر أعطي لحماً جاهزاً نجد أن غريزة الصيد عنده لم تشبع كما ينبغي . في كل مرة يخرج السيد كلبه الى النزهة ويلقي له عصا ليأتي بها نجده لا يوفر على نفسه أي مشقة في إلقاء نفسه باتجاه العصا ، بمعنى أن غريزة الصيد لديه تتوثب لهذه اللحظة بشكل يصبح الطعام المعلب لا يوازي السعي وراء صيده . حتى القط المدجن والمغذى جيداً يحن الى اطلاق سراحه في سبيل الهجوم والانقضاض على طائر لا يتوقعه .

إن جهاز هذه الحيوانات الهضمي مجهز بشكل يتقبل فترة طويلة من الصيام . (فالذئب مثلاً يستطيع التهام خمس وزنه في الوجبة الواحدة أي ما يعادل خمسة عشر كيلو أو عشرين كيلو من اللحم اذا افترضنا على سبيل المقارنة ، اننا نستطيع ان نأكل تلك الكمية كبشر في الوقعة الواحدة) . ان طعامها ذو قيمة غذائية عالية ولا يذهب هدراً الا القليل منه . اما غائطها فهو مقرف وذو رائحة كريهة . ولتغوطها سلوكية خاصة . وفي بعض الأحيان تدفن غائطها وتغطيه . وفي الأحيان الأخرى تتم عملية التغوط في مكان بعيد عن مكان إقامتها . وعندما تملأ الصغار الجحر بالوسخ نجد أن الأم تلجأ الى أكل الغائط بحيث تجعل المكان نظيفاً .

يحاول الحيوان التخزين البسيط لطعامه . فمثلاً جلد فريسته أو أجزاء منها قد يدفنها كما هي الحال مع الكلاب وبعض انواع القطط . أو قد يحملها الى الشجر كما

هي الحال مع الفهود . ويتخلل فترات الرياضة الشديدة أثناء القنص والقتل بعض فترات من الاسترخاء والكسل . وأثناء المجابهات الاجتماعية تصبح الأسلحة القاتلة فعالة لدرجة انها تشكل خطراً قوياً للحياة أثناء أي نزاع بين الخصوم . فلو أن ذئبين أو أسدين اشتركا في نزاع يصبحان مسلحين تسليحاً قوياً لدرجة ان المعركة تحسم في غضون ثوان معدودة وتؤدي الى الموت . ان هذا الأمر يعرض للخطر بشكل جدي بقاء النوع وأثناء هذه الفترة الطويلة من التطور التي جهزت الحيوان بأسلحته المميتة لفريسته ، تطورت لديه الكوابح في عدم استخدام هذه الأسلحة ضد أبناء جنسه . ويبدو ان لهذه الكوابح بعض الأصول الوراثية فهناك وضعية أو وقفة خاصة قد تطورت لديه تهدىء بشكل تلقائي من انفعال الحيوان وكبحه عن الهجوم . ان امتلاكه لهذه المؤشرات جزء حيوي من أسلوب حياة الحيوان المفترس .

إن الطريقة الفعلية للصيد تتباين بين نوع وآخر من الحيوانات . فعند الفهود تأخذ طريقة الصيد شكل التسلل والاختباء ثم الانقضاض في اللحظة الأخيرة . اما بالنسبة لفرد الشيتا فهو يتبع طريقة التطواف خلسة ثم يليه الجري المفاجىء اما الأسد فتكون طريقته جماعية عادة حيث يقود أسد واحد فريسته وهي في حالة الفزع الشديد نحو زملائه المختبئين . اما قطيع الذئاب فيعتمد على المناورة حيث يتحلق القطيع حول الفريسة ثم يلي ذلك الانقضاض الجماعي . اما كلب الصيد الافريقي فيتخذ طريقة لا رحمة فيها مع فريسته حيث يتشكل فريق من هذه الكلاب تطاردها ويهاجمها كل كلب بمفرده حتى تخور قوى تلك الفريسة من جراء فقدانها لدمائها .

لقد دلت الدراسات الحديثة على أن الضبع المبقع هو أيضاً صياد جماعي وليس كما كان يظن بانه عبارة عن حامل للنفايات . وقع هذا الخطأ لأن سرب الضباع يتشكل في الليل اما في النهار فتعبث تلك الضباع بالنفايات عبثاً طفيفاً فقط . وعندما يحل الغسق تتحول الضباع الى قتلة دون رحمة تماماً كما هي الكلاب في النهار . وقد يرتفع عدد الحيوانات الصيادة الجماعية الى الثلاثين عنصرا . فسرعتها أثناء الصيد تفوق سرعة الحمار الوحشي أو الظباء التي لا تجرؤ على اطلاق سرعتها الكاملة كما

تفعل في النهار . وتبدأ الضباع بضرب وتمزيق ساق فريستها حتى تتلاشى قوتها فتسقط جريحة وتتخلف عن قطيعها ثم تهجم بقية الضباع على الفريسة فتمزقها ارباً ارباً حتى الموت . وتنطلق مجموعة الضباع هذه من قاعدة يصل عدد أفرادها الى العشرة ضباع أو المائة ضبع . اما الاناث فتبقى جاثمة حول القاعدة والذكور تتجول في الانحاء الأخرى . ولا يخلو الأمر من العدائية تجاه مجموعة أخرى من الأعداء الا أنه نادراً ما تظهر هذه العدائية بين أفراد المجموعة او الفرقة الواحدة منها .

ان اقتسام الطعام بين الأفراد أمر معروف عند عدد من أنواع الحيوان . بالطبع عند الغنيمة الكبيرة هناك وفرة من اللحم ما يكفي المجموعة بأكملها ولا داعي للشجار بين أفرادها . ولكن عملية اقتسام الطعام تأخذ أبعاداً أخرى . فمثلاً ، عرف عن الكلاب الافريقية الصيادة انها تجتر الطعام وتوزعه فيما بينها بعد انتهاء الصيد . وفي بعض الحالات وصل الحد الى اعتبارها «ذوات المعدة المشتركة» .

كثيراً ما تحدث المشاكل بين الحيوانات الآكلة للحوم وصغارها حول مشكلة تأمين الطعام لها . فاللبوة تصطاد وتحمل اللحم عائدة الى عرينها أو تلتهم كمية كبيرة منه وتجتره بعد ذلك لاشبالها . أما الذكور فعرف عنها أنها تساعد اللبوات في هذه المهمة ولكن لا يبدو الأمر شائعاً بينها جداً . اما من جهة ثانية فنجد أن الذئاب الذكور تعرف عنها أنها تنتقل مسافة تصل الى خمسة عشر ميلاً لتحصل على الطعام لاناثها ولصغارها على حد سواء . وتحمل العظام المليئة باللحم الى صغارها او انها تبتلع كمية كبيرة من اللحم عند القنص وتجترها عند مدخل جحورها .

هذه اذن ، بعض السمات الرئيسية لتلك الحيوانات الآكلة للحوم المحترفة التي تختص بها في الصيد . والآن كيف يمكن مقارنة هذه المعطيات بالسعادين النموذجية التي تقطف الثمار وبالقرود ؟؟

إن حاسة النظر لدى القرود هي أقوى من حاسة الشم . ففي عالم تسلق الشجر تصبح الرؤية الجيدة أكثر اهمية من حاسة الشم لذلك فالخطم قد ضمر

بشكل ملحوظ تاركاً للبصر الأفضلية . وفي عملية البحث عن الطعام تصبح ألوان الفواكه مؤشرات مساعدة وبخلاف الحيوانات الآكلة للحوم فالقرود قد تطورت لديها رؤية ذات ألوان جيدة . وأعينها أصبحت فعالة في تمييز التفاصيل . ان معظم طعامها ساكن وان عملية التحري عن الحركة الصغيرة تصبح فعالة في تمييز التفاصيل . ان معظم طعامها ساكن وآن عملية التحري عن الحركة الصغيرة تصبح أقل فعالية من عملية التعرف على الاختلاف في احجام تلك الأطعمة . ان عملية السمع هامة الا انها أقل أهمية بالنسبة لها بعكس الحيوانات التي تطارد فرائسها لذا فآذان القرود صغيرة وتنقصها تلك المرونة في الحركة المتوفرة لدى الحيوانات آكلة اللحوم . أما حاسة الذوق لديها فهي أكثر تطوراً . فوجبة الطعام متنوعة وذات نكهة ملحوظة ـ فهناك الكثير للتذوق وبوجه خاص هناك تجاوب ايجابي في تذوق الأشياء ذات الطعم الحلو .

ان فيزيولوجية القرد ذات صلاحية جيدة للتسلق لكنه غير صالح لعملية القفز على الأرض أو لتحمل الشدائد الطويلة الأمد . ان له جسم البهلوان وليس جسم الانسان الرياضي القوي . أما يداه فصالحتان للامساك والتمزيق والضرب . اما الأسنان فقوية بشكل كاف على عكس أسنان آكل اللحوم الضخم الذي يحتاج الى سحق وكسر طعامه . ان عملية قتل الفريسة الصغيرة لا تتطلب جهوداً جبارة اذ ان عملية القتل لدى القردة لا تشكل في الحقيقة جزءاً حيوياً من أسلوب حياتها .

ان عملية التغذية لدى القرود تتوزع على معظم أوقات اليوم . فبدلاً من التهام وجبات ضخمة ثم تليها فترات من الصيام الطويل نجد أن القرود والنسانيس تستمر في عملية قضم الطعام القليل ولكن على فترات متواصلة . هناك بالطبع فترات من الراحة خاصة في منتصف النهار وأثناء الليل لكن التناقض في ذلك ليس بالأمر الهام . فالطعام الساكن متوفر بشكل دائم وما على القردة سوى قطعه وأكله . اذا كان التنقل ضرورياً فهو فقط لأن ذوق تلك القردة اخذ في التبدل أو أن الفواكه أصبحت متوفرة في مواسمها في بعض الأماكن او غير متوفرة في غير مواسمها . ولا حاجة الى تخزين

الطعام الا في بعض الأوقات وبشكل مؤقت سوف تحتفظ بعض فصائل القردة بالطعام في أكياس خديها .

ان غائطها اقل بعثرة وأقل رائحة كريهة من غائط اكلة اللحوم وليس هناك أي سلوك معين تتبعه في التخلص من غائطها إذ أنه يسقط من على الأشجار وبما ان الجماعة في تنقل دائم فليس هناك أي خطر من أن يصبح غائطها كريهاً ومبعثراً . حتى أن القردة الضخمة والتي تأوي الى مأوى خاص نجدها تبدل مأواها بحيث لا خطر من تلوث بيئتها . (انه لمن المدهش أن نجد ان ٩٩ بالمائة من ملاجيء الغوريللا الافريقية المهجورة تحوي على مكان خاص بالتغوط في داخلها وقد اكتشف ان ٧٣ بالمائة من الغوريللا كانت قد استعملت هذه الأمكنة لسكناها . لذا فان هذا الأمر قد يزيد من احتمال انتشار تلوث البيئة وزيادة احتمال انتشار الأمراض بينها .) .

وبسبب توفر الطعام وكونه في متناول اليد لذا لم تكن هناك حاجة لانتشار الجماعة بحثاً عن الطعام . فكان باستطاعة الجماعة ان تنتقل او تهرب وتخلد الى الراحة او تنام مع بعضها في مجموعة متماسكة وكل فرد من هذه الجماعة يرقب تحرك الآخر . لذا نجد ان كل فرد يعرف تماماً تحركات الآخر جيداً . ان هذا الاجراء يخالف العرف بين الحيوانات الآكلة للحوم الأخرى حتى بين أجناس الحيوانات الأخرى التي تنفصل عن بعضها من حين الى آخر لا تتألف الوحدة الصغيرة المنفصلة من عنصر واحد فقط .

فالسعدان أو القرد مخلوق معرض للخطر . فهو يفتقر الى السلاح الطبيعي الذي يملكه الحيوان الآكل للحوم الآخر لذا نجده يصبح فريسة سهلة للقتلة من الحيوانات الاخرى ان وجد في معزل عن جماعته .

ان الروح التعاونية المتواجدة لدى قطيع الذئاب الصيادة غير متوفرة لدى القرود . المنافسة والهيمنة هما من نظم يومها . المنافسة في النظام الطبقي الاجتماعي

هي بالطبع واضحة لدى المجموعتين الا انها اقل حدة لدى السعادين والقرود . أما المناورات المشتركة والمعقدة فغير ضرورية لديها والمسعى في طلب الطعام لا يحتاج الى التعقيد أيضاً . فالقرد يكتفي بالعيش من دقيقة الى أخرى ويكتفي بكفاف يومه . ولا تحتاج القرود الى اجتياز المسافات الطويلة للبحث عن الطعام لأنه متوفر حولها . ولقد تدارس العلماء مجموعات الغوريللا الضخمة والشرسة كما تدارسوا تحركاتها حتى توصلوا الى أنها تقطع مسافة وسطية تقدر بثلث الميل تقريباً في اليوم الواحد . وأحياناً تقطع مسافة بضعة مئات من الأقدام فقط . اما الحيوانات الآكلة اللحوم الأخرى فهي على العكس ، تقطع في معظم الأحيان عدة أميال في رحلة صيد واحدة . وفي بعض الحالات عرف عنها انها تقطع مسافة مما يزيد عن خمسين ميلاً في رحلة صيد وتستغرق عدة أيام قبل عودتها الى سكناها . ان عادتها هذه في العودة الى مكان انطلاقها المعين امر تختص به الحيوانات الآكلة للحوم الا ان الأمر أقل شيوعاً بين السعادين والقردة . صحيح ان جماعة القردة تقطن مأوى نظيفاً الى حد ما الا انها في الليل قد تأوي الى مكان آخر عند نهاية تجوالها . انها تتعرف على المنطقة بأكملها بشكل عام لأنها غالباً تطوف فيها جيئة وذهاباً الا انها تميل الى استخدام المنطقة ككل بطريقة عشوائية . ان علاقات المجموعة الواحدة مع المجموعة الأخرى تتصف بعدائية أقل ودفاعية أقل أيضاً مما هي الحال عليه عند الحيوانات الآكلة للحوم الأخرى ، فالوطن بحسب معناه هو تلك المنطقة من الأرض المحمية لذلك فالقرود ليست بحامية نموذجية لهذه الأرض .

هناك نقطة تحتاج الى ايراد وهي أن الحيوانات الأكلة للحوم تحمل البراغيث اما القردةفلا . ولكنها مبتلاةبالقمل وبعض الحشرات الأخرى بعكس ماهو معروف لدى العامة وذلك بسبب بسيط ، ولفهم هذا الأمر فان من الضروري أن نعي اطوار البرغوث الحياتية . ان هذه الحشرة تضع بيضها ليس على جسم مضيفها لكن بين أحجار وكر مضيفها . وان بيضها يستغرق ثلاثة أيام ليتحول الى يرقة زاحفة . ان هذه الحشرة لا تتغذى على الدم بل على الأوساخ التي تتراكم على قذارات الحظيرة أو

العرين أو الملجأ . وبعد اسبوعين تغزل شرنقة وتتقوقع . وتبقى على هذه الحال الساكنة لمدة اسبوعين تقريباً قبل انبلاجها الى سن البلوغ جاهزة للقفز على مضيف مناسب . فعلى أقل تقدير ، تتكون هذه الحشرة منقطعة عن مضيفها في الشهر الأول من دورة حياتها .

ويتضح من ذلك كيف ان الثدييات القبلية كالسعادين والقرود لا تعاني مشكلة البراغيث . وحتى لو حدث أن أحد هذه البراغيث قد تناسل فوق أحد القرود عندئذ نجد أن بيوضها لا تستطيع البقاء باعتبار أن القردة في تحرك دائم وليس من المعقول استمرار التناسل في هذه الحالة . لذلك فإن البراغيث هي طفيليات تعتاش على الحيوانات ذات السكنى الثابتة كالحيوانات الآكلة للحوم النموذجية . إن أهمية هذا الموضوع ستنجلي الآن .

لقد حاولت ، بالطبع ، اثناء عرضي للفروقات بين اسلوب حياة الحيوانات الآكلة للحوم والقردة ، ان اركز إهتمامي على الصيادين النموذجيين الذين يصطادون في البقاع المكشوفة من جهة ، وعلى ساكني الغابات وقاطفي الفواكه من جهة ثانية ، هناك بعض الشواذ الثانوية للقاعدة العامة لكل حالة من الحالتين لكن علينا ان نركز اهتمامنا على الحالة الشاذة الرئيسية ـ أي القرد العاري . إلى أي مدى استطاع أن يعدل من أسلوب حياته ، في أن يسوي بين ما ورثه عن أسلافه وبين ما تبناه من عادة أكل اللحوم ؟ أي نوع من الحيوانات بالضبط قاده إلى أن يصبح كذلك ؟ .

إنه بادىء ذي بدء يملك المعدات الحسية الخاطئة للحياة على الأرض . فحاسة الشم لديه كانت ضعيفة كما كانت حاسة السمع ايضا . كما كان جسمه ضعيفاً أمام التجارب الحياتية القاسية كالوثب السريع . أما شخصيته فكانت تميل إلى روح المنافسة أكثر من روح التعاون ولا ريب ، فقد كان ضعيفاً في ميزة التخطيط والتركيز . لكن لحسن الحظ كان له دماغ كبير بمعنى ذكاء افضل من خصومه من الحيوانات الاخرى . وعند استقامة قامته فقد عدل في يديه وفي قدميه وعند تحسين مستوى ذكائه فقد اعطى لنفسه فرصاً كبيرة .

يسهل علينا أن نقول ذلك . ولكن زمناً طويلاً قد مر ، ليتم هذا كله . ولقد كان لذلك صدى كبير عند الجوانب الأخرى من حياته اليومية كما سنرى في الفصول القادمة . كل ما نحتاج ان نهتم به الآن هو كيف تم ذلك وكيف أثر هذا التعديل في جسمه على سلوكه في الصيد وفي طلبه للطعام .

وبما أن المعركة بين العقل والعضلات حسمت لصالح العقل فقد اتخذت خطوة اثناء التطور لزيادة مقدرة العقل . وما حدث كان غريباً الى حد ما . فالقرد الصياد اصبح قرداً صغيراً . إن هذه الخدعة في التطور ليست منفردة . فقد حدثت في عدد من الحالات . وان اردنا ان نبسط الموضوع لقلنا انها عملية «وقف نمو» بعض الصغار مدى الحياة . (هناك مثال مشهور حول هذا الموضوع هو ما يحدث للاكسولوتل وهو نوع من الضفدعيات يستطيع ان يبقى طيلة حياته فرخاً ويبقى قادراً على التناسل في هذه الظروف) .

إن عملية التطور هذه تساعد العقل على النمو وعلى التطور ولفهمها علينا أن نأخذ على سبيل المثال ، جنين السعدان النموذجي . إننا نجد أنه قبل الولادة يأخذ دماغ جنين السعدان بالنمو السريع في الحجم والتعقيد . وعند الولادة نجد ان دماغه قد نما إلى نسبة سبعين بالمائة من حجم دماغ السعدان البالغ . ان الثلاثين بالمائة الباقية تتم اثناء الأشهر الستة الاولى من حياته حتى ان الشمبانزي الصغير نموه في غضون السنة الاولى بعد الولادة . أما نحن البشر فعلى العكس من ذلك ، فدماغنا ينمو عند الولادة بنسبة ثلاث وعشرين بالمائة من حجم دماغ الانسان البالغ ثم يلي ذلك نمو سريع بعد الولادة لمدة ست سنين ولا تكون العملية الكاملة للنمو قد تمت حتى يصل المرء الى سن الثالثة والعشرين .

إذن بالنسبة لي أولئك فإن عملية نمو العقل تستمر خلال عشر سنوات بعد بلوغنا الجنسي اما بالنسبة للشمبانزي فهي تتم خلال ست أو سبع سنين قبل ان يصبح الحيوان قادراً على التناسل . ان هذا الأمر يوضح تماماً ما نعنيه بقولنا اننا قرود

صغيرة ، لكن بات من الضروري ان نبرهن على هذا الكلام . فنحن (او بالأحرى أسلافنا القردة الصيادة) أصبحنا صغاراً في نواح ما وليس في نواح اخرى . إن نسبة التطور التي شملت خصائصنا الأخرى خرجت عن طبيعتها ، وبينا تقدم النظام التناسلي لدى البشر بقي نمو دماغنا يتوانى متخلفا . وهكذا كان أيضاً شأن بقية الأعضاء . وبينا يتباطأ بعضها يبقى بعضها الآخر في مكانه . وبكلام آخر كانت هناك عملية صغيرة مميزة قائمة اثناء التطور . ومتى اخذ التطور مجراه فاختيار الطبيعة ينحاز نحو الاعضاء المتباطئة من التكوين العام للجسم التي ساعدت على بقائه في بيئته الجديدة المعادية له . ولم يكن الدماغ العضو الوحيد الذي تأثر بهذه العملية فقامة الجسم أيضاً تأثرت بالطريقة نفسها . فالرأس عند جنين الثدييات له محور ذو زوايا حادة بالنسبة لمحور بقية الجسم او الجزع . فلو ولد على هذه الحال لكان الرأس يشير الى الأرض بينا ينتقل على اطرافه الأربعة ولكن ما يحدث هو أن الرأس يدور قبل الولادة نحو الخلف حتى يصبح محوره على خط يتلاقى مع جذعه . وعندما يولد ذلك الجنين ويبدأ المشي يتجه رأسه الى الأمام بالطريقة المستحسنة . فلو قدر لهذا الحيوان أن يمشي على أطرافه الخلفية في وقفة شاقولية يصبح اتجاه رأسه إلى الأعلى ناظراً إلى السماء . أما بالنسبة للقرد الصياد فإنه من الضروري له أن يحافظ على زاوية رأسه وهو جنين أي في زوايا حادة بالنسبة للجسم وذلك لكي يبقى الرأس مواجهاً للأمام رغم وضعية الحركة الجديدة . هذا بالطبع ما حدث ، وهو مثال آخر عن المراحل التي طرأت قبل الولادة وبقيت على ما هي عليه بعد الولادة وحتى سن البلوغ .

يمكن أن نفسر الكثير من المزايا الفيزيولوجية الخاصة الأخرى عند القرد الصياد بالطريقة ذاتها : الصنف الطويل النحيل وتسطح الوجه وصغر حجم الأسنان وتأخر التسنين واختفاء حوافر الحواجب الكثيفة . في الواقع ان الكثير من الخصائص المنفصلة التي تمت في الجنين وكانت ذات قيمة كبيرة بالنسبة للقرد الصياد ليلعب دوره الجديد في الحياة ، هي نتيجة التطور التي كان يحتاجها . ففي احدى مراحل التطور استطاع ان يكتسب كلا من الدماغ الذي يحتاجه والجسم الذي يعايشه . فبات

باستطاعته ان يركض منتصب القامة ويداه حرّتان في حمل السلاح وفي الوقت نفسه تطور دماغه إلى الحد الذي يستطيع عنده أن يطور سلاحه . علاوة على ذلك ، لم يصبح أكثر ذكاء فحسب بل أصبحت طفولته اطول بحيث يستطيع اثناءها أن يتعلم من والديه وممن يكبرونه سناً . إن صغار السعادين والشمبانزي تميل إلى اللعب والاستكشاف والاختراع إلا أن هذه الظاهرة تموت بسرعة . أما في هذه المجالات ، فلقد كانت طفولة القرد العاري تمتد لتشمل سن الرشد ، اذ لديه الوقت الطويل الكافي ليقلد ويتعلم التقنيات الخاصة التي صممها الجيل السلف . أما ضعفه الفيزيولوجي وضعف غريزة الصيد لديه فيمكن ان يستعيض عنهما بذكائه وقدرته على التقليد . يمكن لوالديه أن يعلماه بشكل لا يستطيعه اي حيوان آخر .

إلا أن التعليم بمفرده لم يكن كافياً . بل كانت مساعدة الوراثة مطلوبة . ان التغيرات البيولوجية الجذرية في طبيعة القرد الصياد كان لا بد لها من مرافقة هذه العملية . فلو ان احدنا أخذ قرداً نموذجياً من القردة التي تسكن الغابة وتقطف الفواكه كالتي مر ذكرها في هذا الكتاب ، وأعطاه دماغاً كبيراً وجسماً صالحاً للصيد فإن ذلك سيعيق عملية الصيد لديه إن لم تتوفر له بقية التعديلات . وان تصرفه الجوهري سيكون خاطئاً . إنه قد يتمكن من التخطيط والتفكير بطريقة ذكية لكن دوافعه الحيوانية الأساسية ستكون من النوع الخاطىء . فإن عملية التعليم ستعمل ضد ميوله الطبيعية ليس في مسعاه في طلب الطعام فحسب بل ايضاً في سلوكه الاجتماعي والعدائي والجنسي وفي جوانب السلوك الاخرى الاساسية التي ورثها من أجداده . فلو تحكمنا في عوامل الوراثة هنا ، لكان التعليم الجديد عملية عسيرة عندئذ بالنسبة للصغار . إن التدريب العلمي يستطيع ان يحقق الكثير ولكن مهما كانت المراكز العليا في المخ ذكية فإنها تحتاج الى نسبة كبيرة من دعم المراكز الدنيا .

والآن لو أجرينا مقارنة في الاختلافات بين القرد النموذجي والحيوان الآكل للحوم النموذجي فلربما استطعنا ان نتبين كيف حدث ذلك . ان للآكل للحوم المتقدم ذكاء يفصل بين عملية المسعى في طلب الطعام (الصيد والقتل) وعملية الأكل . لقد

اصبحت العمليتان نظامين مميزين للدوافع بحيث لاتعتمدكل من العمليتين على الأخرى إلا جزئياً لقد توافق ذلك لأن السلسلة بأكملها طويلة ومضنية . إن عملية المسعى في طلب الطعام تباعد مداها كما أن عملية القتل اصبحت مكافأة في حد ذاتها . لقد دلت الابحاث التي أجريت على القطط ان السلسلة لديها قد اصبحت متفرعة الى عدة فروع : امساك الفريسة ـ قتلها وتجهيزها (نتفها) ثم أكلها . وكل مرحلة لها نظامها من الدوافع المستقلة جزئياً . فلو أشبعت أية مرحلة من السلسلة السابقة فهذا لا يعني أن المرحلة التالية قد اشبعت تلقائياً . ويختلف الوضع كلياً بالنسبة للقرد القديم قاطف الفواكه . هنا نجد أن مرحلة المسعى في طلب الطعام تتألف من البحث البسيط عن الطعام ومن ثم الأكل المباشر وهي بشكل عام عملية موجزة لدرجة أن لا حاجة لتقسيمها إلى أنظمة للدوافع منفصلة . ان هذا الأمر لا بد له من أن يتغير وأن يتغير بشكل جذري بالنسبة للقرد الصيّاد . فالصيد لا بد أن يكون مكافأة بحد ذاته ولم يعد بالامكان اعتباره مجرد سلسلة منشطة للقابلية الغذائية التي تؤدي إلى وجبة استهلاكية . لربما كانت عملية الصيد والقتل وتحضير الطعام بالنسبة للقطط تتألف من عدة سلاسل تتطور منفصلة ولها اهداف مستقلة ، تصبح في نهاية الامر غايات في حد ذاتها . حيث لا بد لكل من هذه الغايات أن تجد حدودها دون أن تؤدي بالضرورة الى إشباعها الأخرى . فلو تدارسنا كما سنفعل في الفصول المقبلة ـ سلوك المسعى في طلب الطعام لدى القرد العاري المعاصر ـ فلسوف نرى ان هناك الكثير من المؤشرات التي تدل بأن أمراً من هذا القبيل قد حدث فعلاً .

وبالإضافة إلى كون القرد الصياد قد أصبح قاتلاً فيزيولوجياً (على نقيض كونه قاتلاً عضراً) عليه أيضاً أن يعدل في تدبيره المتوافق زمنياً مع سلوكه في الأكل . لقد اخذ يتخلى عن الوجبات الصغيرة والقصيرة زمنياً واستعاض عنها بالوجبات الكبيرة والمتباعدة زمنياً . وهكذا نشأت لديه حاجة تخزين الطعام . وهكذا ايضاً نشأ الميل الأساسي في العودة إلى بيت معين ونشأ كذلك نظام في السلوك يتناسب مع هذا الميل .

وكان لا بد للتوجيه وللمقدرة على تعوّد العودة الى البيت أن يتحسنا . أما عملية

التغوط فكان لا بد لها من أن تصبح عملية تمارس على شكل فردي بدلاً من أن تكون مظهراً جماعياً .

لقد ذكرنا آنفاً أن نتيجة استخدام مسكن معين ادى إلى احتمال انتشار الطفيليات من الحشرات . كما ذكرنا ان الحيوانات الآكلة للحوم تستضيف البراغيث بعكس القردة فلو كان القرد الصياد الوحيد بين القردة في كونه ينتمي إلى سكن معين عندئذ نتوقع منه أن يتخلص من هذه الطفيليات التي كانت تزعج أجداده وهذا ما فعله تماماً . إننا نعلم أن جنسنا البشري تهاجمه في الوقت الحاضر هذه الطفيليات وإن لنا نوعاً معيناً من هذه الطفيليات التي تنتمي إلى فصيلة أخرى ، اي إلى فصيلة تطور ت ورافقت تطورنا ، ولو أتيح الوقت الكافي لتتطور إلى نوع جديد كلياً لكانت عندئذ مرافقة لنا طيلة الزمن ولاصبحت رفيقة مزعجة في حياتنا منذ زمن القرد الصياد المبكر .

ومن ناحية اجتماعية ، كان على القرد الصياد ان يزيد من نوازعه في الاتصال بالآخرين والتعاون معهم . وكان على تعابير الوجه والصوت ان تصبح أكثر تعقيداً . ومع أسلحته اليدوية الجديدة كان عليه ان يطور إشاراته الفعالة التي تمنع اعتداء والهجوم داخل المجموعة الواحدة . ومن جهة ثانية ، فباعتباره ينتمي الى بيت يحتاج الى الدفاع عنه كان عليه أن يطور انفعالاته العدائية تجاه اعضاء المجموعة المعادية .

وبسبب متطلبات اسلوب حياته الجديدة كان عليه أن يخفض حدة نزعته القوية الرامية إلى ترك عضويته في مجموعته ـ هذه النزعة التي كانت متأصلة في نفوس اسلافه .

وبسبب نزعته الجديدة في التعاون وبسبب نوعية الطعام الجديد الذي اعتاده كان عليه أن يشارك الآخرين في طعامه . وكما تفعل الذئاب الآباء تماماً ، وكما رأينا سابقاً ، كان على القرد الصياد الذكر أن يحمل المؤ ن من الطعام الى البيت ويودعه عند

الاناث المربية للصغار . إن هذا السلوك الابوي هو تطور جديد للقاعدة المتبعة لدى القردة القديمة ، قاعدة أن الاهتمام بالصغار لا يأتي الا من الامهات .

وبسبب طول فترة اعتماد الصغار على الكبار وضخامة حجم مطالبيها وجدت الامهات انفسها مضطرة أبداً للبقاء في البيت . وفي هذا المجال نجد ان القرد الصياد قد واجه مشكلة خاصة في اسلوب حياته الجديدة هذه المشكلة لم تقاسمه إياها الحيوانات الآكلة للحوم الأخرى .

إن دور الجنسين بين افراد القرود كان لا بد ان يصبح مميزاً . ان فرق الصيادين بخلاف الحيوانات الآكلة للحوم الأصيلة ، كان عليها ان يصبح افرادها جميعاً من الذكور . ولكن الذي كان يحدث هو أن الذكور تمضي الى الصيد تاركة وراءها اناثها بلا حماية مما قد تتعرض له من الذكور الاخرى التي قد تعود الى البيت بمفردها . إن حل هذه المشكلة يتطلب انتقالاً جذرياً في السلوك الاجتماعي . وعندما تطور القرد شكل رباطاً قوامه ذكر - انثى يصطادان مع بعضهما ثم يحبان بعضهما ويبقيان وفيين لبعضهما . هذا المفهوم الاجتماعي حل ثلاث مشاكل : لقد بقيت الأنثى وفيةلزوجها اثناء غيابه في الصيد كما أنه قلل من الخصومات الجنسية بين الذكور وساعدته على زيادة مفهوم التعاون بين الافراد . فلو ذهب الذكور الى الصيد لذهب الجميع بما في ذلك القوي والضعيف ، فالكل يؤدي دوره . وكان عليها ان تؤدي ادوارها كاملة ولا تلقي بها على عاتق الجماعة كما يحدث لدى الفصائل الاخرى من القردة . وعلاوة على ذلك فقد كان القرد الصياد بالاضافة إلى أسلحته المصطنعة واقعاً تحت تأثير تحقيق الانسجام الكامل مع الجماعة . أما ثالثاً ، عندما تطورت الوحدة العائلية المؤلفة من الذكر والانثى فقد استفاد الابناء من ذلك : فعملية التربية والتعليم الطويلة والمضنية كانت تتطلب وحدة عائلية مترابطة . أما في الأجناس الأخرى من الحيوانات كالأسماك والطيور والثدييات ان وجدت وكان العبء ثقيلاً على احد الأبوين نجد أن هناك رابطة قوية قوامها الذكر والانثى تنشأ طيلة فصل التناسل . وهذا ما حدث بالفعل بالنسبة للقرد الصياد .

بهذه الطريقة كانت الانثى واثقة من دعم الذكر لها وكانت قادرة على تكريس نفسها لواجباتها من الامومة . لذا كانت الذكور كذلك واثقة من اخلاص زوجاتها . وكانت تذهب الى الصيد دونما حاجة للنزاع على هذه الزوجات . أما الأبناء فكانت تحصل على الحد الأقصى من العناية والاهتمام ولكن قد يبدو الأمر وكأنه حل مثالي للمشكلة لكن ذلك يتطلب تغييراً جذرياً في سلوك القردة الجنسي - الاجتماعي كما سنرى فيما بعد - فالعملية لم تكتمل ابداً . يتضح من سلوك البشر المعاصرين ان هذه النزعة قد اكتملت جزئياً فقط بينما بقيت تلك النوازع القديمة التي ورثناها تظهر للوجود متخذة اشكالاً ثانوية .

هذه هي اذن الطريقة التي لعب فيها القرد الصياد دوره كحيوان آكل للحوم ، وبالتالي غيّر مما ورثه من سلوك اجداده ، من جراء ذلك . لقد نوهت ان تلك التحولات هي تحولات بيولوجية اكثر من كونها مجرد تحولات ثقافية وان النوع الجديد من القرد قد تحول عن الطرق الموروثة بالطريقة ذاتها . قد يعتبر المرء ان هذه فرضية غير مبررة . قد يشعر المرء ان مثل هذه القوة من التأثير التعليمي - تصبح معها التعديلات امرا سهلا . اني اشك في ذلك . فما على المرء سوى ان يلقي نظرة الى جنسنا البشري المعاصر ليرى استحالة ذلك . فالتصعيد التعليمي قد منحنا تقدما تقنيا هائلا ولكن اذا ما اصطدم ذلك التقدم التقني مع خصائصنا البيولوجية نجد انه يلاقي مقاومة عظيمة . فسلوكنا الجوهري المترسخ فينا منذ ايامنا ا لمبكرة كما هي حال القردة الصيادة يتغلغل ويتحكم فينا مهما كان ذلك ا لسلوك متباعدا عنا . فلو اعتبرنا ان نوازعنا الدنيوية كالسعي في طلب ا لطعام والمخاوف وعداءنا وسعينا وراء الجنس وعنايتنا الأبوية قد تطورت عبر وسائل التعليم ، فلا ريب عندئذ ان هذه النوازع ستكون تحت سيطرتنا الكاملة وسيكون باستطاعتنا ان نديرها ذات اليمين وذات الشمال كي تتناسب مع حجم متطلباتنا المتزايدة يوما فيوما بسبب التقدم التقني . لكننا عجزنا عن ذلك . وكثيرا ما نحني رؤوسنا امام طبيعتنا ا لحيوانية مقرين بوجود الحيوان ا لمعقد الذي يتحرك في داخلنا . فلو كنا صريحين مع انفسنا لأقررنا ان ا لقضية تتطلب ملايين من السنين ليتسنى للعملية الوراثية نفسها القائمة على الاختيار الطبيعي

التي استقرت فينا ان تبدل طبيعتنا . وفي الوقت نفسه ستزدهر حضاراتنا المنعقدة اذا صممناها بطريقة لا تصطدم مع متطلباتنا الحيوانية الاساسية او تميل الى كبتها . ولسوء الحظ ، ان عقلنا المفكر لا يتناغم مع عقلنا الحسي . هناك عدة امثلة تدل على المدى الذي ضلت فيه الأمور وتصادمت المجتمعات مع بعضها وافسدت كل شيء .

في الفصول القادمة سنحاول ان نرى كيف حدث ذلك ولكن دعونا اولا نطرح السؤال الذي يلزم بالاجابة عليه ـ السؤال الذي طرح في بداية هذا الفصل . عندما واجهنا هذا المخلوق الغريب ـ الانسان ـ الذي لاحظنا ان له خاصة واحدة انفردت مباشرة من بين جميع خصائص الحيوانات من فئته . تلك الخاصة هي انه ذو جلد عار من الشعر مما دفعني كعالم بالحيوان ان اسميه بالقرد العاري . ورأينا انه بامكاننا ان نطلق عليه عدة اسماء : القرد الشاقولي او القرد صانع الأدوات او القرد الذكي او القرد الذي يسكن البيت الخ . . . لكن هذه الأمور ليست الأولى التي لاحظناها .

فلو تدارسنا الانسان من ناحية علم الحيوان لوجدنا ان عريه من الشعر هو الملاحظة التي تلفت النظر قبل غيرها ولذلك فلسوف نستبقي اسمه «القرد العاري» حتى يتسنى لنا دراسته من وجهة نظر علم الحيوان وان هذه هي الطريقة الخاصة التي نستطيع ان نقيسه بها كفرع من فروع علم الحيوان . ولكن ما هي اهمية هذه الخاصة الغريبة ـ العري ؟؟ لماذا اصبح القرد الصياد قردا عاريا من الشعر ؟ .

لسوء الحظ لا تساعدنا المستحثات في معرفة الفروق في الجلد والشعر ، ولهذا ليس لدينا اية فكرة دقيقة عن الفترة التي حدثت فيها ـ التعرية ـ لكن لدينا فكرة تقريبية ان التعرية لم تحدث قبل مغادرة اجدادنا لسكناهم في الغابة . ويبدو ان التعرية عملية من عمليات التطور الشاذة التي نرجح كونها مظهرا من مظاهر التحول التي حدثت على السهول المكشوفة . ولكن كيف حدثت بالضبط وكيف ساعدت القرد الذي نشأ في السهول على البقاء ؟

ان هذه المشكلة قد حيرت المختصين لفترات طويلة من الزمن ودارت حولها القصص الخيالية . الا أنه من الأرجح ان هذه الظاهرة هي احدى نتائج عملية «وقف

النمو» . فلو فحصنا رضيعا من الشمبانزي عند الولادة لوجدنا ان له شعرا غزيرا في رأسه بخلاف جسمه الذي يكاد يخلو من الشعر . فلو تأخر هذا الوضع الى سن البلوغ من جراء عملية وقف النمو فان شعر ا لشمبانزي البالغ سيكون مشابها لشعرنا .

انه لمن الجدير بالاهتمام ان عملية وقف نمو شعرنا نحن ا لبشر لم تكتمل . فالجنين يبدأ رحلته في النمو نحو الحيوان الثديي ذي الشعر وما ان يبلغ الشهر السادس او الثامن من عمره الجنيني حتى يكسوه الشعر تماما في مساحة من جسمه . فهذا الغطاء الجنيني يدعى «الزغب الجنيني Lanugo » ولا يسقط الا في لحظة الوضع . اما الأطفال غير مكتملي النمو فيخرجون الى العالم وهم يرتدون زغبهم الجنيني مما يفزع والديهم الا ان هذا الشعر يسقط في معظم الأحيان الا في حالات نادرة جدا . ليس هناك اكثر من ثلاثين حالة ولدت فيها امهات اطفالا بقوا يحتفظون بشعرهم هذا وهم بالغون . ورغم ذلك فان جميع البالغين من البشر تكسوهم طبقة كبيرة من الشعر - اكثر مما هي الحال عند اقرباتنا ا لشمبانزي .

ان عملية فقداننا للشعر ليست اوسع من عملية اكتسابنا لشعر صغير تافه (هذا بالمناسبة لا ينطبق على جميع عروق البشر فالزنوج مثلا خضعوا لظاهرة فقدان الشعر اكثر من غيرهم) . ان هذا الأمر دفع بعض علماء التشريح الى الاعلان باننا لا نستطيع اعتبار انفسنا عراة من الشعر او حيوانا عاريا . وقد تجرأ احد مشاهير العلماء على القول بأننا اقل القرود شعرا . وقد وقع في خطأ فادح . ان جميع الفرضيات التي تعطي الأسباب حول سقوط الشعر غير مجدية . وكأننا نقول ان الأعمى يستطيع الرؤ ية طالما له عينان . اننا في واقع الأمر وبشكل عملي ، عراة واننا معرضون كلية للعالم من حولنا . ان هذا الوضع من الأمور يحتاج الى المزيد من الشرح بغض النظر عما لنا من شعر دقيق يمكن عده تحت عدسات المجهر .

ان عملية وقف النمو تعطي فقط الدلائل التي ادت الى حدوث التعرية . الا انها لا تعلمنا اي شيء حول فائدة التعرية كميزة ساعدت ا لقرد العاري على البقاء بشكل افضل في بيئة عدائية . قد يمكن القول ان لا فائدة منها وانها مجرد نتيجة

لتبدلات اخرى اكثر حيوية واهمية كتطور الدماغ . ولكن كما سبق ورأينا فان عملية وقف النمو هي عملية يتخلف فيها التطور . ان بعض الأمور تتباطأ اكثر من الأمور الأخرى . ان نسبة النمو تخرج عن ا المألوف . وليس من المرجح اذن ان سمة من سمات الطفولة كالتعرية من الشعر تستمر لمجرد انها حصيلة تغيرات اخرى كانت بطيئة . الحقيقة هي انه لم يكن لهذه الظاهرة اي ميزة خاصة بالنسبة للجنس البشري والا لكان للطبيعة شأنها معها .

ما هي اذن فائدة الجلد العاري بالنسبة للجنس البشري في البقاء ؟ ان احد الشروحات هو ان القرد الصياد حين تخلى عن ترحاله الجماعي واستقر في سكن ثابت اصبح جلده عرضة للطفيليات . ويعتقد ان استعمال امكنة النوم نفسها يوما بعد يوم قد جاء بأصناف متنوعة من حشرات القراض والبق والقمل والبراغيث بملجأ تتكاثر فيه الى درجة لم يعد الوضع يطاق بالنسبة للقرد الصياد الذي اخذ يصاب بأمراض شتى . وعندما خلع عنه رداءه الشعري استطاع ان يجابه مشكلته بشكل افضل .

قد يكون هناك الكثير من الصحة في هذا القول لكن يصعب اعتباره قولا ذا اهمية رئيسة . لقد اتخذ عدد من الثدييات الأخرى هذه الخطوة . ومع ذلك فلو ان التعرية عمت جميع الحيوانات لأصبح امر التخلص من الحشرات امرا اسهل - ان مهمة التخلص من الحشرات لا تزال اليوم تشغل حيزا كبيرا من وقت الرئيسيات الأكثر شعرا .

ويمكن ان نضيف فكرة اخرى موازية للفكرة السابقة وهي ان للقرد الصياد عادات في الطعام كريهة وان وجود الشعر الكثيف على جلده سرعان ما يصبح عائقا ووسخا مما يزيد في انتشار المرض . وتجدر الاشارة هنا الى ان النسور التي تغطس رأسها ورقبتها في الغائط قد فقدت ريشها المتوضع في هذه الأعضاء وربما كان هذا التطور قد عم جميع اجزاء جلد القرد الصياد . لكن القدرة على تطوير معدات قتل وسلخ جلد الفريسة تكاد لا تسبق المقدرة على استخدام اشياء اخرى لتنظيف شعر القرد العاري . حتى ان الشمبانزي الطليق يستخدم احيانا اوراق الشجر كورق «تواليت» عندما يعاني صعوبة في التغوط .

هناك من يشير الى ان ظهور النار واستخدامها قد ادى الى فقدان الشعر . ويقول اخر ان القرد الصياد عندما شعر بالبرد في الليل فقط كان يتحلق حول نار يصطنعها وعندما استطاع ان يتخلص من فرائه تاركا لنفسه وضعا افضل لمجابهة حرّ النهار .

هناك نظرية اخرى تقول انه قبل مطاردة القرد الصياد للغابة خضع لتطور طويل كأن اصبح قردا مائيا . وتتخيله هذه النظرية انه مضى الى الشواطىء الاستوائية بحثا عن ا لطعام . وهناك وجد طعامه من المحار والحيوانات التي تتواجد بكثرة على الشواطىء وهي أغنى وألذ من الطعام الذي كان يجده في السهول . وفي البداية كان يخوض في البرك التي تتشكل في الصخور وفي المياه الضحلة اما بعد ذلك فقد بدأ تدريجيا يغوص في المياه الى اعماق كبيرة طلبا للطعام . وتمضي النظرية قائلة ان لا بد للقرد الصياد من ان يفقد شعره بالطريقة نفسها التي فقدت فيها الحيوانات الأخرى التي عادت الى المياه . ولم يستثن من ذلك سوى رأسه الذي كان يتعرض الى اشعة الشمس ومن ثم بقي شعر رأسه ليحميه . واما بعد ذلك عندما اصبحت معاوله (التي كانت في البدء تساعده على فتح المحار) متطورة بشكل كاف تخلى عن الشاطىء واتخذ الأمكنة المكشوفة واصبح فيها صيادا .

تفسر هذه النظرية ظاهرة القشعريرة التي نصاب بها عندما ننزل الى الماء اليوم بينما يبقى اقرب اقربائنا الشمبانزي لا حول له في الماء وسرعان ما يغرق . انها تشرح استقامة قامتنا التي كانت نتيجة غوصنا في اعماق المياه . كما انها تفسر الظاهرة الغريبة من بقاء بقع ذات شعر في مواضع من جسمنا .ان الفحص الدقيق للشعر المتواجد في ظهورنا يتجه اتجاها مخالفا لاتجاه الشعر المتواجد على ظهور القردة الأخرى فهو منحرف الى الخلف والداخل باتجاه العمود الفقري عند البشر اي باتجاه مجرى الماء الذي يمر فوق

الظهر . فلو ان الشعر قد طرأ عليه اي تعديل قبل فقدانه فذلك يعني ان التعديل قد جرى بالطريقة الصحيحة لاضعاف المقاومة عند السباحة . وتضيف النظرية ايضا اننا نتفرد بين الرئيسيات في ان لنا طبقة شحمية كثيفة تحت الجلد . ويفسر ذلك بأن هذه الطبقة الشحمية تشابه طبقة الحوت الدهنية التي هي عبارة عن مادة عازلة . وليس هناك اي تفسير اخر لهذه الظاهرة التشريحية . حتى ان طبقة ايدينا الحساسة تدخل ضمن نطاق النظرية المائية السالفة الذكر . فاليد الخشنة تستطيع أن تمسك بالعصا او الصخر لكن يتطلب الأمر ايديا ذات حساسية معينة لتمسك بالطعام داخل الماء . لربما اكتسب قرد اليابسة هذه اليد الخارقة ثم اورثها الى القرد الصياد جاهزة . وفي آخر المطاف تعيب هذه النظرية المائية الباحثين عن المستحاثات التقليديين في كونهم لم يوفقوا في الكشف عن الحلقة الحيوية المفقودة في ماضينا الغابر وترشدهم الى تحمل مشقة البحث في المناطق التي كانت تشمل الشواطىء الافريقية منذ ملايين السنين لعلهم يجدون ما يفيدون منه في ابحاثهم .

ولسوء الحظ فانه لا بد من القيام بهذا الأمر ، ولكن على الرغم من جاذبية الدلائل التي تعرضهاالنظرية المائيةفإنها تفتقرالى البراهين القوية. انها تفسر الكثير من الظواهر الخاصة ولكنها تتطلب من جهة ثانية ورود نظرية في التطور الرئيسي الذي يفتقر بدوره الى اثبات مباشر (حتى لو قدر لهذه النظرية أن تثبت صحتها فيما بعد ، فانها لن تتعارض بشكل خطيرمع التطور العام لتطور القرد من قرد على اليابسة الى قرد صياد . فلسوف تعني ، ببساطة اكثر ، ان قرد اليابسة خضع لعملية صحية في تغطيسه في الماء .)

هناك بحث آخر يختلف اختلافا متباينا مع ما تقدم فالبحث هنا يفترض ان عملية فقدان الشعر لم تكن نتيجة تفاعله مع البيئة الفيزيولوجية بل انه كان ظاهرة اجتماعية اي بكلام آخر ، ان التعرية لم تتم بطريقة آلية بل انها كانت عبارة عن علامة فارقة . فالبقع العارية من الشعر التي ترى على اجساد الرئيسيات من القرود كانت بمثابة علامة فارقة تمكن السعادين او القرد من معرفة ابناء جنسه من بين بقية

الأجناس . ففقدان الشعر عند القرد الصياد يعتبر بمثابة شارة شخصية . وما لا يمكن اغفاله ان العري التام جعل القرد العاري مميزا تماما ولكن هناك الكثير من الطرق الأسهل في تحقيق الغاية نفسها دون اللجوء الى التضحية بطبقة واقية وقيّمة .

وهناك من يقول بأن فقدان الشعر يعزى الى التمييز بين الجنسيين . وان ذكور الثدييات اكثر شعرا من اناثها . ولذا فان هذا التباين في كمية الشعر جعل الأنثى اكثر جاذبية للذكر . وان عملية فقدان الشعر تشمل الذكر ايضا لكن ليس بالنسبة نفسها حيث يبقى الشعر في لحية الذكر مخالفا للأنثى .

ان الفكرة الأخيرة قد تفسر الاختلافات الجنسية بالنسبة لموضوع الشعر لكن التخلي عن هذه الطبقة العازلة من الشعر ثمن باهظ ايضا ندفعه مقابل الحصول على المظهر الجنسي فقط . وقد جرى تعديل على هذه الفكرة بحيث قالوا انه ليس المظهر الجنسي مهما بقدر ما هو اللمس الحي . ويمكن القول ان عرض كل من الجنسين لجسمها العاري هو الذي يزيد من حساسيتها الجنسية عند الجماع . وفي اجناس الحيوان التي نشأ لديها الرباط الزوجي فان الجلد العاري يزيد من شدة النشاط الجنسي ويضيّق الرباط الزوجي بحيث يحصل كل من الجنسين على مكافأته عند الجماع .

ولربما كان التفسير الشائع لموضوع التعرية الشعرية انها تطورت ليتسنى للجسم العاري ان يتلذذ بالبرودة المحببة . وانه عندما خرج القرد من غابته ذات الفيء عرض جسمه بطبيعة الحال الى حرارة تفوق حرارة الغابة لذا افترض انه تخلى عن شعره ليمنع عن جسمه فيض الحرّ . ظاهريا يبدو هذا الأمر منطقيا . فنحن طبعا نخلع سترتنا في يوم حار . الا ان هذا التفسير غير صحيح ان امعنا النظر اليه . فبادىء ذي بدء ، ليس هناك اي حيوان بحجمنا ويعيش في السهول المكشوفة قد تخلى عن شعره . فلو كان الأمر كذلك لتوقعنا رؤ ية اسد او ابن آوى عاريين من الشعر . ولكن على العكس من ذلك فهما يحملان طبقة من الشعر قصيرة لكنها كثيفة . ان تعرض الجسم العاري للهواء يزيد من نسبة خسارة الحرارة الا ان هذه الخسارة يعادلها ربح في آن

واحد وتزيد من الأضرار التي تسببها اشعة الشمس للجسم . كما يعلم المستحمون في المياه . تدل التجارب في الصحارى على ان ارتداء الملابس الخفيفة قد يقلل من اكتسابنا للحرارة من البيئة بحدود ٥٥ بالمائة من حرارة الشمس مما نحن عليهة في وضع عار . الا ان الملابس الثقيلة والمفضفضة التي يفضلها العرب في بيئتهم الحارة جدا هي افضل من الملابس الخفيفة في اتقاء الحر . فهي ـ اي الملابس ـ تحجب الحرارة المباشرة التي تنفذ الى الجسم ولكنها في الوقت نفسه تسمح للهواء بالدوران حول الجسم وتساعد على تبخير وتبريد العرق .

من الواضح ان الموضوع اكثر تعقيدا مما يبدو في البداية . فالكثير يعتمد على المستوى الدقيق لدرجات حرارة البيئة وعلى كمية اشعة الشمس المباشرة . فحتى لو افترضنا ان المناخ مناسب لتعرية الجسم من الشعر وان هذا المناخ حار بشكل معتدل فسيتحتم علينا ان نشرح الاختلافات الواضحة بين الشروط الحياتية للقرد العاري وهو محتفظ بشعره وبين الحيوانات الأخرى الاكلة للحوم والتي تسكن السهول المفتوحة .

هناك طريقة واحدة للقيام بهذه المهمة وقد تعطي افضل الاجابات لمشكلة عرينا بأكملها . الاختلاف الأساسي بين القرد الصياد ونده من الحيوانات الآكلة للحوم هي في انه غير مجهز باجهزة الانقضاض السريع على فريسته او ليقوم بتحمل مشقة المطاردة الطويلة . ولكن هذا ما كان عليه بالضبط ان يفعله . لقد نجح بسبب ذكائه الذي ادى الى مناورات ذكية اخرى والى استخدام اسلحة اكثر خطرا ولكن كان لا بد من ارهاقه جسديا بكل ذلك . ان عملية المطاردة عملية حيوية بالنسبه له وعليه ان يتأقلم معها ولكنه اثناءها كان يصاب بالحر الشديد . وكان لا بد لهذا الفيض من الحرارة التي يشعر بها ان يخفف وان اي تحسين يطرأ على مشكلته هذه يكون في صالحه حتى لو ادى ذلك الى تضحيته بأمور اخرى . وان بقاءه معتمدا على عملية الصيد هو بالتأكيد السر في تحوله من قرد ذي شعر الى قرد عار . انه في المساعدة التي تقدمها ظاهرة وقف النمو وبالاضافة الى الحسنات الأخرى الثانوية التي ذكرناها تصبح نظريتنا معقولة . ففي فقدانه لهذه الطبقة الكثيفة من الشعر وبظهور غدد التعرق في جميع انحاء سطح الجسم

يمكن ان تتحقق عملية التبريد لديه ليس في حياته ككل بل في لحظات المطاردة ـ اذ ان عملية التبريد تتألف من ظهور سائل متبخر فوق جلد اطرافه وجزءه المتعرض للهواء .

ان هذا الأمر لا ينطبق بالطبع على المناخ الحار جدا بسبب الضرر الذي يلحق بالجلد اما في المناخ المعتدل الحرارة فيصبح الأمر مقبولا . والجدير بالاشارة هنا ان هذه الخاصة قد رافقها تطور طبقة من الشحم تحت الجلد تشير الى حاجة الجسم لها في الاحيان الأخرى . فاذا كانت هذه الطبقة الشحمية توازى طبقة الشعر المفقودة فيجب ان نتذكر ان طبقة الشحم تساعد الجسم على الاحتفاظ بالحرارة في الأجواء الباردة دون اعاقة عملية تبخر العرق عند الحر الشديد . ان التعرية من الشعر زادت من عدد غدد التعرق ويبدو ان الطبقة الشحمية تحت الجلد قد منحت اجدادنا ما يحتاجونه في اقسى ظروف حياتهم الا وهي الصيد .

ها هنا يقف قردنا العاري ، المستقيم القامة الصياد والحامل للسلاح والذكي والمتطور من الرئيسيات الى آكل للحوم بالتبني على استعداد لغزو العالم . وما الانسان سوى رحلة جديدة جدا في التطور وغالبا ما تكون الأشياء الجديدة غير مكتملة . وبالنسبة له فان المشاكل الرئيسية تنشأ من حقيقة ان تقدمه الثقافي سيتسارع الى الأمام مخلفا وراءه كل تقدم احرزه سلفه . ولسوف يذكر باستمرار بالرغم من كل ما حققه انه لا يزال قردا عاريا في الصميم .

عند هذه المرحلة نستطيع ان نترك ماضيه خلفنا لنتعرف على رحلته الجديدة المعاصرة . كيف يتصرف القرد العاري المعاصر ؟ كيف يجابه مشاكل السعي في طلب الطعام والقتال والتناسل وتربية اطفاله ؟ كيف استطاع عقله الشبيه بالعقل الالكتروني ان ينظم دوافعه الطبيعية ؟ لربما سيتوجب عليه ان يمنح نفسه امتيازات اكثر مما يجب ان يصرح بها . سوف نرى .

الفصل الثاني

الجنس

في مجال الجنس ، يجد القرد العاري نفسه في وضع محيّر ، فهو كواحد من الرئيسيات نراه ينجذب الى اتجاه معين باعتباره آكلا للحوم بالتبني ، وينجذب الى اتجاه آخر باعتباره ينتمي الى مجتمع متحضر ومتطور .

هو بادىء ذي بدء ، مدين بكل خصائصه الجنسية الجوهرية الى اسلافه قردة الغابة قاطفة الفواكه . الا ان هذه الخصائص تعدلت بشكل اساسي انسجاما مع وضعه الجديد في السهول المكشوفة وحياته الجديدة في الصيد .

ورغم صعوبة ادراك ذلك ، فقد اخذت هذه الخصائص تكيّف نفسها مع التطور السريع للبنيان الحضاري المتزايد التعقيد .

وأولى هذه التبدلات التي تحول خلالها من قرد قاطف للفواكه يمارس الجنس الى قرد آخر صياد ويمارس الجنس ، انما تحققت عبر فترات طويلة نسبيا . اما ثانية هذه التبدلات فكان حظها من النجاح اقل وقد حدثت بسرعة كبيرة معتمدة على الذكاء واستخدام الكوابح المكتسبة عن طريق التعلم ، بدل اعتمادها على التعديلات البيولوجية المبنية على الانتقاء الطبيعي للأمور .

قد يقال إن تقدم الحضارة لم يؤثر في تكوين السلوك الجنسي المعاصر ، كما فعل هذا السلوك الجنسي المعاصر في تكوين شكل الحضارة . وربما بدا ان هذه العبارة

وبعد الانتهاء من العملية الجنسية يصبح كلا الجنسين مرهقين ثم يلي ذلك فترة الاسترخاء والراحة وغالبا ما يعقبها النوم .

والآن ننتقل من المثيرات الجنسية الى التجاوب الجنسي . كيف يتجاوب الجسم مع كل هذه المثيرات الجنسية ؟ ففي كلا الجنسين هناك زيادات ملحوظة في عدد نبضات القلب ونسبتها وضغط الدم والتنفس . ان هذه التبدلات تبدأ منذ فترة ما قبل الجماع وتتصاعد حتى الوصول الى القمة الجنسية . ان نسبة عدد نبضات القلب عند المعصم هي من (٧٠ - ٨٠) في الدقيقة في الوضع الطبيعي الا انها ترتفع الى (٩٠) او (١٠٠) اثناء الأطوار الجنسية الأولى وتصل الى نسبة (١٥٠) عند القذف . اما ضغط الدم فيبدأ بـ (١٢٠) ويرتفع الى (٢٠٠) او حتى (٢٥٠) عند لحظة الرعشة . ويصبح التنفس اكثر عمقا واكثر سرعة اثناء المداعبة ولكن كلما اقتربت لحظة الرعشة يتطور الى تنهدات مطولة يصحبها غالبا انين منتظم او شهقات . ففي لحظة القذف يتلوى الوجه ويفغر الفاه ويتوسع المنخران كما يحدث للرياضي او لامرىء في حالة اختناق .

هناك تبدل آخر يحدث اثناء الاثارة الجنسية وهو تغير توزع الدم من المناطق العميقة والى سطح الجسم . ان هذا الدفع القوي من الدم الزائد الى الجلد يؤدي الى عدد من النتائج الملحوظة . فهذا الأمر لا يؤدي الى جعل الجسم اكثر حرارة عند اللمس - «توهج جنسي» - فحسب بل الى بعض التغيرات المحددة في عدد من المناطق المختصة . وفي اقصى شدة الاثارة يظهر امتقاع دموي يبدأ عادة في مناطق الجلد فوق البطن واعلاها ثم ينتشر في الثديين ثم الصدر وبعد ذلك في الخواصر والمناطق الوسطى من الصدر واخيرا تحت الثديين وقد يحدث الامر ذاته في الوجه والرقبة . وفي بعض النساء الأكثر تجاوبا قد ينتشر امتقاع الدم على اسفل البطن ايضا والاكتاف ومفاصل اليدين وعندما يحدث القذف ينتشر الدم على الفخذين والأرداف والظهر . وفي بعض الحالات قد يشمل ذلك كل سطح الجسم تقريبا . وقد وصف هذا الامتقاع وكأنه الحصبة او الشرى ويظهر وكأنه اشارة جنسية مرئية . ويظهر هذا

الامتقاع ايضا عند الذكور في حالات قليلة حيث يبدأ الانتشار في منطقة اعلى البطن والصدر ثم الرقبة والوجه . . واخيرا يغطي الأكتاف والساعدين والأفخاذ . وعندما يحدث القذف يختفي الامتقاع بترتيب عكسي لظهوره .

وبالاضافة الى الامتقاع الجنسي يحدث احتقان آخر ملحوظ في اعضاء مختلفة من الجسم . هذا الدم المحتقن تسببه الشرايين التي تضخه في هذه الأعضاء بسرعة اكبر مما تستطيعه الأوردة . ويستغرق هذا الأمر فترة من الزمن لا بأس بها بسبب تضخم الأوعية الدموية في الأعضاء ذاتها ـ ذلك التضخم ا الذي يساعد في سد الأوردة التي تحاول ان تنقل الدم . ويحدث هذا الأمر في الشفاه والأنف وشحمة الأذن وحلمة الثدي والأعضاء الجنسية عند الجنسين وثديي الأنثى . فالشفاه تنتفخ وتحمر اكثر من حالتها الطبيعية . اما الأجزاء الأكثر رقة في الأنف فتنتفخ ويتوسع المنخران . كذلك ايضا تسمك شحمة الأذن وتتورم . اما الحلمتان فتكبران وتنتصبان عند كلا الجنسين لكن بنسبة اكبر عند الأنثى (هذا لا يعزى الى احتقان الدم فقط بل الى تقلص عضلات الحلمة) . ثم يزداد طول حلمة المرأة زيادة قدرها سنتمتر واحد ويكبر قطرها نصف سنتمتر . كما تزداد المنطقة حول حلمة المرأة قتامة بخلاف الرجل . ويكبر ايضا حجم ثدي المرأة بشكل ملفت للنظر اذ يزداد حجمه بنسبة خمس وعشرين بالمائة عن حجمه الطبيعي عند لحظة القذف ويزداد صلابة واستدارة وبروزا .

كما تخضع الأعضاء الجنسية عند الرجل والمرأة الى تبدلات كبيرة كلما استمرت عملية الاثارة الجنسية . ان جدران المهبل لدى الأنثى تحتقن بالدم حيث يؤ دي الامر الى الترطيب السريع لعنق المهبل . وفي بعض الحالات قد يحدث ذلك في غضون ثوان معدودات بعد بداية فترة ما قبل الجماع . كما يطول ثلثا الأجزاء الداخلية من جدران المهبل ويطول المهبل حتى يصل الى عشرة سنتمترات في مرحلة الاثارة الجنسية القصوى . وعند اقتراب لحظة القذف ينتفخ الثلث المتبقي الخارجي من جدران المهبل كما يحدث تشنج عضلي مدته من ثانيتين الى اربع ثوان في هذه المنطقة ثم يليها

تقلص منتظم في كل (٠,٨) من الثانية اثناء القذف . وعند كل قذف تحدث تقلصات تتراوح بين ثلاث الى خمس عشرة .

وعند الاثارة الجنسية بالعضو الجنسي الخارجي للمرأة ينتفخ بشكل ملحوظ . فالشفران الخارجيان يفتحان وينتفخان وقد تظهر عليهما زيادة في الحجم تصل الى ضعفي او ثلاثة اضعاف حجمهما الطبيعي . كما ينتفخ الشفران الداخليان الى ضعف او ثلاثة اضعاف قطرها ويبرزان حتى خلال الستارة الواقية للشفرين الخارجيين ويضيفان بذلك طولا اضافيا قدره سنتمتر واحد الى الطول الاجمالي للمهبل . وكلما استمرت الاثارة الجنسية يحدث تبدل ثان في الشفرين الداخليين فبعد ان اصبحا منتفخين يغيران لونهما فيتحولان الى اللون الأحمر البراق .

فالبظر (الذي يقابل القضيب عند الرجل) يتوسع ايضا ويحتقن كلما بدأت الاثارة الجنسية وكلما ازدادت الاثارة فان انتفاخ الشفرين يميل الى حجب هذا التبدل فيتراجع البظر تحت قمع الشفرين . وفي هذه المرحلة المتأخرة لا يمكن له ان يستثار بقضيب الرجل بشكل مباشر لكنه في وضعه المنتفخ وحالته المتحسسة يستطيع ان يبقى متأثرا بشكل غير مباشر بحركة القضيب الدافعة والمنتظمة .

وكذلك ايضا يخضع قضيب الذكر الى تعديلات كبيرة اثناء الاثارة الجنسية فهو يتحول من وضعية التصلب والتوسع والانتصاب من جراء الاحتقان الدموي . فطوله الوسطي الطبيعي (٩,٥) سنتمتر يزداد بنسبة (٧ الى ٩) سنتمترات كما يزداد قطره بحيث يغدو اكبر قضيب منتصب بين الرئيسيات .

وفي لحظة الوصول الى القمة الجنسية عند الرجل تحدث تقلصات قوية في قضيبه مما يؤدي الى قذف السائل المنوي في المهبل . ان اولى هذه التقلصات هي اقواها وتتكرر في كل (٠,٨) من الثانية اي بالنسبة نفسها لتقلصات المهبل لدى المرأة .

وأثناء الاثارة الجنسية فان الجلد الصفني للرجل يتقلص وتصبح حركة الخصيتين محدودة . فهاتان الخصيتان ترتفعان بواسطة الحبال المنوية (كما هو حالها فعلا اثناء الشعور بالبرد او الخوف او الغضب) وتلتصقان بالجسم . كما ان تمدد الدم في هذه المنطقة يحدث زيادة في حجم الخصيتين بنسبة (٥٠٪) بالمائة او حتى (١٠٠٪) بالمائة .

هذه اذن الطرق الرئيسية التي يتعدل فيها جسما الجنسين من جراء النشاط الجنسي . ومتى تم التوصل الى القمة الجنسية فان كل التبدلات التي تطرأ اثناء العملية الجنسية سرعان ما تنعكس وتجري بصورة تراجعية حتى يصل الجسم الى وضعه الطبيعي . لكن هناك ملاحظة تجدر الاشارة اليها وهي ما يحدث بعد الجماع مباشرة يتصبب العرق من جسد الجنسين مباشرة بعد الانتهاء من الجماع بغض النظر عن الجهد الذي يكون قد صرفه الجنسان . وعلى الرغم من انه لا علاقة لهذا التعرق بافراز الجسم من العرق الاجمالي الا ان له علاقة بشدة القذف . يتشكل غشاء من العرق على الظهر والفخذين واعلى الصدر كما يتصبب من الابطين . وفي الحالات الشديدة يتصبب العرق من الجذع والاكتاف . كما تتعرق راحتا الكفين واسفل القدمين والجبين والشفة العليا .

ان هذا الملخص للحوافز الجنسية البشرية والتجاوب الذي تلاقيه يصبح الان قاعدة لمناقشة اهمية السلوك الجنسي عند البشر قياسا على اسلافنا وعلى طريقتنا الحياتية بشكل عام . ولكن دعونا اولا نشير الى ان كل هذه الحوافز مع التجاوبات التي ذكرناها لا تحدث بتواتر متساو . ان بعضها يحدث حتما عندما يلتقي الرجل بالمرأة بقصد الجماع لكن بعضها الاخر يحدث فقط بحسب شدة الحالة . وبالرغم من ذلك فانها تحدث بتواتر شديد مما يمكن معه اعتبارها خصائص بشرية . فالامتقاع الناتج عن ممارسة الجنس يلاحظ بنسبة (٧٥٪) بالمائة عند الأنثى و (٢٥٪) بالمائة عند الذكر وان انتصاب الحلمة هو امر يشمل جميع النساء لكن هو بنسبة (٦٪) بالمائة عند الذكر . ان التعرق بعد الجماع هو بنسبة (٣٣٪) بالمائة لدى الجنسين . وبغض النظر عن هذه

الحالات المحددة فان معظم التجاوبات الجسدية الأخرى المذكورة تنطبق على جميع الحالات مع الأخذ بعين الاعتبار ان شدتها الفعلية ومدتها تتراوحان طبقا لظروف كل حالة .

هناك نقطة اخرى تحتاج الى توضيح : وهي الطريقة التي تتوزع فيها النشاطات الجنسية في حياة الفرد بأكملها . ففي العقد الأول من حياة الانسان ليس هناك اي نشاط جنسي بالمعنى الصحيح لدى كلا الجنسين . ولكن يلاحظ الكثير مما يسمى «اللعب الجنسي» لدى الصغار من الأولاد وما لم تبلغ الأنثى وما لم يستطع الولد ان يقذف وليس هناك ما يشعر بوجود نماذج للسلوك الجنسي . فالحيض يبدأ عند بعض النساء منذ سن العاشرة ولكنهن متى وصلن الى سن الرابعة عشرة حتى يكون ثمانون من النساء قد اكتمل عندهن الحيض . ويرافق الحيض تطور في نمو الشعر عند العضو الجنسي واتساع عظام الحوض وانتفاخ النهدين . اما نمو الجسم العام فيأخذ مجراه ببطء ولا يكتمل حتى سن الثانية والعشرين .

ان اول ظهور للقذف عند الصبيان لا يحدث حتى يبلغوا الحادية عشرة . لذا فهم ابطأ في النمو الجنسي من الاناث (يسجل رقم قياسي للقذف المبكر الناجح لدى صبي في الثانية عشرة من عمره ولكن ذلك امر غير عادي) . وعندما يصل الصبيان الى سن الثانية عشرة يكون (٢٥٪) بالمائة منهم قد مارسوا القذف الأول وفي سن الرابعة عشرة يكون ثمانون بالمائة منهم قد مارسوه . (وعند هذه النقطة يكونون قد وصلوا الى نقطة التساوي مع الاناث) . ان السن الوسطية للقذف الأول هي الثالثة عشرة وعشرة اشهر . وكما هي الحال عند الاناث فان هناك بعض التبدلات التي ترافق القذف عند الصبيان : فالشعر الجسدي يبدأ بالنمو وخاصة عند العضو الجنسي وعلى الوجه . ان تعاقب نمو الشعر هو كالاتي : عند العضو الجنسي ثم الابطين والشفة العلية والخدين والذقن ثم تدريجيا في الصدر والأجزاء الأخرى من الجسد ، وبدلا من اتساع عظام الحوض هناك اتساع في الكتفين . كما ان الصوت يخشن ، ان هذه الظاهرة تلاحظ عند الفتيات ايضا لكن الى حد بسيط جدا . وفي كلا الجنسين هناك تسارع في زيادة نمو الأعضاء الجنسية نفسها .

والجدير بالاهتمام اننا لو قسنا التجاوب الجنسي بمعيار تواتر القذف فان الذكر اسرع في الوصول الى القمة عن الأنثى بالرغم من ان الذكر متخلف في نضجه الجنسي عن الأنثى بمقدار العام او نحوه ويمكن ان يصل الصبيان الى القمة الجنسية وهم في سن المراهقة بينما لا تصل الفتيات الى تلك القمة حتى يصلن الى اواسط سن العشرين او حتى الثلاثين . وفي الحقيقة فان الأنثى من بني البشر عليها ان تصل الى سن التاسعة والعشرين حتى تستطيع ان توازي نسبة القذف عند صبي في سن الخامسة عشرة . ان نسبة (٢٣٪) بالمائة فقط من النساء في سن الخامسة عشرة هن اللواتي يستطعن ان يمارسن الرعشة الجنسية بأكملها . ويرتفع هذا الرقم الى (٥٣٪) في سن العشرين والى (٩٠٪) بالمائة في سن الخامسة والثلاثين .

يحقق الذكر البالغ حوالي (٣) رعشات جنسية وسطيا في الأسبوع وان ما يزيد عن سبعة بالمائة يمارسون القذف يوميا . ان نسبة الرجال الذين يصلون الى الرعشة الجنسية هي اعلى ما تكون في سن ما بين الخامسة عشرة والثلاثين ثم تتلاشى هذه النسبة بانتظام من سن الثلاثين وحتى الشيخوخة ، ان القدرة على تحقيق قذف مزدوج تتلاشى ايضا وان الزاوية التي ينتصب فيها القضيب تتلاشى ايضا . وان الانتصاب يمكن ان يستمر لمدة ساعة تقريبا في المتوسط بين المراهقين الا انه يقل الا ان هذه المدة تصبح سبع دقائق فقط في سن السبعين . ومع ذلك تبقى نسبة الرجال النشيطين جنسيا هي سبعين بالمائة في سن السبعين .

وتتشابه الصورة في تلاشي النشاط الجنسي عند الأنثى بازدياد العمر . اما توقف عملية الاباضة عند المرأة بشكل مفاجىء الى حد ما في سن الخمسين تقريبا فلا يعني ان درجة التجاوب الجنسي لديها قد خفت ايضا . هناك حالات فردية في تأثيرها على السلوك الجنسي .

ان معظم النشاط الجماعي الذي ناقشناه يحدث عندما يكون الجنسان في وضع *ارتباط زوجي . وهذا الارتباط قد يأخذ شكل الزواج الرسمي او ارتباطا غير رسمي* من نوع او آخر . ان التواتر العالي للجماع القائم على غير طريق الزواج يجب الا يعني

ارتباطا لا اخلاقيا واعتباطيا . ان ما يحدث في معظم الحالات وعندما يتآلف الجنسان يكونان في فترة المعاشرة حتى لو كانت فترة المعاشرة هذه غير طويلة . ان (٩٠٪) بالمائة تقريبا من عدد السكان يتآلفون شرعا وان (٥٠٪) بالمائة من النساء و (٨٤٪) بالمائة من الرجال يكونون قد مارسوا الجماع قبل الزواج . وفي سن الاربعين فان (٢٦٪) بالمائة من النساء المتزوجات و (٥٠٪) بالمائة من الرجال المتزوجين يكونون قد مارسوا الجنس خارج نطاق الزوجية .

ان الرباطات الزوجية الرسمية قد اخفقت كليا في عدد من الحالات (٩,٠٪) بالمائة في عام ١٩٥٦ في امريكا مثلا) . وعلى الرغم من ان آلية تشكيل الزوجين بين جنسنا البشري قوية جدا الا انها ابعد من ان تصبح كاملة .

والآن بعد ان اصبحت كل هذه الحقائق لدينا نستطيع ان نبدأ بطرح الأسئلة : كيف يساعدنا سلوكنا الجنسي في البقاء ؟ لماذا نسلك هذا السلوك الجنسي ولماذا لا نسلك غيره ؟ قد نساعد انفسنا في الاجابة على هذه الأسئلة لو طرحنا سؤ الا آخر : كيف يمكن مقارنة سلوكنا الجنسي مع سلوك احد الرئيسيات الأخرى المعاصرة ؟.

نستطيع مباشرة ان نرى ان هناك نشاطا جنسيا عند جنسنا البشري اكبر بكثير مما لدى اي من الرئيسيات حتى بين اقربها الينا ، وبالنسبة للرئيسيات فان فترة المعاشرة الطويلة غير واردة . فالقردة تكاد لا تقوم بتطوير علاقة زوجية طويلة ، ان فترة ما قبل الجماع مختصرة ولا تتألف عادة من اكثر من بضعة التعابير الوجهية والأصوات البسيطة . اما الجماع نفسه فهو مختصر (فقرد الرباح اي البابون ـ مثلا لا يأخذ اكثر من (٧) أو (٨) ثواني ولا اكثر من (١٥) ولوج لقضيبه اثناء جماعه) . ولا يبدو ان الأنثى تمارس اي نوع من الوصول الى القمة الجنسية فلو كان هناك ما يمكن تسميته بالرعشة الجنسية فهي ليست سوى تجاوب قليل الشأن بالمقارنة مع الأنثى البشرية .

ان فترة القبول الجنسي لدى انثى السعادين او القرود هي محدودة . فعادة تدوم مدة اسبوع تقريبا اثناء دورتها الشهرية ، حتى ان هذا الوضع يبقى متقدما بالنسبة

للثدييات الدنيا حيث يصبح الأمر محدودا بزمن الاباضة فقط ولكن يبقى الوضع مخالفا جدا عند البشرحيث تبقى فترة القبول الجنسي مستمدة لتشمل جميع الأوقات ومتى تحمل انثى السعدان او القرد او تكون في طور تربية صغيرها تتوقف عن النشاط الجنسي . ولكن انثى البشر تبقى متجاوبة جنسيا حتى وهي في هذه الفترات ولا يبقى لديها سوى وقت قصير جدا تمتنع فيه عن ممارسة الجنس وهو وقت المخاض او الولادة .

يتضح لنا ان القرد العاري هو اقوى الرئيسيات جنسيا . وللبحث عن السبب علينا ان نعود الى اصوله ماذا حدث ؟ أولاً كان عليه ان يصطاد اذا اراد البقاء . ثانيا ، عليه ان يحصل على عقل افضل ليعوض عن ضعف جسمه حيال الصيد . ثالثا ، كان عليه ان يحصل على فترة طويلة لطفولته ليزداد نمو عقله ولتثقيفه . رابعا ، على الأنثى ان ترعى الأطفال بينما يذهب الذكور الى الصيد . خامسا كان على الذكور ان يتعاونوا مع بعضهم اثناء الصيد . سادسا ، كان عليهم ان يتصبوا بقاماتهم ليتمكنوا من استخدام اسلحة الصيد بنجاح . اني لا اعني ان هذه التبدلات حدثت بالترتيب السابق نفسه بل با لعكس ، فقط تطورت جميعها بلا ريب في الوقت ذاته - كل تعديل ساعد الاخر على التطور . اني بكل بساطة اعدد التغيرات الستة الأساسية التي حدثت بينما كان القرد العاري يتطور ، فالى هذه التبدلات ، كما اعتقد ، ترجع كل التفاصيل الضرورية في تكوين وضعنا الجنسي المعاصر الكثير التعقيد .

فبادىء ذي بدء ، كان على الذكور ان يتأكدوا من وفاء اناثهم لهم اثناء ذهابهم للصيد . وكان على الاناث ان يطورن الميل نحو تشكيل الرباط الزوجي . ايضا ، فلو كان يتوقع من الذكور الأقل كفاءة ان يشاركوا في عملية الصيد لتوجب ان يحصلوا على حقوق جنسية اكبر . لذا كانت الاناث تتوزع على الذكور بشكل متساو وبشكل ديموقراطي وبأقل تظلم ممكن . وكل ذكر ايضا يحتاج الى ميل قوي نحو تشكيل زوج له . وبما ان الذكور اصبحوا مسلحين بأسلحة اشد فتكا كذلك ايضا ازداد الخصوم الجنسيون واصبحوا اكثر خطرا . لذا اصبح المنطق يملي بأن يكتفي كل ذكر بأنثى

واحدة . هذا بالاضافة الى عبء الابوة ومطالب الصغار الذين في طور النمو ، لذا كان لا بد للسلوك الأبوي ان يتطور مع الواجبات الأبوية التي يشترك فيها كل من الأب والأم . وهذا سبب آخر هام في نشوء الرباط الزوجي .

مع هذه المعطيات نستيطع ان نرى كيف نشأت عنها الأمور الأخرى . فلقد كان على القرد العاري ان يطور قدرته على الحب وعلى اكتفائه جنسيا بأنثى واحدة وعلى تطوير الرباط الزوجي . ومن اي جهة نظرنا الى الأمور لوجدناها ترجع الى الوضع نفسه . كيف تسنى للقرد العاري ان يتدبر امره ؟ ما هي العوامل التي ساعدته ؟ ولكونه احد الرئيسيات فيستوجب عليه ان يظهر ميلا نحو تشكيل تزاوج يدوم بضع ساعات او حتى بضعة ايام الا ان هذه الفترة كان لا بد لها الآن من ان تمتد اكثر . هناك امر واحد لا بد من ان يكون قد ساعده وهو طفولته الطويلة . فأثناء فترة النمو الطويلة هذه اتيحت له الفرصة في تطوير علاقة شخصية حميمة مع والديه . هذه العلاقة القوية والطويلة التي تفوق تلك التي يمارسها صغار القردة . ان فقدان هذا الرباط العائلي بسبب البلوغ والاستقلالية الذاتية يخلق ما يمكن تسميته «بالعلاقة المفرّغة» اي فجوة لا بد ان تملأ . لذا يجد نفسه مندفعا نحو تطوير علاقة جديدة متكافئة القوة والمتانة مع تلك التي فقدها والتي يود التعويض منها .

حتى لو كان هذا الأمر كافيا في تصعيد احتياجاته لتشكيل الرباط الزوجي الجديد فلا بد من وجود عامل مساعد للحفاظ على هذا الرباط . ولا بد لهذا الرباط من فترة طويلة كافية لعملية تربية الصغار والاعتناء بالأسرة . ومتى احب الانسان عليه ان يبقي على هذا الحب وبتطويره لفترة المعاشرة الطويلة يستطيع ان يضمن لنفسه هذا الحب لكن هناك حاجة ماسة الى شيء آخر بعد الحب . وللحصول على هذا الشيء هناك طريقة بسيطة ومباشرة الا وهي جعل النشاطات المشتركة للزوجين اكثر تعقيدا وأكثر مكافأة . وبكلام آخر ، جعل الجنس اكثر اثارة .

كيف تم له ذلك ؟ في كل مجال ممكن تلوح لنا الاجابة فلو عدنا الان الى سلوك القرد العاري المعاصر نستطيع ان نرى ذلك السلوك في تشكله . ان قبول الأنثى

الجنسي المتزايد لا يمكن شرحه بمعيار زيادة النسل فقط صحيح ان المرأة مهيأة للجماع وهي في طور الأمومة وتربية الأطفال الا انها في الواقع تزيد من نسبة الولادة . ومع هذه الفترة من اعتماد الصغار عليها يصبح الأمر كارثة لو انها لم تكن تزيد من نسبة الولادة إلا ان هذا الأمر لا يوضح لماذا تكون هي على استعداد لتقبل الذكر وتستثار جنسيا طيلة كل دورة من دوراتها الشهرية . بما انها تبيض مرة وفي فترة معينة اثناء الدورة الشهرية لذا فالاتصال الجنسي اثناء الأوقات الأخرى لا يمكن ان ينتج عنه انجاب الأطفال . ان الاتصال الجنسي المتعدد لدى جنسنا ا لبشري لا يحد نفسه بانجاب الاطفال فقط بل بتقوية الرباط الزوجي عن طريق المكافآت الجنسية المشتركة بين الطرفين . اذن فالعملية الجنسية لدى البشر ليست عملية هي حصيلة حضارة منحطّة او متطورة كحضارتنا المعاصرة بل ان جذورها تضرب فيزيولوجيا في اعماق تطورنا وفي ميولنا الانسانية المنطقية . حتى عندما تتوقف المرأة عن المرور في دورتها الشهرية اي عندما تصبح حاملا تبقى متجاوبة مع الذكر . ان هذا الأمر هام ايضا لأنه في النظام الذي يسوده «رجل واحد - امرأة واحدة» سيكون من الخطر كبت الرجل لفترة طويلة . فقد يعرض ذلك الرباط الزوجي للخطر .

وبالاضافة الى زيادة الوقت الذي تستغرقه النشاطات الجنسية فان هذه النشاطات نفسها اصبحت اكثر تعقيدا فحياة الصيد التي اعطتنا الجلد العاري والأيدي الحساسة قد اعطتنا ايضا مجالا اوسع في تلاقي الجسدين جنسيا . ان هذا التلاقي الجسدي قبل فترة الجماع يلعب دورا رئيسيا . فاللمس والمداعبة والضغط والفرك كلها متوفرة بكثرة في سلوك البشر اكثر بكثير مما هي كذلك لدى الرئيسيات الأخرى . كما ان الأعضاء كالشفة وشحمة الأذن والحلمة والثدي والعضو الجنسي مزودة جميعها بنهايات الأعصاب التي هي ذات حساسية قوية نحو الاثارة الجنسية . وعلى ما يبدو فان شحمة الأذن قد تطورت بشكل خاص لهذه الغاية . الا ان علماء التشريح غالبا ما يعتبرون شحمة الأذن عبارة عن «زوائد شحمية» لا فائدة منها .

وبكلام عام فقد يشرحون ان شحمة الأذن عبارة عن بقايا من زمن كانت لنا فيه اذان كبيرة . ولكن اذا نظرنا الى الرئيسيات الأخرى نجد انها لا تملك شحمات اذن

ملحمة . ويبدو انها لم تكن زوائد بل شيئا جديدا وعندما نكتشف انها تحت تأثير الاثارة الجنسية تصبح منتفخة بالدم ومرهفة الحساسية عندئذ نكاد نصل الى يقين انها نوع من التطور الذي يختص بانتاج منطقة اخرى تتجاوب مع الاثارة الجنسية . (من المذهل حقا ان شحمة الأذن المتواضعة والتي اهملت في السابق قد كانت سببا في وصول بعض الرجال والنساء الى الرعشة الجنسية كما تدل بعض الحالات) . وتجدر الاشارة ايضا الى بروز انف الانسان المليء باللحم الذي هو عبارة عن ظاهرة فريدة وغريبة من نوعيتها لا يستطيع ان يفسرها علماء التشريح ، وقد قال احدهم عنه :

«انه مجرد ميزة مختلفة لا اهمية لها» . ويصعب علينا ان نصدق بأن شيئا ايجابيا ومميزا كالأنف قد تطور دون ان يكون له وظيفة ما . وعندما يقرأ المرء عن ان جدران الأنف تحوي على اغشية اسفنجية تؤدي الى توسيع وتضخيم المنخرين بسبب التمدد الدموي اثناء الاثارة الجنسية يبدأ المرء بالاستغراب .

وبالاضافة الى مجموع التطورات الملموسة والمحسنة هناك مجموعة اخرى مرئية فريدة من نوعها الى حد ما . هناك تعابير وجهية معقدة تلعب دورا هاما على الرغم من ان تطورها الى ذلك كان بقصد الاتصال بالآخرين ايضا . وبما اننا احدى الرئيسيات فان لدينا العضلات الوجهية الأفضل والأكثر تعقيدا بين مجموعتنا بأكملها . فعلاً ، لدينا نظام من تعابير الوجه الدقيقة والمعقدة بين جميع الحيوانات المعاصرة . فبقيامنا بحركات صغيرة عن طريق اللحم حول الفم والأنف والعينين والحاجبين والجبهة ثم بإعادة تركيبنا لهذه الحركات بطرق متعددة نستطيع ان ننقل مجالا كاملا من تبدلات في المزاج المعقد . ان هذه التعابير الوجهية ذات اهمية كبيرة اثناء اللقاء الجنسي وخاصة في فترة المعاشرة المبكرة (سوف نناقش استكمال هذه التعبيرات في فصل آخر .) فتوسع حدقة العين يحدث ايضا اثناء الاثارة الجنسية على الرغم من ان هذا الأمر عبارة عن تغير بسيط وقد نكون متجاوبين مع هذا التغير اكثر مما ندركه . كما ان سطح العين يأخذ بالالتماع .

ان شفاه البشر هي ظاهرة فريدة تماما مثل شحمة الأذن والأنف البارز ، ليس لها شبيه بين الرئيسيات الأخرى بالطبع ، فان لجميع الرئيسيات شفاهـا ولكنهـا لا ينقلب داخلها على خارجها مثل شفاهنا . فالشامبا يستطيع ان يقلب شفاهه في حركة مبالغ فيها ويكشف بعمله هذا عن الغشاء المخاطي المختص داخل الفم . ولـكن شفاهه لاتستطيع البقـاء على هذه الحالـةالا لفتـرةوجيزة قبـل ان يعيدهـاالحيوان الى حالتها الطبيعية بينما نحن ، من جهة اخرى ، لدينا شفاه تستطيع الحركة والانطواء بشكل دائم . فنحن نبدو للشامبانزي مخلوقات ذات شفـاه ناتئـة بخـلاف شفاهـه الرقيقة . فلـو قدر لك ان يقبلك شامبانـزي ودود فان قبلتـه ستنطبـع على رقبتـك

وستعـرف مباشرة دون شك ان هذه القبلـة هي اشــارة حسية شفهية للتعبــير عن الصداقة . بينما قبلة الانسان تستخدم للتودد وللجنس . فهي طويلة في فترة ما قبل الجماع . والحديث عن هذا التطور يقودنا الى افتراض ان من الأنسب ان يكون سطح الغشاء المخاطي معرضا بشكل دائم وذلك لكي لا تبقى التقلصات العضلية حول الفم على ما هي عليه ضئيلة طيلة فترة التقبيل الطويلة الا ان هذا الأمر ليس هو القصـة كاملة . ان الشفاه المخاطية الظاهرة قد تطورت الى شكل محدد تماما وذي خصائص معينة . فهي لم تتوضع في جلد الوجه اعتباطيا بل تطورت الى خطوط ثابتة . وبهذا الشكل اصبحت اجهزة مرئية مؤثرة ذات اهمية . لقد سبق لنا ان رأينا ان الاثـارة الجنسية تسبب انتفاخا للشفاه وان تحديدها في هذه المنطقة ساعـد على تهـذيب هذه المؤشرات جاعلا التغيرات في الشفاه اكثر تميزا من قبل الاخرين . وبالطبع ، فان لون الشفاه وهي في حالتها الطبيعية اكثر احمرارا من بقية الوجه ودون ان تعنـي اي تغيرات فيزيولوجية وهي بذلك تلفت الانتباه الى وجود بنيان جنسي حسي .

لقد تحير علماء التشريح في وضع الشفاه المخاطي فقد قالوا ان تطورهـا ليس واضحا تماما بعد . ورأوا انه كان لها علاقة بكثرة عملية الامتصاص التي يتطلبهـا الطفل من ثدي امه . ولكن صغير الشامبانزي يقوم بامتصاص كثير وفعال وان شفتيه ذات العضلات القادرة على الامساك تبدو وكأنها مجهزة بشكل افضل لهذه المهمة .

وكذلك ايضا ان هذا الأمر لا يستطيع ان يشرح عملية تطور هامش حاد بين الشفاه والوجه المحيط بها ولا يستطيع ان يشرح الاختلاف الواضح في لون جلد الشفاه الفاتح والغامق لدى البشر . ومن جهة اخرى ، فلو اعتبرنا الشفاه مجرد مؤشرات مرئية فيسهل علينا فهم هذه الاختلافات . فلو ان الظروف المناخية تتطلب جلدا من لون اغمق عندئذ فان هذا الوضع سيعمل ضد مقدرة المؤشرات المرئية للشفاه ولخفضت من حدة تضاد الألوان . فلو كانت فعلا مؤشرات مرئية هامة لكان من المتوقع عندئذ ان يحدث تطور معوض وهذا بالضبط ما حدث فمثلا شفاه الزنوج اصبحت اكبر واكثر بروزا للعيان . وما فقدته من تضاد الألوان عوضت عن طريق الحجم والشكل . كذلك فان حدود شفاه الزنوج اكثر تخطيطا وبشكل ظاهر تماما . اما حافة الشفاه لدى العرق ذي اللون الأفتح فهي اكثر نتوءا وأفتح في اللون من بقية جلد البدن . ومن ناحية تشريحية فان خصائص الزنوج هذه لا تبدو بدائية بل تمثل تقدما ايجابيا في تخصص منطقة الشفاه .

هناك عدد آخر من المؤشرات الجنسية المرئية الظاهرة ففي مرحلة سن البلوغ كما ذكرنا سابقا ، هناك نمو الشعر في امكنة ظاهرة خاصة في منطقة العضو الجنسي والابطين وعند الذكور في الوجه . وعند النساء هناك نمو سريع في شكل الثديين . وان شكل الجسم ايضا يتغير ويصبح اكبر واوسع في الكتفين عند الذكور وعند الحوض لدى الاناث . ان هذه الاختلافات لا تميز الفرد البالغ من الفرد غير البالغ جنسيا فحسب بل تميز الذكر البالغ من الأنثى البالغة . فهي لا تكون مجرد مؤشرات الى ان النظام الجنسي قد اصبح فعالا الان فحسب بل انها تشير في كل حالة الى التمييز بين الرجولة والأنوثة .

ان الثديين المتوسعين لدى الأنثى كان يظن عادة انهما لأغراض الأمومة بدلا من نتيجة للتطور الجنسي . ولكن ليس هناك دلالات واضحة تؤكد ذلك . هناك الرئيسيات الأخرى التي تدر حليبا وافرا لصغارها ومع ذلك تفشل في تطوير ثدييها الى شكل متنفخ ونصف كروي . ان الأنثى من بين البشر تنفرد بين الرئيسيات في هذا

المجال . ان تطور الثديين لديها بشكل بارز وذي شكل خاص يبدو وكأنه مثال آخر للمؤشرات الجنسية . ان هذا الأمر يمكن احتمال وجوده وتشجيعه من قبل تطور الجلد العاري . فان انتفاخ ثديين على شكل بقع في موضع كثيف الشعر عند الأنثى من الرئيسيات الأخرى سيكون ذا مؤشر اقل قيمة . ولكن متى اختفى الشعر فانهما - اي الثديين . سيظهران للعيان بوضوح . وبالاضافة الى شكلهما الفاضح يخدمان ايضا في جعل الذكر يركز انتباهه على الحلمتين كما انهما يصبحان فاضحين اكثر عندما تنتصب الحلمتان عند الاثارة . اما المنطقة الغامقة اللون حول الحلمة والتي يزداد لونها قتامة اثناء الاثارة الجنسية فتساعد ايضا في المجال نفسه .

ان عري الجلد يجعل من بعض التغيرات في اللون امرا ممكنا . ان هذه التغيرات في مناطق محدودة في بعض الحيوانات الأخرى حيث هناك بعض البقع الصغيرة على جلدها الا ان هذه التغيرات اكثر وضوحا وشمولية عند البشر . ان امتقاع الوجه يظهر بكثرة اثناء فترات المعاشرة المبكرة وفي الفترات المتأخرة اثناء الاثارة الجنسية الشديدة تظهر خصائص في تكون الامتقاع الجنسي ايضا (وهذا أيضاً شكل آخر من المؤشرات الجنسية التي لا بد من التضحية بها حسب متطلبات المناخ بالنسبة للعرق البشري ذي اللون الغامق . واننا نعلم انهم يخضعون لهذه التغيرات وعلى الرغم من انها تحولات لونية غير مرئية الا ان الفحص الدقيق يبين تبدلات هامة في نسيج الجلد) .

وقبل الانتهاء من البحث في هذه المؤشرات الجنسية علينا ان نتدارس جانبا غير عادي لتطورها . وللقيام بذلك علينا ان نلقي نظرة على الأمور الغريبة التي حدثت لاجسام ابناء عمنا السعادين . لقد دلت الأبحاث الألمانية المؤخرة على ان بعض انواع السعادين قد بدأت بمحاكاة نفسها . ان افضل الأمثلة على هذه السعادين هي سعدان الماندريل(Mandrill) ويابون الجيلادا(gelada Baboon) ان لذكر الماندريل قضيب احمر مع بقع زرقاء على جلد خصيته . على ان توزيع هذا اللون يتكرر على وجهه اما انفه فلونه احمر براق بينما خدّاه متنفخان وشديدا الزرقة . وكأن وجهه بذلك يحاكي منطقة

عضوه الجنسي باعطائه المؤشرات المرئية نفسها . وعندما يقترب ذكر الماندريل نحو حيوان آخر فان عضوه الجنسي يختبيء بسبب وضعية جسمه ولكن رغم ذلك يستطيع ان يبث ما في نفسه باستخدامه وجهه ، اما انثاه فتفعل الشيء نفسه في محاكاته . فحول عضوها الجنسي هناك بقع حمراء برّاقة تحدها حلمات بيضاء . ان شفري المهبل ومنتصف هذه المنطقة فهما أكثر احمرارا. وان هذه المؤشرات الرئيسة تتكرر في الصدر حيث هناك ايضا بقع من الجلد العاري تحيط بها الحلمات البيضاء من النوع نفسه . وفي منتصف هذه البقع الصدرية تقع الحلمتان الحمراوان في موقع متقارب من بعضهما مما يذكرنا بشفري المهبل ، (انهما قريبان جدا من بعضهما لدرجة ان صغيرها يرضع من كليهما في آن واحد) . ان البقع الصدرية التي تشابه تلك البقع على منطقة ا لعضو الجنسي تتدرج في شدة اللون اثناء المراحل المختلفة من دورتها الشهرية .

ان النتجة لا مهرب منها وهي ان الماندريل والجيلادا قد ابرزا مؤشراتهما الجنسية في موقع المقدمة لسبب ما . اننا لا نعرف الكثير عن حياة الماندريل على الطبيعة لكي نتكهن عن اسباب هذه الظاهرة الغريبة الا اننا نعلم ان الجيلادا تقضي وقتا طويلا في وضعية جلوس مستقيمة تفوق بذلك ما تقضيه الأنواع الأخرى من القرود . فاذا كانت هذه الوضعية هي وضعيتها الطبيعية فهذا يقودنا الى الاعتقاد بأنها تستطيع ان تبث مؤشراتها الصدرية الى الأعضاء الأخرى من ابناء جنسها اكثر مما لو كانت هذه العلامات الفارقة تتواجد في مؤخرتها . هناك العديد من انواع الرئيسيات التي لها اعضاء جنسية ملوّنة الا ان هذه المؤشرات الأمامية نادرة .

اما جنسنا البشري فلقد تأقلم مع التغيير الجذري في وضعية قامته . فنحن كالجيلادا نمضي وقتا طويلاً في وضعية جلوس مستقيمة . كما اننا نقف منتصبين ونواجه بعضنا البعض اثناء اللقاء . هل يعني هذا اننا نحن ايضا نخضع للطريقة نفسها في محاكاة انفسنا ؟ هل لقامتنا المستقيمة اي تأثير على مؤشراتنا الجنسية ؟ فلو تدارسنا الموضوع على هذا النحو فستكون الاجابة نعم . ان وضعية الجماع النموذجية

لدى بقية الرئيسيات هي اقتراب الذكر من خلف الأنثى . فهي ترفع خلفها وتوجهه بشكل مباشر نحو الذكر . فعضوها الجنسي يبرز بشكل مرئي من الخلف فهو يراه ويتحرك نحوه ثم يقبلها من الخلف . فليس هناك اي اتصال جنسي وجها لوجه اذ ان منطقة العضو الجنسي لدى الذكر تنضغط على منطقة العضو الجنسي لدى الأنثى . اما نحن ا لبشر فالوضع مختلف جدا . فليست هناك فترة ما قبل الجماع المطولة والتي تكون فيها الوضعية من الأمام فحسب بل الجماع نفسه يتم وجها لوجه .

لقد قامت بعض النقاشات حول هذه النقطة الأخيرة . لقد كانت الفكرة السائدة ولفترة طويلة ان وضعية الجماع لدى البشر وجها لوجه هي الوضعية الطبيعية وان كل الوضعيات الأخرى تعتبر عبارة عن شكل آخر متطور للوضعية النموذجية ذاتها . وقام علماء آخرون معاصرون يتحدون هذه الفكرة ويقولون بأن ليس هناك وضعية طبيعية نموذجية لدى البشر . كما يقولون ان اي علاقة جسدية يجب ان تخضع للحاجة الجنسية وباعتبارنا جنسا واسع الخيال فاي تجربة لوضعية نميل اليها يجب ان تدعى وضعية طبيعية وكلما تنوعت الوضعيات كان ذلك لصالحنا اذ ان زيادة التعقيد في السلوك الجنسي تزيد من حداثة الجنس وتمنع السأم الجنسي الذي يمكن ان ينشأ بين الزوجين . ان معالجتهم للموضوع منطقية تماما ضمن حدود تقديمهم لهذا الموضوع ولكن متى يحاولون ترسيخ فكرتهم نجد انهم قد اشتطوا في حكمهم . ان اعتراضهم الحقيقي كان على الفكرة القائلة بأن اي تنويع في وضعية الجماع «حرام» . ولمجابهة هذه الفكرة فقد شددوا على قيمة هذ ا التنويع في الجماع وكان لهم الحق تماما في ذلك بسبب المعطيات . ان اي تحسين في مجال المكافأة الجنسية سيؤدي بالتأكيد الى تقوية الرباط الزوجي . ومن ناحية بيولوجية فان الجماع المتنوع امر منطقي إلا ان الصراع بين الرأيين جعل بعضهم يفضل ان وضعية الجماع الطبيعية هي وضعية واحدة الا وهي الجماع الأمامي اي وجها لوجه . والحقيقة هي ان كل المؤشرات الجنسية بالاضافة الى المنطقة الجنسية من الجسم هي في مقدمة البدن ـ فمثلا التعابير الوجهية ، الشفتان ، اللحية ، الحلمتان والثديان وشعر العضو الجنسي والأعضاء الجنسية نفسها تتوضع جميعها في مقدمة البدن . قد يقول بعضهم ان جميع المؤشرات الجنسية يمكن ان تعمل

بشكل فعال في المراحل الأولى حيث تكون جميع تلك المؤشرات امامية ولكن مع ذلك يمكن ان يمارس الجماع في المؤخرة - اي ان يتم الجماع عن اقتراب الذكر من الأنثى من الخلف او من اي جهة يشاء . وقد يتم الجماع على هذا النحو بالكامل الا ان للوضعية الجديدة هذه بعض السيئات اولا ان الجماع المتقابل يعني ان المؤشرات الجنسية المبادرة وان المكافآت الجنسيةمتصلة اتصالاامتيناً بالمؤشرات الذاتيةالتي يحملهاالشريك إن الجماع المتقابل هو عملية جنسية ذات «مضمون شخصي» اضف الى ذلك ان مجموعة الأحاسيس التي تنتقل عبر اللمس وفي فترة ما قبل الجماع هي امامية بمعنى ان التركيز الحسي هو على المناطق المثيرة للجنس التي تتوضع في المقدمة ويكون الجماع الأمامي في هذه الحالة ايسر . بينما نجد ان كل تلك الأحاسيس تنعدم عندما نتبنى وضعية اخرى للجماع كذلك ايضا فان المبادرة الجنسية الأمامية تعطي امكانية قصوى لاثارة بظر المرأة اثناءولوج قضيب الذكر. وقد يقول بعضهم ان البظر يمكن له ان يتهيج عن طريق حركةالولوج الى الأمام والخلف دون حاجةالى تبني وضعيةما لمقابلةالأنثى لكن الجماع الأمامي يسمح بالاضافة الى ذلك لشعر الذكر ان يثير البظر وذلك يصعد الاثارة بشكل كبير . واخيرا ، لا يمكن تجاهل تشريح عنق مهبل المرأة والزاوية التي يبرز عندها المهبل الى الأمام فهذا المهبل قد انحرف الى الامام اكثر مما يتوقع له وذلك بكل بساطة يعود الى التطور الذي ادى بالانسان ليصبح مخلوقا ذا قامة منتصبة . ولو كان ابراز العضو الجنسي المؤنث ضروريا لدى المرأة ليعتليها الذكر من الخلف لكانت الطبيعة قد زودتها بلا ريب بهذه الخاصة ولأصبح مهبلها باتجاه الخلف .

لذا يبدو الأمر منطقيا في اعتبارنا ان وضعية الجماع الأمامية هي النموذجية لأبناء جنسنا . بالطبع هناك عدة وضعيات الا ان هذه الوضعيات المتعددة لا تنفي الوضعية الأمامية ، فمثلا هناك الوضعيات التالية : الذكر فوق ، الأنثى فوق ، الوضعية الجانبية ، ووضعية الوقوف الى آخر ما هنالك . لكن الوضعية الأكثر فعالية والشائعة اكثر هي تلك التي يكون فيها الشريكان في وضعية افقية وحيث يكون الذكر فوق الأنثى . ولقد دلت الاحصاءات الامريكية ان سبعين بالمائة من الشعب يستخدمون هذه الوضعية . حتى اولئك الذين يستخدمون وضعيات اخرى يلجؤ ون الى الوضعية النموذجية في معظم الأحيان . وان نسبة اقل من عشرة بالمائة يمارسون الجماع

من الخلف . وفي عمليه مسح عام لما يزيد عن مسي مجتمع متباين الماقه والحصاره تبين ان الجماع من الخلف شيء لا يمارس على نطاق واسع .

فلو استطعنا قبول هذه الحقيقة لتمكنا ان نعود عن انحرافنا البسيط عن الموضوع الى المسألة الرئيسية وهي «المكافأة الجنسية» . فلو كان على الأنثى ان تصعد بنجاح اهتمام الرجل نحوها في الجماع الأمامي لكان حريا بالتطور ان يفعل شيئا يجعل المنطقة الأمامية من الجسم اكثر اثارة . ففي نقطة ما في ماضينا ، لا بد من كون الجماع خلفيا . لنفرض انا وصلنا المرحلة التي تستطيع المرأة أن تؤ ثر على الرجل جنسيا ليبادرها من الخلف وهي تحمل مؤ شراتها الجنسية من ارداف مليئة باللحم مستديرة (بالمناسبة هذا الأمر لا يتوفر للرئيسيات الأخرى) وشفرين في المهبل احمرين براقين . ولنفرض ايضا ان الذكر تطور لديه تجاوب جنسي قوي تجاه مؤ شرات معينة ولنفرض ايضا انه في نقطة ما في هذا التطور ازداد ميل جنسنا نحو استقامة قامته وان يصبح اتصاله بالاخرين اماميا ، فان هذه المعطيات تقودنا لكي نرى ان هناك نوعا من انواع المكافأة الذاتية الأمامية كالتي لدى الجيلادا قد اخذت طريقها الى النمو . فهل نستطيع ، لو نظرنا الى المناطق الأمامية لأنثى البشر ان نرى اي تشكيل جسدي يحاكي الردفين المستديرين او شفرا المهبل الأحمرين ؟ فالجواب يكون واضحا تماما ؟ انها ثديا المرأة نفسيهما ، ولا بد للثديين البارزين لدى المرأة ان يحاكيا الردفين المستديرين المليئين باللحم وان الشفتين الحمراوين والمحددتين حول الفم تحاكيان الشفرتين في المهبل . (قد تذكر انه اثناء الاثارة الجنسية الشديدة فان كلاً من الشفتين وشفري المهبل ينتفخان ويحمران لدرجة انهما لا يتشابهان فحسب بل انهما يتبدلان بالطريقة ذاتها اثناء الاثارة الجنسية) . وبما ان الذكر من بين البشر محكوم ان يتجاوب جنسيا مع هذه المؤ شرات التي تتوضع في منطقة العضو الجنسي فان حساسيته لهذه المؤ شرات تتصاعد لو ان هذه المؤ شرات تكررت على النحو نفسه في اعلى مقدمة جسد المرأة . ويبدو ان هذا الأمر هو ما حدث فعلا اذ ان ا لمرأة حملت نسخا عن مؤ شرات شفري المهبل واستدارة الردفين في صدرها وفمها . (يحضرنا في هذه المناسبة ان نلفت النظر الى ظاهرة استخدام احمر الشفاه وحمالات الثديين الا ان هذا الموضوع سنعالجه فيما بعد حين نعالج موضوع الأساليب الجنسية الخاصة الحاضرة) .

وبالاضافة الى جميع المؤشرات المرئية الهامة هناك مثيرات شمية تلعب دورا جنسيا ، ان حاسة الشم قد خفت كثيرا اثناء التطور الا انها فعالة بشكل معقول اثناء النشاطات الجنسية اكثر مما نستطيع ان ندركه عادة . اننا نعلم ان هناك اختلافات جنسية في روائح الاجسام ولقد مر ان جزءا من عملية تشكل الزوجين اي الوقوع في الحب يتضمن نوعا من التركيز على الرائحة الخاصة لجسم الفرد الشريك . ويتصل بهذا الأمر الاكتشاف الذي مفاده ان هناك تبدلا ملحوظا يطرأ على تفضيل روائح معينة اثناء البلوغ . اما ما قبل سن البلوغ فيقع الاختيار على روائح الفواكه ولكن مع وصول فترة البلوغ الجنسي يتلاشى هذا التفضيل ويحدث التمييز لتفضيل روائح الزهور والروائح الزيتية وروائح المسك . ان هذا الأمر ينطبق على كلا الجنسين لكن التجاوب مع روائح المسك يتزايد لدى الذكور ويزعم بعضهم اننا باعتبارنا بالغين نستطيع ان نميز وجود المسك حتى ولو كان موجودا مميعاً بنسبة واحد الى ثمانية ملايين في الهواء . ومن الملاحظ ان هذه المادة التي تفرزها غدد خاصة تلعب دورا مهيمنا في المؤشرات الشمية لعدد كبير من الثدييات .

وعلى الرغم من اننا لا نملك مثل هذه الغدد التي تفرز المواد ذات الرائحة الا ان لدينا عددا كبيرا من الغدد الصغيرة ـ الغدد العرقية (Apocrine glands) . ان هذه الغدد شبيهة بغدد التعرق العادية لكن افرازاتها تحوي نسبة عالية من الأجسام الصلبة . انها تتوضع في عدد من اعضاء الجسم الا انها تتمركز بشكل خاص في منطقة الابطين والعضو الجنسي فالشعر في هذه المناطق يعمل بلا شك على تخزين الروائح .
ويزعم بعضهم ان افراز الروائح في هذه المناطق يزداد اثناء الاثارة الجنسية ولكن ليس هناك تحليل كامل لهذه الظاهرة حتى الآن . الا اننا نعلم ان المرأة تملك ما يزيد عن (٧٥٪) بالمائة من الغدد العرقية اكثر من الرجل ويلاحظ عند الثدييات الدنيا ان الذكر يحاول ان يشم الأنثى اثناء المجابهة الجنسية اكثر مما تفعله الأنثى .

ان توضع غدد الرائحة لدينا يبدو وكأنه تبنّ آخر للاتصال الجنسي الامامي ليس هناك أي شيء غير عادي حول مركز العضو الجنسي وان هذا الأمر نشترك به مع

الثدييات الأخرى لكن التركيز في الابطين ميزة غير متوقعة . ويبدو الأمر وكأن توضع الرائحة عند الابطين عبارة عن اضافة جديدة للمثيرات الجنسية الامامية اثناء الاتصال الجنسي الأمامي . في هذه الحالة الخاصة يبدو ان الأنف يتقرب من مراكز توضع الرائحة لدى جسم الشريك الآخر وهذا ما يحدث اثناء فترة ما قبل الجماع وأثناء الجماع ايضا .

كنا حتى الآن نتدارس الطرق التي حسنت قابليتنا الجنسية ، وكيف طالت الى درجة أصبح معها اللقاء الجنسي بين الشريكين متكافئا ، مما جعل الرابطة الزوجية أقوى وأبقى ، والقابلية الجنسية هذه هي التي اوصلت الى ضرورة تحسين شروط اللقاء الجنسي . وعلى سبيل المثال فان الذكر البالغ في النظام القديم للرئيسيات نشيط دائما سوى في الفترة التي تعقب القذف . وهذا القذف ذو أهمية كبرى لأنه يخلص المرء من التوتر الجنسي كما يهدىء من دوافعه الجنسية لفترة تكفي لتجدد السائل المنوي . أما الاناث فان نشاطهن الجنسي محدود بفترة تتركز حول زمن الاباضة .

وهن خلال هذه الفترة على استعداد لتقبل الذكر كل لحظة . وكلما مارسن الجماع ازداد ضمان تحقق الاخصاب الناجح . وبالنسبة لهن فليس هناك اشباع جنسي أو لحظة من لحظات القمة الجنسية يمكن أن تخمد أو تخفف دوافعهن الجنسية . وهن لا يضيعن وقتا بل يرغبن في الاستمرار في الجماع . وبعد قذف الذكر ونزوله عن الأنثى ، فان انثى السعدان تقوم بحركة اثارة صغيرة ، ثم تحرك غير عادي ، وبعدها كأن شيئا لم يكن .

أما بالنسبة لنا فالوضع مختلف كلية ، ومن حيث المبدأ ، وبما أن هناك ذكرا واحدا يقوم بالعملية الجنسية فليس هناك من مصلحة للأنثى في التجاوب الجنسي بعد أن يكون الذكر قد قضى وطره جنسيا . لذا فان الرعشة الأنثوية ضرورية لأنها من ناحية ثمرة للتعاون الجنسي بين الشريكين وتقوية للروابط الزوجية ووحدة الأسرة .

ومن ناحية ثانية فان الرعشة الانثوية تزيد من فرص الاخصاب وتعليل ذلك يقودنا اولا الى دراسة ظاهرة الاخصاب عند قرابتنا من الرئيسيات . فأنثى السعدان عندما

يلقحها الذكر تستطيع التجول من غير خوف أن تفقد السائل المنوي الذي هو في عنق المهبل ، لأنها تمشي على أربع وزاوية عنق المهبل لديها افقية الى حد ما . أما أنثى البشر فان عنق المهبل لديها شاقولي تقريبا أثناء الحركة ، وهي لذلك تسمح بضياع السائل المنوي لو أنها قامت تمشي بعد العملية الجنسية مباشرة ، ومن هنا فان الرعشة الأنثوية بما تفرضه من تجاوب عنيف لدى المرأة وارهاق واشباع للرغبة ، تغدو باعثا على الاسترخاء والاستلقاء بعد العملية مما يزيد في فرص الاخصاب . وهكذا تغدو الرعشة لدى المرأة مزدوجة الفائدة . وهي من الناحية الفيزيولوجية ، تشبه القذف عند الرجل ، وهذا التشابه يقودنا الى اعتبار الرعشة «تجاوبا مذكرا زائفا» لدى المرأة . بمعنى أن أنثى البشر قد تطورت لديها حساسية خاصة لدى البظر الذي هو عنصر اثارة . واذا تذكرنا بأن هذا البظر هو العضو المقابل لقضيب الذكر لأدركنا معنى أن الرعشة الأنثوية (تجاوب مستعار من الذكر) .

ان هذا يفسر لنا لماذا يملك الرجل قضيبا أكبر من قضيب بقية الرئيسيات ، قضيبا طويلا ثخينا يفوق القضب الأخرى لدى الرئيسيات (قضيب الشمبانزي مثلا ليس سوى مجرد مسمار اذا ما قورن بقضيب الرجل) . وهذا التضخم في قضيب الرجل يجعل الأعضاء الخارجية في الجهاز الجنسي لدى المرأة تخضع لعملية جذب وسحب كبيرة اثناء ولوج القضيب . فمع كل ايلاج تندفع منطقة البظر الى الأسفل ، ومع كل سحب للقضيب تعود منطقة البظر الى الأعلى . الى جانب ذلك فان الضغط المنتظم من شعر الذكر على منطقة بظر الأنثى أثناء العملية الجنسية الأمامية انما هو عملية تدليك متكررة للبظر .

يمكننا تلخيص الموضوع بأن نقول : ان السلوك الجنسي سواء أكان عن رغبة أو كان استهلاكيا يفرض أن يكون كل شيء ضروريا لزيادة المتعة الجنسية من جهة ، ولضمان سلوكية التطور الهامة التي يتولد عنها تشكيل الزوجين ، هذه السلوكية التي تنعدم لدى الثدييات الأخرى .

ولو أن السلوكيات القديمة لم تتطور ولم تتعدل فما الذي يمكن أن يحدث ؟ ان ما سيحدث هو أن الذكر سرعان ما يطرد الذكور الأخرى ويضاجع الاناث الشابات وتصبح لدى الأسرة سلوكيات اضافية بحيث تغدو الاناث مربيات الى جانب الأم ، ويطرد الذكور الشبان من البيت الى وضع أقل شأنا في المجتمع وتتحول الطبيعة التعاونية عند الذكور الصيادين الى حال رديئة ، كما يحدث في بقية أنواع الرئيسيات .

ومن الواضح أن بعض التعديلات الأضافية يجب أن تجرى على نظام التربية لكي يكتب البقاء لنظام تشكيل الزوجين ، وذلك بأن يكون لكل من الابناء والبنات شريك في حياته . وهذا ليس مطلبا صعبا بالنسبة لنا ، ويمكن التحري عن أمثلة له من بعض الثدييات الدنيا ، لكن طبيعة البنيان الاجتماعي لبقية الرئيسيات يجعل ذلك افتراضا صعبا .

ان ما يحدث عند معظم الأنواع الأخرى من الحيوانات هو أن الأسرة تنقسم وينتشر أفرادها حين تكبر . أما القرد العاري فلا يستطيع أن ينتشر بهذه الطريقة وذلك بسبب سلوكه الاجتماعي والتعاوني .

وكما هو الحال عند بقية الحيوانات التي يتآلف فيها الذكر والأنثى ، نجد أن الأبوين يحبان امتلاك بعضهما جنسيا ، وحينما تتطور المؤشرات الجنسية لدى الأبناء تظهر لدى ذكورها ميول خصومة الأب ولدى اناثها ميول خصومة الأم ، والرغبة في طرد الأبوين ، والحاجة الى أرض محددة تخصص كبيت مستقل شأن الأبوين في البداية . ان القاعدة الأبوية التي تقوم على هيمنة الأبوين لا تحمل الخصائص الصحيحة ، إذ سيكون المكان والأفراد فيه مشحونا بالمؤشرات الأبوية والاجتماعية ، فالمراهق سيرفض بشكل تلقائي هذا المكان . ويبدأ باقامة قاعدة تربوية جديدة .

وهذا الأمر نموذجي بالنسبة للحيوانات الآكلة للحوم الفتية لا ينطبق على الرئيسيات ، وهذا ايضا سلوك متطور سيطالب به القرد العاري .

لربما كان من سوء الحظ ان هذه الظاهرة غالبا ما تدعى «بالتحريم» . ان هذا الأمر يعني لأول وهلة ان هناك تجديدا تتحكم به الثقافة ولكن لا بد له من أن يكون قد تطور بيولوجيا منذ القدم والا فان النظام التربوي لنوعنا البشري لا يتسنى له أبدا أن ينبثق من خلفية الرئيسيات .

هناك خاصة اخرى تبدو فريدة ويختص بها البشر . ان هذه الخاصة هي الاحتفاظ بالبكارة لدى النساء . ان بقاء البكارة يعني ان اول جماع في حياة الانثى سيقابل بعض الصعوبات . وبما أن التطور جعل الأنثى متجاوبة جنسيا مع الذكر فيبدو غريبا للوهلة الأولى ان تكون الأنثى مجهزة بما يعارض الجماع ولكن الوضع ليس معارضا كما يبدو . ان القيام بالجماع الأول الصعب والمؤلم بآن واحد يضمن للأنثى انها لن يستخف بها ، وانه لمن الواضح أنه اثناء فترة المراهقة ستكون هناك فترة «التجربة» الجنسية التي يتم خلالها البحث عن الشريك .

وسيتوجب على الفتيان في هذه الفترة ، الا يتوقفوا عن البحث لأنهم لم يستطيعوا ان يؤمنوا جماعا كاملا . فاذا لم يتشكل الزوجان فانهم غير ملتزمين بأي شيء لذا عليهم البحث في سبيل ايجاد الشريك المناسب . فاذا كانت الفتيات سيمضين دون البحث عن تشكيل الزوجين قد يجدن انفسهن حاملات ويبدأن مباشرة في «وضع زوجي» جديد دون زوج يشاركهن متاعب الحياة . والآن نجد ان وجود كوابح جزئية على سلوكية الأنثى تجعل البكارة تتطلب من الأنثى ان تطور عواطف عميقة قبل الاقدام على الخطوة الأخيرة ـ عواطف قوية بشكل يكفي لجعلها تقدم على الايلام الجسدي الذي يرافق فقدانها لبكارتها .

وعلينا ان نضيف كلمة حول مسألة الزواج الأحادي ومسألة تعدد الزوجات ، والأزواج . ان التطور الذي ادى الى التآلف الزوجي عند النوع البشري سوف يفضل الزواج الأحادي بالطبع لكنه لا يتطلبه بشكل مطلق . فاذا كانت حياة الصيد العنيفة قد ادت الى ان يصبح الذكور الفتيان اقل من ذي قبل ، فان هناك احتمال تشكيل تآلف

زوجي بأكثر من انثى واحدة لدى الذكور الباقين على قيد الحياة . ان الزواج الأحادي هو افضل لتربية الأطفال ولن يقيم توترات خطرة من وجود انثى اضافية . فلو اصبحت عملية الزواج معقدة بالتعدد وبالتالي منعت الاعتناء بالأطفال لأصبحت هذه العملية غير موفقة . ولن تكون ، بالتالي ، هذه العملية في تعدد الأزواج او الزوجات تطورا صحيا وذلك بسبب طبيعة المرأة «الامتلاكية» وبسبب المخاطر التي قد تنشأ بين الخصوم من الناحية الجنسية . كما ستعمل الضغوط الاقتصادية الهامة ضد تعدد الزوجات والاستمرار في رعاية العائلة الكبيرة . الا ان تعدد الزواج قد يحدث ولكن على نطاق ضيق جدا . والجدير بالاهتمام هو انه على الرغم من وجود تعدد الزواج اليوم لدى بعض الأمم الا ان المجتمعات الغالبة في تعداد سكانها لا تزال تفضل الزواج الاحادي . حتى بالرغم من ان تلك ا لمجتمعات تسمح بتعدد الزواج الا ان الذين يمارسونه هم الأقلية . ويصعب التكهن فيما اذا كان نجاح بعض المجتمعات الرئيسية يعزى الى اختفاءتعدد الزواج منها . ولكن يمكننا تلخيص الموضوع بقولنا انه مهما كان متخلفا وغامضا ما تمارسه بعض الوحدات الاجتماعية العشائرية اليوم فان القاعدة العامة لاستمرار الوجود البشري تأخذ شكلها في الزواج الأحادي الطويل الأمد .

هذا اذن ، هو القرد العاري بكل تعقيداته الجنسية : نوع شديد «الجنس» ويميل نحو تشكيل التآلف الزوجي وله عدة خصائص فريدة ، هذه الخصائص التي هي مزيج معقد من اسلافنا ا لرئيسيات مع تعديلات كثيرة في نوع الحيوانات الآكلة للحوم . والى هذه التعديلات والمزيج علينا ان نضيف مقوّما ثالثا واخيرا : الا وهو الحضارة المعاصرة . ان العقل الكبير الذي رافق تحويل ساكن الغابات الى صياد متعاون بدأ يشغل نفسه بالتحسينات التقنية . ان السكنى القبلية البسيطة اصبحت مدنا كبرى . ولكن ما هو تأثير كل هذا اللمعان والبريق الحضاري على النظام الجنسي عند البشر ؟ الجواب هو القليل والقليل جدا . لقد كانت الأمور تجري بسرعة وفجائية اكثر مما تستطيعه خطا التطور البيولوجي الجوهري . ظاهريا يبدو ان التطور البيولوجي قد احرز تقدما ما وهذا صحيح ، ولكننا نخدع انفسنا بتصديقه ، اذ خلف هذه

الحياة المدنية يكمن القرد العاري ذاته . ولـم يتغير شيء سوى الأسماء : بدلا من «صياد» اصبح «عامل» وبدلا من «مكان الصيد» اصبح «مكان العمـل» وبـدلا من «المأوى» اصبح «المنزل» و«التآلف الزوجي» اصبح «الـزواج» وبدلامـن «الشريكة» اصبح «الزوجة» الخ . . . ان الدراسات الأمريكية المعاصرة حول السلوك الجنسي قد دلت على ان المعدات الفيزيولوجية والتشريحية ما يزال يستخدمها الانسـان بكل طاقاتها . ان الدلائل من بقايا ، ما قبل التاريخ وارتباطها بمعطيات الحيوانات الآكلة للحوم المعاصرة والرئيسيات الأخرى المعاصرة ايضا تعطينا جميعها صورة عن الكيفية التي استخدم القرد العـاري فيهـا «الجنس» في الماضي السـحيق وكيف نظـم حياتـه الجنسية . ان الدلائل المعاصرة تبدو وكأنها تعطي الصورة الجوهرية ذاتها متى نحّى المرء ما علق بالصورة من الطلاء الأخلاقي العام وكما قلنا في بداية الفصل ان الطبيعة البيولوجية للحيوان هي التي شكلـت البنيان الاجتماعي للحضـارة وليس العـكس صحيحا .

ومع ذلك ، وعلى الرغم من النظام الجنسي الأساسي الذي حافظنا عليه بشكله البدائي (لم يحدث تجزيء للجنس يتناسب مع المجتمعـات الآخـذة بالتوسـع) فان العـديد من الحـدود والتقييدات قد برزت للوجـود . ان هذه التقييدات اصبحـت ضرورية بسبـب تلك ا لمجموعـة من المؤشرات الجنسية والفيزيولـوجية والتشريحية وبسبب التجاوب الجنسي المتزايد الذي اكتسبناه اثناء تطورنا لكن هذه التقييدات قد وضعت لخدمة المجتمعات القبلية الصغـيرة والدقيقـة التشابـك وليس للمجتمعـات الكبيرة الضخمة . ففي المدينة الكبيرة نجد انفسنا نختلط ونخالط المئات من المثيرات الجنسية أو الغرباء المثيرين جنسيا . ان هذا الأمر جديد علينا ويجب ان نعالجه .

في الحقيقة ان وضع التقييدات الحضارية قد تم في زمن مبـكر وقبـل تواجـد الغرباء . حتى بالنسبة للوحدة القبلية البسيطة كان لا بد من وجود اعضاء متآلفين جنسيا يستطيعون اخفاء مؤشراتهـم الجنسية بطريقـة من الطـرق عندمـا يخالطـون الآخرين في الحياة العامة . فاذا كان الجنس هو العامل الذي يحافـظ على الزوجـين مرتبطين فلا بد اذا من وجود عوامل اخرى تجعلهم يتحاشون المثيرات الجنسية الأخرى

التي يقدمها الطرف الثالث ايضا عندما يفترق الشريكان . ان هذه العوامل تأخذ شكل المبادرات العدائية لدى الحيوانات الأخرى ولكن لدى نوع متعاون كنوعنا البشري فان التفضيل يقع على الطريقة الأقل عدائية. وهنا يأتي دور عقلنا البشري الكبير لنجدتنا . ان الاتصال بالآخرين عن طريق الكلام يلعب دورا هاما .

ان الامثلة الأكثر وضوحا هي استخدام ورق التين الأزلي . وبسبب قامته المنتصبة يصعب على القرد العاري ان يقترب من قرد آخر دون ان يظهر عورته . اما الرئيسيات ا لأخرى التي تمشي على الأربع قوائم فليس لديها هذه المشكلة . فلو ارادت هذه الرئيسيات ان تظهر عورتها لكان عليها ان تتخذ وقفة معينة . اما نحن البشر فتواجهنا هذه المشكلة في كل الأوقات . ويلي ذلك ان تغطية عوراتنا بخرقة بسيطة هو تطور حضاري حتمي مبكر . اما تغطية اجسامنا عندما انتشرت في المناخات الأكثر برودة فقد جاء في مرحلة متأخرة بعد تغطية عوراتنا .

وباختلاف ظروف الحضارات المتباينة فان انتشار الألبسة الحاجبة للعورات قد اختلف ايضا فاحيانا جاءت الألبسة لتغطي عورات جنسية ذات مؤشرات جنسية ثانوية (تغطية الثديين) واحيانا لم تغطها وفي بعض الحالات القصوى فان العضو الجنسي الأنثوي لم يخبأ فحسب بل ايضا يمنع الوصول اليه كلية ، واحد الأمثلة الشهيرة عن ذلك هو استخدام «حزام العفة» الذي يغطي العضو الجنسي الأنثوي بحزام معدني فيه ثقوب خاصة لتسمح بخروج افرازات الجسم . وهناك مثال آخر وهو خياطة عضو الجنسي عند المرأة الفتية قبل الزواج او استخدام محابس معدنية تطبق على شفري المهبل . وقد سجلت اخيرا حالة فريدة من نوعها عندما ثقب زوج شفري مهبل امرأته ثم وضع في هذه الثقوب قفلا يفتحه عند الجماع ويغلقه بعده . ان هذه الاحتياطات المبالغ فيها امر نادر بالطبع الا ان اخفاء العورات امر شائع .

هناك تطور آخر قد وضع هو ممارسة الجنس في خلوة من الآخرين . وهكذا لم تصبح الأعضاء الجنسية اعضاء خاصة فحسب بل اصبح استخدامها خاصا بأفراد

معينين . واليوم فقد تزايد ربط فكرة النشاط الجنسي بظاهرة النوم عند البشر . فالنوم مع شخص آخر اصبح مرادفا للجماع . وهكذا نجد ان النشاط «الجماعي» قد اصبح محصورا في وقت محدد ـ المساء المتأخر بدلا من أن ينتشر طيلة النهار .

ان الاتصال الجسدي قد اصبح ـ كما رأينا ـ جزءا هاما من السلوك الجنسي لذا اصبح لزاما علينا ان نضع التقييدات عليه ايضا في حياتنا اليومية الروتينية . لذا فقد اصبح الاتصال الجسدي بالآخرين امرا محرما في حياتنا الاجتماعية الحافلة بالعمل . فمثلا اي اتصال عفوي كاللمس العفوي بالآخرين يليه اعتذار مباشر ويكون حجم الاعتذار متناسبا مع حجم ما يمكن ان تثيره تلك اللمسة جنسيا . فلو اننا عرضنا امامنا فلما سينمائيا وسرّعنا حركة عرضه لوجدنا كم من التجنبات ، للاتصال الجسدي تحدث طيلة الوقت ، وكم هناك من المناورات التي يقوم بها الآخرون في سبيل تجنب الاتصال الجسدي بغيرهم .

ان هذه التقييدات على الاتصال الجسدي بالآخرين تتحطم في ظروف الازدحام البشري الشديد فقط او في ظروف خاصة بافراد (كالحلاقين والخياطين والأطبا مثلا) مرخّص لهم في عرف المجتمع بلمس الآخرين . اما الاتصال الجسدي بالاقرباء او الأصدقاء الحميمين ، فهو امر اقل تقييدا . وان الدور الذي يلعبه هؤلاء ليس دورا جنسيا لذا فليس هناك اي خطورة . وعلى الرغم من ذلك فان الاحتفاء بالآخرين قد اصبح يخضع لأصول معينة . فعادة التصافح سلوك ثابت وصارم . كما ان القبلة عند التحية قد تطورت الى طقس اجتماعي محدد (اللمس المتبادل بين الفم والخد) يختلف عن التقبيل بالفم على الفم .

كما أن وقفة الانسان قد سلبت من ميزاتها الجنسية . فالوقفة والساقان مفتوحتان قد تجنبتها المرأة . وحين الجلوس تضم ساقيها الى بعضهما باحكام او تلفهما فوق بعضهما .

فاذا اجبر الفم على تبني شكل يذكر بطريقة من الطرق بالتجاوب الجنسي فغالبا ما يخبأ باليد . فالضحك بشكل عام والضحك المفاجيء او تحريك الفم اصبح من خصائص المعاشرة وعندما تبرز هذه الخصائص في اثناء الاجتماع بالآخرين فغالبا ما نجد ان اليد سارعت الى تغطية منطقة الفم .

يلجأ الذكور عند الكثير من الأمم الى ازالة بعض من الشعر ذي الصفة الجنسية بحلاقته من ذقونهم او شاربيهم او كليهما . اما الاناث فتزلن الشعر من تحت الابطين . وعلى الشعر تحت الابطين حيث تتركز الروائح ان يزال ان كانت الأنثى تود الظهور امام الناس في لباس يظهر تحت ا بطيها ، اما شعر الأعضاء الجنسية فيخبأ بالملابس ولكن في بعض الأحيان تحلقه الفنانات لأغراض غير جنسية .

وبالاضافة الى ذلك فان الكثير من روائح الجسم تزال . فالجسم يغسل ويحمم مرارا اكثر مما تتطلبه العناية الطبية . فروائح الجسم شيء غير مستحب في المجتمع لذا نجد ان الطلب على المزيلات الصناعية للروائح في ازدياد .

ان معظم هذه التقييدات تأتي عن طريق الاجابات الشعبية المتداولة مثلا ، «غير مستحب» او «غير مهذب» . اما طبيعة التقييدات الجنسية الصحيحة فنادرا ما تذكر او تعتبر . كما ان هناك تقييدات صريحة ومباشرة وتأخذ شكل قوانين اخلاقية او قوانين الجنس . ان هذه القوانين تختلف باختلاف الأمم والحضارات ولكن في جميع الأحوال تبقى التقييدات الرئيسية هي نفسها - اي منع اثارة الغرباء وتحريم تعاطي الجنس خارج نطاق التآلف الزوجي . وكمساعد لهذه العملية التي تعتبر صعبة حتى بالنسبة للناس المتزمتين ، ظهرت اساليب للتصعيد . فمثلا رياضة اولاد المدارس والنشاطات الفيزيولوجية الأخرى تشجع احيانا ، لكن عبثا ، تحاول ان تخفف من الدوافع الجنسية . ان الدراسة الداعية لهذا المفهوم وتطبيقه تبدي لنا انه فاشل .

فالرياضيون ليسوا اقل او اكثر نشاطا من غيرهم . فكل ما يخسرونه بسبب الارهاق الجسدي يكسبونه في اللياقة البدنية . ويبدو ان الطريقة السلوكية الوحيدة المساعدة في

تخفيف حدة الجنس هي الطريقة القديمة من المكافأة ـ والعقاب في ممارسة الجنس . الا ان هذه الطريقة بالطبع لا تخفف حدة الجنس بقدر ما تكبته .

انه لمن الواضح تماما ان مجتمعاتنا الكبيرة تلجأ الى اجراءات من هذا النوع لتمنع التعرض الاجتماعي الشديد من ان يؤدي الى زيادة خطيرة في النشاطات الجنسية خارج نطاق الرباط الزوجي . ولكن طبيعة القرد العاري ذي الميول الجنسية الشديدة تستمر في التمرد . وكلما تسارعت التقييدات الاصطناعية في التطبيق في جهة ما تتسارع عكس اتجاهها التحسينات المضادة في جهة اخرى . وهذا الأمر يؤدي غالبا الى وضع متناقض يثير الاستهجان فمثلا نجد ان الأنثى تغطي ثدييها بينما ترتدي حاملة الثديين التي تظهر معالمها . ان هذه الحاملة لا تعيد معالم الشكل المخبأ فحسب بل انها تجسمه محاكية بذلك انتفاخ الثديين اثناء الاثارة الجنسية . وفي بعض الحالات حيث يكون ثديا امرأة صغيرين تلجأ الى الجراحة التجميلية وتخضع لعملية حقن ثدييها بمواد تعيد لهما شكلهما الطبيعي .

وقد ابرزت وجسّمت مناطق اخرى من الجسم وذلك بغرض الاثارة الجنسية :

ما علينا سوى ان نفكر بما يضعه الناس من وسائد على اكتافهم او ما تفعله النساء لابراز اردافهن. وعند بعض الأمم يمكن للمرأة ان تشتري حاملات للأرداف ان كانت نحيلة وتسمى بـ«الأرداف المستعارة» كما ان استخدام الأحذيةذات الكعب العالي التي تشوه مشية المرأة تجعلها ترجرج أرادفها اثناء الحركة وبالتالي تثيرجنسيا .

وقد استخدمت وسائد لأحواض النساء في ازمنة مختلفة كما استخدمت المشدات حيث يبالغ في تجسيم الحوض وتكوير الثديين . وبما ان الرجال يفضلون النساء ذوات الخصر الضيق لذا عمّ استخدام المشدات . وقد وصلت الأزياء الى اوجها منذ نحو نصف قرن حين لجأت النساء الى ازالة احدى ريشتي الصدر السفلية بالجراحة العامة لزيادة التأثير الجنسي .

كما انتشر احمر الشفاه والعطور بأنواعها لزيادة تأثير مؤشرات الشفاه الجنسية وامتقاع الوجنتين الجنسي ورائحة الجسم الجنسية . فالمرأة التي تغتسل وتزيل رائحة جسمها الطبيعية وتستعيض عنها برائحة تجارية ليست في الواقع اكثر من استخدام روائح تفرزها غدد بعض الحيوانات لكن بشكل محلول .

بعد أن نقرأ عن التقييدات الاجتماعية على الجنس وما يقابلها من اجراءات عكسية لا يسعنا سوى ان نقول انه من الأسهل علينا ان نعود الى المربع رقم واحد حيث بدأنا .

لماذا نبرد الغرفة ثم نشعل مدفأة فيها ؟ كما شرحنا سابقا السبب في هذه التقييدات مباشرة : هو منع ممارسة الجنس اعتباطيا ومنع المثيرات الجنسية الاعتباطية التي تؤثر في علاقة الرباط الزوجي . ولكن لماذا لا تكون التقييدات تامة وعلنية ؟ لماذا لا تحصر هذه المظاهر الجنسية البيولوجية والاصطناعية فقط في فترة الخلوة بين الشريكين ؟ ان جزءا من الاجابة على هذا السؤال يكمن في مستوانا الجنسي العالي الذي يتطلب تعبيرا مستمرا عنه ومنفذا له . لقد تطور المستوى الجنسي لدينا للحفاظ على الرباط الزوجي ولكن الآن وفي مناخ تكثر فيه المثيرات الجنسية في مجتمع متشابك تنطلق هذه المثيرات الجنسية لتشمل اوضاعا خارج نطاق الرباط الزوجي . لكن هذا جزء فقط من الاجابة . فالجنس يستخدم ايضا «كوسيلة اجتماعية» - هي عبارة عن مناورة تستخدمها الرئيسيات الأخرى . فمثلا اذا ارادت انثى السعدان ان تتصل بذكر عدائي وفي ظرف غير جنسي ، تعمد الى اثارته جنسيا ولا يكون غرضها في هذه الحالة ان تجامعه بل انها بعملها هذا سوف تثير دوافعه الجنسية بشكل كاف لتكبت عدائيته . ويقال لمثل هذا السلوك «بنشاطات اعادة التحريض» . فالأنثى تستخدم الاثارة الجنسية لتعيد تحريض الذكر ومن ثم تكسب مكسبا غير جنسي . هناك وسائل مشابهة تستخدمها انثى البشر . فالكثير من المؤشرات المصطنعة تستخدمها الأنثى بالطريقة نفسها . فحين يجعل الانسان من نفسه جذابا تجاه الجنس الآخر يستطيع عندئذ ، وبشكل فعال ، ان يخفف من الشعور العدائي لدى الأفراد الآخرين .

هناك مخاطر بالطبع ، في هذه الاستراتيجية بالنسبة للأنواع التي يتآلف فيها الشريكان حيث لايبالغ في المثيرات الجنسية . فمع الرضوخ للتقيدات الأساسية التي طورتها المجتمعات يمكن ان يبدي الأفراد مؤشرات كالتالي «اني غير مستعد او مستعدة للجماع» ، ومع ذلك يبدون مؤشرات اخرى مثلا «ومع ذلك انني مثير او مثيرة جنسيا» . فالمؤشرات الأخيرة تقوم بمهمة تخفيف حدة العداء بينما المؤشرات السابقة تمنع نشوء وضعية تنعدم فيها السيطرة على الأمور . وبهذه الطريقة يحصل المرء على مبتغاه .

يجب ان تعمل هذه المؤشرات بشكل فعال ولكن لسوء الحظ هناك عوامل اخرى تعيقها . فآلية الرباط الزوجي ليست كاملة . فالأمور تعود الى سابق عهدها في نظام الرئيسيات المبكر الذي لا يزال تأثيره واضحا . فاذا اختل اي شيء في وضع التآلف الزوجي عندئذ تبرز الدوافع القديمة . اضف الى ذلك خاصية «الفضول» لدى الأطفال والتي تمتد لتشمل فترة البلوغ . هذه الخاصية هي احدى خصائص التطور البشري . وهكذا يصبح التآلف الزوجي في خطر .

فالنظام كان مصمما ليعمل في وضع حين تكون الأنثى منتجة لعائلة كبيرة قوامها الأولاد بينما يذهب الذكور الى الصيد . وعلى الرغم من ان هذا الأمر ما زال قائما الا ان شيئين قد تغيرا : هناك ميل الى الحد اصطناعيا من عدد الأطفال . وهذا يعني ان الأنثى لن تعاني عبئا كبيرا في تربية الأطفال وبالتالي سيصبح لديها متسع من الوقت لممارسة الجنس اثناء غياب زوجها . كما ان هناك ميلا لدى العديد من الاناث الى مشاركة الذكر في الصيد . ان الصيد بالطبع ، قد التعيض عنه الآن «بالعمل» والذكور الذين يتنقلون في اسفارهم سعيا وراء العمل اصبحوا عرضة للخوض في مجتمع يضم كلا الجنسين بدلا من مجتمع يسوده الذكور فقط . لذا نجد ان التآلف الزوجي ينهار تحت الضغوط (لقد دلت الاحصاءات الامريكية على ان ٢٦٪ من الاناث المتزوجات و ٥٠٪ من الذكور المتزوجين قد مارسوا الجماع خارج نطاق الزوجية حين بلوغهم سن الأربعين) . وكثيرا ما يكون الرباط الزوجي متينا للحفاظ

على نفسه اثناء النشاطات الخارجية او قويا بشكل كاف ليكيف نفسه عندما تمر الأزمات . لكن هناك نسبة مئوية ضئيلة ينهار فيها الرباط الزوجي .

اننا نغالي لو تركنا الموضوع حيث هو . وقد يستطيع الرباط الزوجي البقاء اثناء الفضول الجنسي الا انه لا يستطيع ان يزيله . وعلى الرغم من أن تأثير الجنس بين الزوجين قوي ويستطيع ان يبقي الزوجين مع بعضهما الا انه لا يستطيع ان يزيل الاهتمام بالنشاط الزوجي الخارجي . فلو ان النشاط الجنسي الخارجي يقاوم الرباط الزوجي بشكل قوي فعندئذ لا بد من وجود بديل اقل ضررا للشريكين . وكان الحل هو «الفويرسمية» (Voyeurism) بمعناها الواسع وهي مستخدمة على نطاق واسع .

فالفويرسمية تعني الحصول على الاثارة والمتعة الجنسيتين من مراقبة الأخرين في وضعية الجماع ولكن يمكن توسيع التعبير ليشمل اي اهتمام جنسي دون اشتراط المشاركة في العملية الجنسية . ويكاد جميع الناس يمارسون الفويرسمية . فهم يقرأون عنها ويطلعون عليها او يصغون اليها . فهذه المجموعة الهائلة من مواد التلفزيون والراديو والسينما والمسرح والقصص تهتم باشباع هذا المطلب . كما تسهم ايضا المجلات والجرائد والمحادثة العامة في تلبية هذا المطلب . لقد اصبحت الفويرسمية صناعة رئيسية . ولم يحدث ابدا ان فعل المشاهد اي شيء ضدها . كل شيء يؤدى بالوكالة . فالمطلب عاجل لذا كان علينا ان نستعين بالعاملين من الممثلين والممثلات الذين يتظاهرون انهم يؤدون المشاهد الجنسية حتى يتسنى لنا مشاهدتهم . فهم يعاشرون ثم يتزوجون ثم يعيشون ثانية في ادوار جديدة ليتزوجوا في يوم آخر . وبهذه الطريقة يزداد طلب المشاهد للجنس .

ولو نظرنا الى الأنواع العديدة في الحيوانات سنجد أنفسنا مجبرين على استخلاص النتيجة بأن الفويرسمية غير موجودة بينها وهي شيء غير طبيعي بيولوجياً بينها . الا ان الفويرسمية غير ضارة ولربما تعمل في مساعدة جنسنا البشري لانها تشبع الى حد ما مطالبنا المستمرة وتشبع فضولنا الجنسي دون ان نتورط في علاقة جنسية قد تهدد الرباط الزوجي .

ان البغاء يعمل بالطريقة نفسها . الا انها بالطبع ، يعني التورط الشخصي بالرغم من كون العلاقة «جماعية» فقط . اما مايسبق فترة الجماع فيبقى محدودا جدا . هذه هي المراحل التي يبدأ فيها تشكيل الزوجين ومن ثم تكبح هذه المراحل . فلو أن الذكر انغمس في دوافع جنسية وورط نفسه بالجماع مع عاهرةفهو بذلك يصبح عرضة لتحطيم الرباط الزوجي ، لكنه يصبح اقل عرضة لذلك لو أنه انغمس في قراءة قصص الحب الرومانطيقية التي تحتم عليه الجماع .

هناك شكل آخر من أشكال النشاطات الجنسية التي تتطلب البحث وهي (الشذوذ الجنسي) . ان الغرض الرئيسي للسلوك الجنسي هو إنجاب الأطفال وهذا يخفق الشاذون جنسيا في تحقيقه .

ليس هناك اي شيء غير عادي من الناحية البيولوجية في الشذوذ الجنسي . فالكثير من الرئيسيات تمارسه في كثير من الاحيان . لكن تشكيل الرباط الزوجي بين الشاذين جنسيا هو أمر غير صحي وذلك لأن الفعل الشاذ لايؤدي الى انجاب الأطفال ويهدر طاقة البالغين . ولنفهم كيف يحدث ذلك علينا أن ندرس الرئيسيات الأخرى .

لقد شرحنا كيف أن الانثى تستخدم المؤشرات الجنسية لكي تعيد تحريض الذكر العدائي . فعند اثارته جنسيا تستطيع أن تكبت عدائيته وان تتجنب تهجمه عليها . فالذكر الأقل قوة قد يلجأ الى هذه الوسيلة . كثيراً مايحدث ان أحد ذكور السعادين يتبنى وقفة جنسية انثوية ومن ثم نجد ان سعداناً آخر مهيمناً قد اعتلاه والا لهاجمه . كذلك أيضا فالاناث الأقوى تعتلي الاناث الأضعف بالطريقة نفسها .

ولأن الرئيسيات الأخرى لا تخضع لعملية تشكيل الزوجين بمعناها المحدد تماماً إذا لا تؤدي الى نشوء المشاكل في تشكيل زوجين شاذين ولفترة طويلة . ان الشذوذ الجنسي ببساطة يحل المشاكل المستعجلة الا انه لا يؤدي الى علاقة طويلة الأمد .

فالسلوك الجنسي الشاذ ينشأ ايضا في وضع حين ينعدم وجود الجنس الآخر . ان هذا الأمر ينطبق على كثير من أنواع الحيوانات الأخرى : فالعضو الذي هو من الجنس ذاته يستخدم كشيء بديل (التفضيل الثاني) للنشاط الجنسي . ففي العزلة التامة تلجأ الحيوانات الى الاجراءات القصوى فتجامع حتى الجمادات أو أنها تستمني . ففي الاسر مثلا ، لوحظ ان بعض الحيوانات الآكلة للحوم تجامع أوعية طعامها . كما تلجأ السعادين الى الاستمناء وعرف ذلك عن الأسود ايضا . اما الحيوانات التي تتواجد في المنازل الى جانب حيوانات من فصائل اخرى فنجد انها تجامع بعضها . ولكن هذه النشاطات الشاذة تختفي تماما إذا توفر المثير الجنسي الصحيح - أي عندما يظهر على المسرح عضو من الجنس الآخر .

إن اوضاعا مشابهة تحدث كثيرا لجنسنا البشري ويكون فيها التجاوب ذاته . فلو حدث أن أحد الجنسين لم يحصل على اشباع غريزته من الجنس الآخر فانه سيبحث عن مخرج آخر ، سيحاول أن يمارس الجنس مع أعضاء الجنس نفسه أو أعضاء من الفصائل الأخرى او يستمني . لقد دلت الدراسات الامريكية المطولة حول السلوك الجنسي ان نسبة ١٣ بالمائة من الاناث في امريكا و ٣٧ من ذكورها قد مارسوا الشذوذ الجنسي حتى درجة القذف المنوي الى سن الخامسة والاربعين . اما الاتصال بالحيوانات فنادر (وذلك بسبب عدم توفر المثيرات الجنسية الكافية) وقد سجلت نسبة ٥,٦ بالمائة من الاناث و ٨ بالمائة من الذكور يمارسون الجماع مع الحيوانات . وعلى الرغم من ان الاستمناء لا يوفر المثيرات الجنسية التي يقدمها الشريك الا انه اسهل لدرجة ان نسبة اللجوء اليها اكبر ويقدر ان ٥٨ بالمائة من الاناث و ٩٢ بالمائة من الذكور يستمنون في وقت ما من أوقات حياتهم .

فلو حدثت جميع هذه النشاطات المهدورة دون هدر لطاقات الانسان او الفرد صاحب العلاقة لأمكن اعتبارها اذا غير ضارة . ونحن البشر نميل الى (الوقوع في الحب) الى ان نطور رباطا قويا مع (الشيء) الذي يحوز على اهتمامنا الجنسي . ان هذه الاجراءات الجنسية تزودنا بكل الارتباط الزوجي الطويل الامد الذي هو ذو

فعالية كبيرة للمطالب الابوية . ان الانطباع الجنسي سيبدأ عمله حالما يحدث اتصال جنسي جاد . وتكون النتائج عندئذ واضحة . ان الانطباع الجنسي هو عملية اجتماعية . ان بعض المثيرات الحاضرة عند لحظة المكافأة الجنسية تتصل بالمكافأة ذاتها ولا يمكن للسلوك الجنسي ان يحدث دون تواجد هذه المثيرات الحيوية . فلو دفعنا بالضغوط الاجتماعية لنمارس مكافأتنا الجنسية القديمة في الشذوذ الجنسي او الاستمناء عندئذ فان من المرجح للعناصر المتواجدة اثناء هذه الاوضاع ان تصبح ذات اهمية جنسية قوية وذات ديمومة طويلة .

قد يتوقع المرء أن هذه الحقائق تؤدي الى زيادة المشاكل لكن هناك شيئين يمنعان ذلك . اولا نحن جميعا مجهزون بمجموعة من التجاوبات الغريزية الجيدة مع المؤشرات الجنسية لدى الجنس الآخر لدرجة انه من غير المرجح لنا ان نمارس أي تجربة مع أي «شيء» يفتقر الى هذه المؤشرات . ثانيا ، ان تجاربنا الجنسية المبكرة هي تجارب مؤقتة . فنحن نبدأ بالحب وقد نخرج منه مرارا وبسهولة بالغة وكأن الأمر لا يتعدى الاجراء الكامل الذي يتخلف وراء التطورات الجنسية الأخرى فنحن أثناء هذا «البحث» ندخر بشكل عام عدداً كبيرا من هذه الانطباعات الجزئية حتى نصل اخيرا الى نقطة نصبح عندها حساسين عند انطباع جنسي رئيسي . ونكون عادة في هذه الأثناء معرضين بنجاح الى عدد من المثيرات الجنسية المتنوعة التي تتثبت بالمثيرات البيولوجية المناسبة وتصبح العملية الجنسية عندئذ عملية طبيعية .

ربما كان من السهولة أن نفهم ذلك اذا قارنا هذا الوضع بالوضع المتطور لدى بعض الحيوانات الأخرى . فالطيور المتآلفة زوجياً مثلاً تهاجر إلى أرض تربى فيها صغارها وتضع أعشاشها . فالفراخ التي لم يسبق لهم أن مارست الجنس تطير كالبالغةللمرة الأولى الاأنهاسرعان ماتحتاج الى ايجادأراض وتشكل زوجين يربيان الصغار . انها تقوم بهذا الأمر دون تأخير بعد وصولها مباشرة . ففراخ العصافير تنتقي شريكا لها بحسب مؤشراتها الجنسية . ان تجاوبها مع هذه المؤشرات يكون غريزيا . فبعد فترة المعاشرة تباشر الجنس مع ذلك الفرد ، ويتحقق ذلك عن طريق

اجراء الانطباع الجنسي . وكلما استمرت فترة التآلف الزوجي كلما كان لابد للغريزة الجنسية ان ترتبط ببعض الميزات الفردية التي تحدد ذلك الفرد (هذا شائع بين جميع اعضاء الجنس الواحد ولدى جميع المخلوقات) بهذه الطريقة فقط يمكن ان تضيق عملية الانطباع الجنسي وتقتصر على التجاوب الجنسي لكل طائر مع شريكه . ان كل ذلك يحدث بسرعة لان فصل التناسل محدود . ففي بداية هذه المرحلة لو أزيح جميع الأعضاء من الجنس الواحد من المستعمرة لنشأت العلاقات الجنسية الشاذة بين الجنس الواحد المتبقي لأن الطائر سيتوجه نحو التعويض الجنسي .

اما بالنسبة لجنسنا البشري فالاجراءات أبطأ بكثير . فنحن لا يتحتم علينا ان نعمل ضمن حدود فصل التناسل القصير . ان هذا الأمر يسمح لنا بوقف كاف للعب . حتى لو قذف بنا الى بيئة وحيدة الجنس ولفترة طويلة اثناء فترة المراهقة فاننا لا نتطور الى تشكيل تآلف جنسي شاذ . ان هذا الانطباع يمكن أن يزول بسهولة فيما بعد اذا ماخلفه انطباع آخر قوي .

في حالات قليلة يصبح الضرر أبدياً ، حيث تصبح بعض الملامح الاجتماعية قوية لدرجة انها تتصل اتصالاً متيناً بالتعبير الجنسي وستكون الحاجة قاسية دائماً إلى هذه الملامح فيما بعد أي في ظرف تشكيل الرباط الزوجي . إن هزال هذه المؤشرات الجنسية الاساسية التي يبثها الشريك المماثل الجنس لن تكون كافية للتغلب على الانطباعات الجنسية الايجابية . إنه لسؤال منصف ان سألنا لماذا يعرّض أي مجتمع من المجتمعات نفسه إلى مخاطر كهذه . فتبدو الاجابة على هذا السؤال كامنة في أن السبب يعود إلى الحاجة في تمديد طور الثقافة والتعلم لدرجة يستطيع الفرد فيها ان يتأقلم مع المطالب التقنية لتلك الحضارة . فمثلاً لو تزوج الذكور والاناث حالما وصلا إلى سن البلوغ عندئذٍ ستهدر كل عمليات التثقيف . هناك ضغوط تمنع هؤلاء الازواج من الاقدام على أمور شاذة . ولكن لسوء الحظ فليس هناك أي تقييدات حضارية تستطيع أن تمنع تطور نظام جنسي ، فإذا لم يستطع هذا النظام أن يأخذ مجراه الطبيعي فإنه سيجد طريقاً آخر .

هناك عامل منفصل آخر لكنه هام يستطيع أن يؤثر في الميل الجنسي الشاذ . فإذا كان في وضع الابوين أولاد قد تعرضوا إلى التعامل مع أم مسترجلة أو أب ضعيف الشخصية أو انثوي الشخصية عندئذٍ فإن هذا الوضع سيؤدي بالطبع إلى فوضى في العلاقات . فالشخصية السلوكية ستتجه باتجاه ، والشخصية البيولوجية ستتجه باتجاه آخر . أو عندما يبلغون بلوغاً جنسياً فإن الابناء سيبحثون عن شريك له خصائص سلوكية الأم (تختلف عن الخصائص البيولوجية) . وهم عندئذٍ سيميلون إلى البحث عن شركاء ذكور بدلاً من الاناث . وكذلك أيضاً فإن البنات سيفتشن عن المخاطر المشابهة . إن مشكلة الجنس من هذا القبيل سببها الفترة الطويلة التي تتطلبها الطفولة في اعتمادها على الآخرين وما تخلقه من مزعجات قد تطول جداً . ربما كان الاب الانثوي الشخصية الذي مّر ذكره معرضاً في السابق إلى شذوذ جنسي في علاقة والديه هو نفسه الخ . . . . إن مشاكل من هذا النوع تزعج الجيل لفترة طويلة قبل أن تنتهي أو قبل أن تصبح مستفحلة ومن ثم تحل نفسها بنفسها عن طريق تحريم التناسل كلية .

وبما أني عالم بالحيوان فلا أستطيع أن أخوض في غرائب السلوك الجنسي بالطريقة الاخلاقية المعتادة . بل استطيع فقط أن اتدارس ماله علاقة بالاخلاقية البيولوجية في مستوى نجاح أو اخفاض المجتمع . فإذا عارض أي سلوك جنسي نجاح عملية التكاثر عندئذٍ يمكن أن يعتبر هذا السلوك غير صحي من الناحية البيولوجية . ويجب القول أيضاً أنه ليس هناك أي ممارسة جنسية مهما كانت متخفية أو بذيئة بالنسبة للمجتمع ، يمكن أن تنتقد بيولوجياً إذا لم تعق نجاح عملية التكاثر العامة . فإذا كانت هناك علاقة جنسية غريبة بين شريكين وكانت مساعدة في عملية التكاثر الطبيعية ومقوية للرباط الزوجي فاننا عندئذ نعتبر أن هذه العلاقة مقبولة ومستحسنة وانها أدت واجبها على أكمل وجه .

بعد أن ذكرنا كل تلك الامور علينا الآن ان نشير إلى أن هناك حالة خاصة تشذ عن القاعدة . إن الاخلاقية البيولوجية التي سبق ولخصناها لا تنطبق على ظروف

الازدحام السكاني الهائل . وعندما يحدث هذا الشيء تنقلب الآية . إننا نعلـم من خلال دراستنا للانواع الاخرى من الحيوانات عندما تكون في ظروف ازدحام تزداد فيه الكثافة السكانية بحيث ينهار عندها البنيان الاجتماعي بأكمله . وتنتشر الامراض بين الحيوانات وبالتالي تقتل صغارها وتتحارب بشراسة . كما أنها تبدأ بتشويه أجسادها ولا يمكن لأي سلوك طبيعي أن ينشأ بينها . ويصبح كل شيء عجزاً . وبالتالي يرتفع عدد الاموات وينخفض تعداد الاحياء لدرجة يبدأ المجتمع معها في بنـاء نفسـه من جديد عن طريق التناسل ولكن كل ذلك لا يحدث قبل حدوث الكارثة . فلو قدر لأي وسيلة جنسية غير طبيعية ، ولكنها منظمة ومنضبطة ، أن تستمر في ظروف الكارثة وفي ظهوّر أولى مؤشرات الانفجار السكاني ، لأمكن تحاشي الفوضى . وفي ظروف كهذه من تكاثر السكان وعدم وجود امكانات لتخفيف حدته فإن أي سلوك جنسي غير طبيعي ولا يساعد على التكاثر يجب أن يدرس برؤية جيدة .

إن جنسنـا البشري يتجه بسرعـة في هذا الاتجـاه . فلقـد وصلنـا إلى نقطـة لا نستطيع أن نكون متسامحين عندها . إن الحل واضح وهو تقليل نسبة التكاثر دون التدخل في بيان المجتمع الحاضر أي منع الزيادة الكمية دون منع الزيادة في النوعية .

إن موانع الحمل الاصطناعية مطلوبة لهذه الغاية لكن يجب الا تؤثر في وحدة العائلة الاساسية . وفي الواقع هناك مخاطر صغيرة من استخدام هذه الموانع . إن الخوف من انتشار هذه الموانع مرده إلى الاعتقاد انها تبيح الاختلاط الجنسي بأي كان دون تمييز لكن هذا الأمر غير مرجح ـ وذلك لأن الرباط الزوجي عند البشر امتن من أن يسمح لهذه الفوضى الجنسية بالاستمرار . ولكن الخطر ينشأ من كثرة تعاطي هذه الموانـع بـين المتزوجين لدرجة تعيق عملية التكاثر مما يضعف الربـاط الزوجـي ويشـكل تهـديداً للأزواج الذين يحاولون تربية الأطفال .

لكن الانخفاض المتزايد في عملية التناسل أمر غير ضروري . فلو أن كل عائلة حددت انجابها للاولاد بولدين فقط فلن تكون هناك زيادة . فلـو أخذنـا بالاعتبـار

موضوع الحوادث التي تحصل أو موت غير البالغين فإن الرقم المتوسط سيرتفع قليلاً دون أن يؤدي الامر إلى زيادة في عدد السكان وبالتالي إلى كارثة تحل بالبشر .

المشكلة هي أن هذه الموانع الآلية أو الكيمائية هي منتجات جديدة وسوف يمضي وقت قبل أن نعرف تماماًتأثيرها على البنيان الجنسي الاساسي للمجتمع وبعدأن يكون عدد كبير من الجيل قد استخدمها وبعد أن تتطور تدريجيا أعراف جديدة مستمدة من الأعراف القديمة . قد يؤدي الامر إلى تشويهات غير مباشرة وغير مرئية أو إلى خلل النظام الجنسي والاجتماعي . ولكن مهما حدث فإن البديل سيكون أسوأ من سابقه ، هذا إذا لم نطبق عملية تحديد النسل .

إذا أعدنا النظر إلى المسرح الجنسي باكمله نستطيع أن نرى أن جنسنا البشري قد بقي وفياً لدوافعه البيولوجية الاساسية أكثر مما نستطيع أن نتصوره للوهلة الأولى .

إن نظامه الجنسي القديم مع التعديل الذي طرأ عليه كواحد من آكلة اللحوم الرئيسية ، قد تفوق على كل التقدم التقني العظيم الذي أحرزه البشر . فلو أخذ احدنا مجموعة مكونة من عشرين عائلة ريفية ووضعناها في بيئة استوائية بدائية حيث يذهب الذكور إلى الصيد طلباً للطعام فإن البنيان الجنسي لهذه القبيلة الجديدة سيتطلب القليل جداً من التعديلات أو لا يتطلب أي شيء البتة . ولكن ما حدث في الواقع في كل مدينة كبيرة هو أن الافراد الذين ينتمون اليها قد تخصصوا في الواقع في كل مدينة كبيرة هو أن الافراد الذين ينتمون اليها قد تخصصوا في اسلوب صيدهم (عملهم) الا انهم حافظوا على نظامهم الاجتماعي الجنسي في شكله القديم إلى حد ما . فمثلاً القرد الذي يغزو الفضاء لا يزال يحتفظ بصورة لزوجته واولاده في محفظته أثناء رحلته السريعة إلى القمر . إننا نواجه أول قفزة في نظامنا الجنسي في مجال تحديد النسل العام ، وكل ذلك بتأثير الحضارة المعاصرة .

والفضل يعود إلى الطب الحديث والجراحة والصحة العامة في وصولنا إلى قمة عالية من نجاح عملية التناسل . لقد جربنا عملية الحد من الموت وعلينا الآن أن

نوازن بينها وبين عملية التحكم في الولادة . يبدو الامر وكأننا سوف نغير من طرقنا الجنسية خلال القرن القادم أو نحوه . ولكن ان فعلنا ذلك فلن يكون مرده إلى فشل نظمنا الحاضرة بل لانها نجحت أكثر من الضروري .

الفصـــل الثالـــث

تر بية الصغـــار

إن الأعباء الابوية أثقل لدى القرد العاري مما هي عليه لدى أي من الانـواع المعاصرة إن المدة التي تستغرق الواجبات الابوية للقرد العاري طويلة بعـكس تلك التي للحيوانات الاخرى . وقبل أن نتدارس هذه الميزة علينا جمع الحقائق الاساسية .

متى لقحت الانثى وبدأ الجنين بالنمو فهي تخضع لعدد من التبـدلات ، كما يتوقف سيلانها الحيضي ، وتبدأ بمعاناة الدوار الصباحي المبكر وينخفض ضغط الدم لديها ، وقد تصاب بفقر الدم إلى حد ما . وبمرور الوقت ينتفخ ثدياها ويصبحـان طريين وتزداد شهيتها للطعام وبشكل عام تصبح أكثر هدوءاً .

وبعد فتـرة الحمـل التـي تقـارب / ٢٦٦/ يومـاً يبـدأ رحمهـا بالتقلص بقـوة وبانتظام ، ويبدأ الغشاء الذي يحوي السائل المحيط بالجنين بالتمزق وينساب السـائل الذي يطفو فوقه الجنين . كما تحدث تقلصات عنيفة أخرى وتقذف بالوليد من رحم أمه إلى عنق المهبل ومن ثم إلى العالم الخارجي . والتقلصات المتكررة عندئذٍ تزيح المشيمة وتقذف بها . أما الحبل الذي يصل الطفل بالمشيمة فيبتر . ولدى الرئيسيات الاخرى تتم عملية بتر الحبل السري عن طريق الام التي تعضه فتقطعه ولاشك أن هذه الطريقة كانت تستخدم من قبل اسلافنا أما اليوم فيربط هذا الحبل بشكل مرتب ثم يقص بمقص أما السرة فتبقى متصلة ببطن الوليد حتى تجف ثم تسقط بعد مضي بضعة أيام من الولادة .

إن الاجراءات المتبعة عالمياً اليوم هي موافقة البالغين ومساعدتهم للمرأة أثناء الولادة . ولربما كان ذلك اجراء موغلا في القدم إن متطلبات الحركة والقامة منتصبة لم

تكن رؤوفة بانثى البشر : إن العقاب على هذه الخطوة في التطور هو الحكم بعدة ساعات من المخاض . ويبدو مرجحاً أن هذا التعاون الذي يبديه الآخرون نحو المرأة الحامل يعود إلى مرحلة الصيد حين تطور القرد العاري من قرد يسكن الغابات إلى قرد صياد . ولحسن الحظ فإن هذه الطبيعة التعاونية قد رافقت نوعنا البشري جنباً إلى جنب مع تطوره إلى الصيد لذا يصبح الداء هو الدواء أيضاً . وبشكل طبيعي فإن أم الشامبانزي لا تعض الحبل السري فحسب بل تلتهم جميع أجزاء المشيمة وتمتص السائل وتغسل وتنظف وليدها وتضمه إلى صدرها وتحميه . أما أنثى البشر المرهقة بعد الولادة فتعتمد على المرافقين في القيام بهذه المهمات (وما يقابلهم في العصر الحديث) .

وبعد انتهاء الولادة قد يمر يوم أو يومان لينساب الحليب من ثدي الام ومتى حدث ذلك فهي عندئذٍ تطعم طفلها بانتظام لمدة تصل إلى العامين . أما فترة الارضاع المتوسطة فهي أقصر من ذلك والاتجاه المعاصر إلى تخفيضها إلى ستة أو تسعة أشهر . وأثناء هذه الفترة لا تحيض المرأة ولا يبدأ السيلان الحيضي إلا عندما تتوقف الام عن الارضاع وتبدأ بالفطام .

فإذا ما فطم الاطفال مبكرين أو بدأوا يتغذون عن طريق الزجاجة فإن هذا التأخير في الحيض لا يحدث بالطبع وتستطيع الانثى أن تبدأ عملية التناسل ثانية وبسرعة أكبر . ولكن إذا اتبعت المرأة النظام البدائي ارضعت وليدها لمدة سنتين كاملتين فإنها غالباً سترزق وليداً جديداً كل ثلاث سنوات تقريباً (يعمد أحياناً إلى إطالة فترة الارضاع كبديل لاستخدام موانع الحمل) . وإذا حسبنا الفترة الممتدة نحو الثلاثين عاماً التي تستطيع أن تحمل فيها المرأة فهذا يعني أنها تستطيع انجاب عشرة أطفال تقريباً في هذه الفترة وضمن حدود طاقتها الطبيعية أما إذا كان اطعام الاطفال يتم عن طريق الزجاجة وإذا قصرت فترة ارضاعهم عن طريق الثدي فإن رقم الانجاب سيرتفع نظرياً إلى الثلاثين مولوداً .

إن عملية الارضاع بحد ذاتها مشكلة تتحملها انثى البشر أكثر مما تتحملها انثى الرئيسيات الاخرى . ويكون الوليد لا حول له ولا قوة لدرجة يتوجب معها على الام أن تلعب دورها الفعال في امساك الطفل وشده إلى صدرها وارشاده في تصرفه . وقد تعاني بعض الامهات الصعوبات في ارشاد اطفالهن إلى الرضاعة المجدية . وإن السبب المعهود هو أن الحلمة ليست بارزة بشكل كاف إلى داخل فم الطفل .

ولا يكفي أن تطبق شفتا الطفل على الحلمة ولا بد من أن تدفع الحلمة إلى داخل الفم كلية حتى يتسنى للجزء الامامي من الحلمة أن يتصل بالسطح العلوي للسان والحنك إن هذا الاجراء هو الوحيد الذي يطلق الفكين واللسان والخدين لعملية المص . ولكن يجب أن يرافق هذه العملية وضع الثدي المرن والمدر للحليب . وانه من الضروري أن تكون عملية الرضاعة فعالة كلية في غضون أربعة أو خمسة أيام من الولادة إذا أريد لعملية التغذية أن تكون ناجحة . فإذا تكرر فشل العملية أثناء الاسبوع الاول فإن الطفل لن يتجاوب اطلاقاً . وإنه سوف يرضى بالتعويض الذي يأتيه عن طريق الزجاجة .

هناك صعوبة أخرى في عملية الارضاع تسمى «بالصراع من أجل الثدي» لدى بعض الاطفال . إن هذا الأمر غالباً ما يعطي الانطباع للام أن الطفل لا يريد الرضاع . ولكن الفشل في الحقيقة مرده إلى احساس الطفل بالاختناق . إن وضعية غير ملائمة لرأس الطفل عند الرضاعة ستميد أنفه بينما يكون فمه ممتلئاً مما يعيق التنفس لديه . انه يصارع لا من أجل تجنب الرضاعة بل من أجل الهواء . هناك العديد من المشاكل بالطبع ، التي تواجه الام الحديثة العهد الا أننا اخترنا هذين المثالين لانهما يضيفان ودلائل أكيدة على كون الثديين مؤشرات جنسية قوية أكثر من كونهما أجهزة مصنعة للحليب . إن شكلهما المستدير الصلب هو الذي يسبب هذه المشاكل . وكل ما على المرء هو أن ينظر إلى تصميم الحلمة الصناعية على الزجاجة ليرى كيف انها تعمل بشكل أفضل مما يعمله ثدي الام . إنها ـ أي الحلمة الصناعية ـ أطول ولاتنتفخ بالشكل النصف الذائري كما يحدث للثدي الذي يسبب الصعوبات لفم

الطفل وانفه انها أقرب في تصميمها إلى تصميم حلمة انثى الشامبانزي من حلمة انثى البشر . إن لأنثى الشمبانزي ثديين يتفجان قليلاً ولكنهما أثناء الرضاعة يصبحان منبسطتين بالمقارنة مع الثدي المتوسط لانثى البشر . فالحلمتان عند الشامبانزي أطول وأبرز من حلمة انثى البشر مما ييسر عملية الامتصاص لصغيرها . وبما أن انثى البشر تعاني أعباء الرضاعة وبما أن الثديين بالطبع ، هما جهاز الارضاع ، تبادر إلى ذهننا خطأ أن بروز الحلمتين واستدارتهما هما جزء من الخدمات الابوية التي تقدمها إلى أطفالنا . ويبدو الآن أن هذا الافتراض خطأ وأن الثديين هما لاغراض جنسية بالدرجة الاولى أكثر من كونهما لاغراض الامومة .

لنترك موضوع الاطعام جانباً ولنتدارس الآن جانباً أو جانبين من سلوكية الام نحو طفلها في الأوقات الأخرى . ان تدليلها وممازحتها وتنظيفها لوليدها تتطلب القليل من التعليق لكن الوضعية التي تتخذها الأم في حمل طفلها على صدرها عند الراحة ، امر ملفت للنظر . ان الدراسات الامريكية قد دلت على ان ثمانين بالمائة من النساء يهدهدن ابناءهن على اذرعهن اليسرى وهن يمسكن بهم على جهتهن اليسرى من اجسادهن . ولو سئلن عن السبب في تفضيلهن هذه الوضعية لقلن ان ذلك نتيجة ان الغالبية العظمى من البشر هي من الأيامن فعندما تمسك الأم طفلها بيدها اليسرى تصبح يدها اليمين حرة الحركة . ولكن الحقيقة غير ذلك . صحيح ان هناك فارقا بين الاناث اللواتي يستعملن اليمين أو اليسار الا ان ذلك غير كاف لتفسير مقنع . وتدل الأبحاث على أن نسبة ثلاث وثمانين بالمائة من النساء اليمينيات يحملن أولادهن على الجانب الأيسر بينما ثمان وسبعين من النساء العسراوات يفعلن ذلك أيضا . وبكلام آخر فان اثنين وعشرين بالمائة فقط من الامهات العسراوات تصبح ايديهن اليمنى حرة الحركة . ويتضح لنا ان لابد من وجود تفسير آخر اقل وضوحا .

الحقيقة هي ان القلب يقع على الجهة اليسرى من جسم المرأة . فهل لصوت ضربات قلب الأم اي علاقة ؟ وبأي شكل ؟ اذا فكرنا في هذا الاتجاه لقال بعضنا انه اثناء وجود الطفل داخل احشاء امه يصبح الجنين الذي ينمو متآلفا مع صوت ضربات

قلب امه . فاذا صحّ هذا الأمر فان اكتشاف الوليد لصوت ضربات قلب امه المألوف لديه ، يصبح ذا تأثير مهدىء له خاصة وقد اقحم في عالم خارجي وجديد ومخيف له فاذا كانت الأمور كذلك اذا يمكن اعتبار ان الام تلجأ بطريقة غريزية او لا شعورية او عن طريق المحاولة والخطأ ، الى اكتشاف ان وليدها يهدأ اذا ماحملته وضمته الى الجهة اليسرى من صدرها ـ اي جهة القلب .

قد يبدو الأمر صعب التصديق لكن الاختبارات اجريت ودلت ان ذلك هو التفصيل الصحيح . لقد عرضت مجموعة من الاطفال المولودين حديثا في مستشفى ، الى تسجيل لصوت ضربات قلب ولمدة كامنة وبنسبة (٧٢) خفقة قلبية بالدقيقة . وكان هناك أمام كل مجموعة تسعة اطفال فوجد أن واحدا أو أكثر منهم كان يبكي لمدة ستين بالمائة من الوقت المحدد عندما لم يكن الصوت المسجل مفتوحا الا ان هذا الرقم انخفض الى ثمان وثلاثين بالمائة عندما اعيد فتح الصوت المسجل ، لقد دلت هذه الاختبارات على ان الاطفال الذين خضعوا لها قد اكتسبوا وزنا جسميا اضافيا اكثر من الذين لم يخضعوا لهذه الاختبارات بالرغم من تناول كل من الفريقين كمية الطعام نفسها ويتضح لنا ان المجموعة التي لم تخضع لهذا الاختبار قد استهلكت الكثير من طاقاتها كنتيجة للنشاط الحيوي الذي رافق بكاؤ ها .

لقد اجرى اختبار آخر لكنه هذه المرة على اطفال اكبر قليلا من اصحاب الاختبار السابق ، قد اجرى الاختبار في فترة التوجه الى النوم .

وقد تركت غرفة احدى المجموعات ساكنة بينما اطلق صوت هدهدات الاطفال من مسجلة في غرفة المجموعة الثانية ثم اطلقت اصوات تكتكة بسرعة (٧٢) تكتكة في الدقيقة أي بسرعة ضربات القلب نفسها . كما اطلق صوت ضربات القلب ذاته من مسجلة في غرفة ثالثة ، ثم تحققوا من التجربة ليروا ايا من المجموعات نامت قبل غيرها ، وقد وجدوا ان المجموعة التي سمعت ضربات القلب نفسه قد غطت في نوم عميق واستغرقت نصف الوقت الذي استغرقته اي من المجموعات الاخرى . ان هذه

الاختبارات لا تثبت فقط الفكرة القائلة بان صوت ضربات القلب له تأثير فعال على الاطفال بل انها تدل على ان تجاوب الاطفال معها هو تجاوب رئيسي ونوعي . اما اصوات تقليد ضربات القلب التي استخدمت فلا جدوى منها على الاقل بالنسبة للاطفال الاكبر سنا .

لذا يبدو اكيدا ان هذا هو التفسير الصحيح لحمل الام لطفلها على جهة جسمها اليسرى . ومما يجدر الاهتمام انه من بين (٤٦٦) لوحة لمدونا يعود تاريخها الى بضع مئات من السنين . هناك (٣٧٣): لوحة يظهر فيها الطفل محمولا على جهة الصدر اليسرى . ان هذا الامر يتنافى مع الملاحظات التي كونت عن النساء اللواتي يحملن الصرر حين وجد ان خمسين بالمائة يحملن الصرر على جهة اليسار والخمسين الباقيات يحملنها على جهة اليمين .

والان اية نتائج اخرى نستخلصها من الانطباعات التي تتركها ضربات القلب ؟ قد يفسر الامر مثلا بقولنا لماذا نصر على جعل موقع المشاعر هي في القلب وليست في الرأس . وكما تقول الاغنية «لابد لك من قلب» . وقد يفسر الامر لماذا تهدهد الامهات اطفالهن لتنويمهم . ان عملية الهدهدة تستغرق سرعة ضربات القلب نفسها ولربما تذكر هذه الهدهدة الطفل بضربات قلب امه المنتظمة التي الفها وهو في رحمها .

ان الامر لا يتوقف هنا بل يتعداه الى سن البلوغ . ويبدو أن هذه الظاهرة ترافقنا في مسيرة حياتنا . فنحن نذرع الارض جيئة وذهابا عندما نكون في حالة الازمات . راقب حركات المحاضر أو الخطيب بعد ان يكون قد تناول طعام الغذاء تجده يتأرجح أو يهتز بين طرف وآخر ثم ادرس سرعته بسرعة ضربات القلب . ان عدم ارتياحه من مقابلة الجمهور تؤدي به الى اتخاذ حركات جسدية تواسيه في هذه الظروف لذا يحن الى صوت ضربات القلب القديمة التي تآلف معها ايام كان في رحم امه .

وحيثما تجد نفسك في وضع غير مستقر فمن المرجح انك ستلجأ الى حركات مواسية كبديل لضربات القلب المنتظمة . وليس من قبيل الصدفة ان يكون لموسيقى الريف ورقصه في معظم الاحيان إيقاع متباعد . وهنا ايضا نجد ان الاصوات والحركات تقود من يقوم بهما الى عالم الرحم الآمن . وليس من قبيل الصدفة ايضا ان موسيقى المراهقين قد سميت بموسيقى المدهدة(Rock Uusic) ولقد اتخذت هذه الموسيقى مؤخرا اسما جديدا ـ فدعيت بموسيقى الايقاع(Beat Music) بماذا وعماذا يتغنون؟ «ان قلبي مفجوع» ، «لقد اعطيت قلبك الى اخرى» ، أو«ان قلبي لك» .

ان هذا الموضوع يثير اهتمامنا كما يسحرنا لكن يجب الا نخرج كثيرا عن المسألة الرئيسية للسلوك الابوي . كنا حتى الآن ، نبحث في سلوك الأم نحو طفلها . لقد رافقناها من لحظات الولادة الرهيبة حتى في لحظات اطعامها لصغيرها ومواساته . وعلينا الآن ان نلتفت الى الطفل نفسه ونتدارسه بينما يأخذ في النمو .

ان الوزن المتوسط للطفل عند الولادة هو مايزيد عن ثلاثة كيلوغرامات بقليل وهو مايزيد بقليل عن ١/ ٢٠ واحد من عشرين جزء من الوزن الوسطي لاحد الابوين . ان عملية النمو سريعة اثناء السنتين الاوليتين من حياته وتبقى متسارعة بشكل معقول خلال السنوات الأربع التالية . وبعد سن السادسة يبدأ نموه يتباطأ بشكل ملحوظ . ان هذا الطور من النمو التدريجي يستمر حتى سن الحادية عشرة لدى الصبيان وسن العاشرة لدى البنات . بعد ذلك وعند البلوغ يبدأ النمو المفاجيء ، ثم يلاحظ نمو متسارع من سن الحادية عشرة حتى سن السابعة عشرة لدى الصبيان ومن سن العاشرة حتى سن الخامسة عشرة لدى البنات . وبسبب بلوغهن المبكر نسبيا تسبق الفتيات الصبيان بين سن الحادية عشرة والرابعة عشرة ولكن الصبيان يتجاوزونهن ثانية ويبقون في المقدمة عند هذه النقطة .

أما نمو الجسم لدى الفتيات فينتهي في سن التاسعة عشرة تقريبا أما الصبيان ففي سن اعلى بكثير اي في الخامسة والعشرين تقريبا . فالسن الاولى تبدأ بالظهور في

الشهر السادس او السابع تقريبا وتكتمل اسنان الحليب عادة في نهاية السنة الثانية او منتصف الثالثة . أما الأسنان الدائمة فلا تبدأ الا في سن السادسة ولكن «اسنان العقل» لا تظهر عادة حتى سن التاسعة عشرة تقريبا .

يقضي الاطفال المولودون حديثا وقتا طويلا في النوم . ويقال عادة ان الاطفال يستيقظون لمدة ساعتين تقريبا في اليوم الواحد وذلك في الاسابيع الاولى من ولادتهم . الا ان ذلك غير صحيح . انهم يشعرون بنعاس ولكن ليس بهذه الشدة . وقد دلت الدراسات على ان متوسط فترة النوم لديهم اثناء الايام الثلاثة الاولى هي (١٦,٦) ساعة من كل (٢٤) ساعة . ويختلف الافراد في متوسط فترة شعورهم بالنعاس . فاعلى نسبة هي (٢٣) ساعة من اصل (٢٤) ساعة بينما فترة اليقظة لديهم هي (١٠,٥) ساعة .

أما اثناء الطفولة فان نسبة النوم واليقظة تتقلص تدريجيا حتى اذا ماوصل المرء الى سن البلوغ تصبح الست عشرة ساعة الوسطية مجرد ثماني ساعات فقط . ويتباين الافراد ايضا حتى في عدد الثماني ساعات للنوم . فان نسبة اثنين في المائة يكتفون بخمس ساعات نوم فقط ونسبة اثنين آخرين يحتاجون عشر ساعات . اما الاناث البالغات فيتطلبن وقتا اطول للنوم من الذكور البالغين .

ان الست عشرة ساعة اليومية التي يتطلبها الطفل الوليد لا تحدث في فترة طويلة من الليل بل هي تتجزأ الى عدد من فترات النوم القصيرة المنتشرة في الاربع والعشرين ساعة من اليوم . وحتى منذ لحظة الولادة هناك ميل لدى البشر إلى النوم في الليل أكثر من النهار . وبالتدريج وبانقضاء الاسبوع الأول تصبح فترات النوم الليلية اطول حتى تسيطر على ساحات النوم بأكملها . يأخذ الطفل الآن عدد من الغفوات القصيرة أثناء النهار ونوماً واحداً طويلاً أثناء الليل. ان هذا التغيير يجلب معه متوسط النوم اليومي الى اربع عشرة ساعة في سن الستة اشهر . وفي الاشهر التي تلي ، تقل تلك الغفوات القصيرة الى اثنتين ـ واحدة في الصباح واخرى في فترة مابعد الظهر . وفي السنة الثانية تختفي الغفوة الصباحية وتجعل متوسط النوم بذلك ثلاث عشرة ساعة يومياً

وفي السنة الخامسة تختفي غفوات مابعد الظهر ايضا مقللة بذلك الرقم الى اثنتي عشرة ساعة يومياً . ومن هذه المرحلة وحتى سن البلوغ هناك انخفاض مقداره ثلاث ساعات في متطلبات النوم لدرجة أن المرء في سن الثالثة عشرة يخلد الى النوم لمدة تسع ساعات فقط . ومن هنا وحتى سن المراهقة لايبدو أي اختلاف بين سلوكية الأولاد وسلوكية البالغين تماماً فلا يخلدون الى النوم اكثر من ثماني ساعات في المتوسط . ان النظام النهائي للنوم اذن يتمشى مع البلوغ الجنسي بدلاً من البلوغ الفيزيولوجي .

ويجدر بالاهتمام هنا أن الأولاد الأذكياء يميلون الى النوم بشكل اقل من الأولاد الأقل ذكاء وذلك في الفترات التي تسبق انضمامهم الى المدرسة . وبعد سن السابعة تنعكس هذه الظاهرة ويصبح أولاد المدارس الأذكياء يميلون الى النوم أكثر من الأولاد الأقل ذكاء . وفي هذه المرحلة قد يبدو أنه بدلا من زيادة التعلم عن طريق اليقظة الطويلة ، يجبر الأولاد على التعلم الكثير لدرجة أننا نجد أن الأولاد الأكثر تجاوباً يستهلكون في نهاية اليوم . أما بين البالغين فالأمر على نقيض ذلك اذ يبدو أن لا علاقة بين الذكاء ومعدل فترة النوم .

فالزمن الذي يستغرقه الذكور ومتوسطه عند الاناث من جميع الأعمال للشروع في النوم هو عشرون دقيقة . ويجب أن يكون الاستيقاظ آنياً . ان الحاجة الى جهاز اصطناعي للايقاظ يدل على أن فترة النوم لم تكن كافية وان الفرد سيعاني من جراء ذلك ومن جراء اليقظة القسرية .

واثناء فترات اليقظة فالوليد يتحرك تحركا قليلا نسبيا . وعلى عكس الرئيسيات الأخرى فان عضلاته غير متطورة تطورا جيدا . فالسعدان الفتي يستطيع ان يتعلق باحكام بأمه من لحظة الولادة . وحتى انه يستطيع ان يتعلق بفرائها بينما هو لا يزال خاضعا لعملية الولادة من رحم امه . اما نحن البشر فعلى العكس من ذلك فان الوليد لا حول له ولا قوة ولا يستطيع القيام الا بحركات تافهة بذراعيه وساقيه . ولا يستطيع ان يرفع ذقنه الى الأعلى حين يكون مستلقيا على بطنه الا بعد مرور شهر على ولادته .

وفي انتهاء الشهرين يستطيع ان يرفع صدره ، وفي الشهر الثالث يستطيع الوصول الى الأشياء المعلقة . وفي الشهر الرابع يستطيع الجلوس بمساعدة والدته . وفي الشهر الخامس يستطيع الجلوس في حضن امه ويستطيع امساك الاشياء بيديه . وفي الشهر السادس يستطيع الجلوس في كرسي عالٍ والامساك بالأشياء المتدلية . وفي الشهر السابع يستطيع الجلوس بمفرده دون مساعدة . وفي الشهر الثامن يستطيع الوقوف بمساعدةالام. وفي الشهر التاسع يستطيع الوقوف باستناده على أثاث البيت. وفي الشهر العاشر يستطيع الزحف على الأرض على يديه وركبتيه . وفي الشهر الحادي عشر يستطيع المشي بمساعدة الوالدين . وفي الشهر الثاني عشر يستطيع ان يجر نفسه للوقوف مستندا الى الاشياء الصلبة . وفي الشهر الثالث عشر يستطيع تسلق مجموعة من الدرجات . وفي الشهر الرابع عشر يستطيع الوقوف بنفسه دون مساعدة اي شيء . وفي الشهر الخامس عشر تأتي اللحظة العظيمة التي يستطيع فيها اخيرا المشي بمفرده دون مساعدة . (ان هذه بالطبع متوسطات الامور الا انها تعطي فكرة واضحة عن نسبة تطور الانسان من حيث الحركة وانتصاب القامة) .

وعند النقطة التي يبدأ الطفل معها المشي دون مساعدة تقريبا يبدأ ايضا نطق اولى كلماته ـ بضع من الكلمات البسيطة في البداية ولكن سرعان ماتنمو حصيلته من المفردات بنسبة مذهلة . وعندما يصل الى سن الثانية يستطيع الطفل الوسطي ان يتكلم ثلاثمائة كلمة تقريبا .

وعند بلوغه الثالثة من عمره يكون قد تكوّن لديه ثلاثة أضعاف مفرداته السابقة وفي سن الرابعة تكون حصيلته الف وستمائة كلمة وفي سن الخامسة يكون لديه الفان ومائة كلمة ان هذه النسبة المذهلة في التعلم الشفوي ينفرد بها جنسنا البشري بين الرئيسيات لابل يعد ذلك اكبر الانجازات . ان ذلك مرده كما رأينا في الفصل الأول الى الحاجة الملحة لتأمين الاتصال مع الآخرين بغرض التعاون على الصيد . ان هذا الامر لاشبيه له لا من قريب ولا من بعيد بين اقرباءنا من الرئيسيات . ان الشمبانزي ذكي مثلنا وسريع في التقليد الا انه لا يستطيع التقليد الشفوي . لقد قامت تجربة

الشيء ذاته لدى جميع الأمم فالصراخ والضحك والأنين والبكاء المنتظم والنحيب ينقل الرسالة نفسها الى كل امرىء وفي كل مكان . فهي كأصوات الحيوانات الأخرى ، تتعلق بالمزاج الشعوري الأساسي وتعطينا انطباعاً مباشراً عن دوافع الشخص الذي يصدر مثل هذه الأصوات . وبالطريقة ذاتها حافظنا على تعابيرنا الفطرية كالابتسامة والعبوس والضحك والحملقة والوجه الفزع والوجه الغاضب . ان هذه الأمور شائعة بين جميع الأمم والمجتمعات وتستمر رغم كل مكتسباتنا من الايماءات الثقافية .

انه ليدهشنا ان نرى كيف ان هذه الأصوات والتعابير الوجهية التي يختص بها البشر قد تأصلت أثناء فترة تطورنا المبكرة . فالبكاء الايقاعي هو (كما يعلم جيدا) حاضر منذ الولادة . أما الابتسام فيتأخر حتى مايقارب الاسبوع الخامس . والضحك لا يظهر حتى الشهر الثالث أو الرابع . والآن يجدر الاهتمام بهذه النماذج من السلوك.

ان البكاء ليس هو المؤشر المزاجي الوحيد والمبكر الذي ننقله الى الآخرين فحسب بل هو المؤشر الأساسي . أما الابتسام والضحك فهما مؤشران فريدان ومتخصصان إلا أننا نشترك بالبكاء مع آلاف الأنواع الأخرى من الحيوانات . وتكاد تكون كل الثدييات (بالاضافة الى الطيور) تصدر صيحات عالية جدا وزعيقا عندما تكون خائفة أو متألمة . وبين الثدييات العليا حيث تطورت لديها التعابير الوجهية الى مؤشرات بصرية ، يصحب رسائل الأخطار هذه خصائص الخوف الوجهية . ان هذه التجاوبات سواء أكان يطلقها الحيوان الفتي أم البالغ تعني ان شيئا ما خطيرا سيقع . فالحيوان الفتي يخطر والديه والبالغ يخطر الأعضاء الأخرى من مجموعته .

ان عددا من الأمور تجعلنا نبكي عندما نكون صغارا . فنحن نبكي مثلا ان كنا متألمين أو جائعين أو ان تُركنا لوحدنا أو واجهنا مؤشرات غريبة وغير مألوفة أو فقدنا فجأة دعمنا الجسدي أو أننا أعقنا في تحقيق هدفنا . تعود هذه الأمور الى عاملين هامين : الألم الجسدي أو فقدان الأمان . ففي كلتا الحالتين ، اذا اصدر المؤشر فانه يحدث (او يجب ان يحدث) تجاوبا امنيا لدى الوالدين . فاذا فصل الولد عن والديه في

مرهقة وجادة في تعليم شمبانزي يافع الكلام الا ان هذه التجربة اعطت نتائج محدودة النجاح . لقد ربّي هذا الحيوان في منزل وتحت ظروف مماثلة لتربية طفل بشري .

وعن طريق (المحاولة والمكافأة) حاولوا طويلا اقناع الشمبانزي باستخدام شفتيه لنطق كلمات بسيطة . وعندما بلغ سن السنتين والنصف استطاع الحيوان ينطق كلمة (بابا) و (ماما) وكلمة (cup أي فنجان) . وفي النهاية استطاع ان ينطق هذه الكلمات في مجالها الصحيح هامسا كلمة (cup) عندما يريد شراب الماء . لقد استمرت هذه التجارب المضنية ، وعند وصوله الى سن السادسة (اي السن التي يكون فيها طفلنا البشري قد حقق معرفة مايزيد عن الفي كلمة) لم يستطع ان يحقق سوى سبع كلمات .

ان هذا التباين مرده الى العقل وليس الصوت . ان للشامبانزي جهازا صوتيا ذا قدرة على اطلاق مجموعة كبيرة من الأصوات وليس هناك أي ضعف في جهاز صوته يفسر سلوكه الأصمّ . ان ضعف الشمبانزي يتركز في جمجمته .

وعلى نقيض الشمبانزي ، هناك بعض الطيور لها قدرة صوتية مميزة . هناك طيور كالببغاء والغراب وبعض الطيور الأخرى تستطيع أن تردد جملاً طويلة إلا أنها لسوء الحظ لا تستطيع ان تستخدم هذه القدرة كما يجب . انها تقلد فقط تعاقب الأصوات التي نتعلمها ونكررها آليا في انتظام دون أي اشارة الى مدلولاتها . والشيء ذاته بالنسبة للشمبانزي والسعادين فهي لا تستطيع أن تحقق اشياء أفضل مما تفعله .

والآن لنعد ثانية الى جنسنا البشري فان آهاتنا وتأففنا وصيحاتنا وأنيننا (تشاركنا في اخراج هذه الأصوات الرئيسية الأخرى) ليس مردها الى ذكائنا المكتسب الذي يساعدنا في اطلاقها . ان مؤشراتنا الصوتية الفطرية تبقى محافظة على ادوارها الهامة .

فهي ـ أي هذه الأصوات الفطرية ـ ليست الأساس الصوتي الذي نستطيع أن نزيده فحسب بل لها كامل حقوقها في كونها اجهزة اتصال خاصة بنوعنا البشري . فهي تختلف عن المؤشرات الصوتية في كونها تنطلق دون حاجة إلى التدريب وهي تعني

لحظة اصدار المؤشر فان هذا المؤشر له تأثيره في تخفيف المسافة بين الولد ووالديه ويستمر كذلك حتى يحمل الطفل أو يهدهد أو يمسّد . فاذا كان الولد على اتصال فعلي مع احد الوالدين او اذا استمر البكاء بعد تأمين الاتصال عندئذ يفحص جسمه لمعرفة مصدر الألم . ويستمر التجاوب الأبوي حتى ينقطع المؤشر (الذي يختلف في هذا المجال ، عن مؤشر الابتسام أو الضحك) .

تتألف عملية البكاء من التوتر العضلي المصحوب باحمرار الوجه ودمع العيون وفغر الفم وبانحسار الشفتين والتنفس مع الزفير الشديد وبالطبع مع شيء من اصدار الصوت . أما بالنسبة للأولاد الأكبر سنا فان عملية الابتسامة تتضمن الركض نحو احد الابوين والالتصاق به .

لقد وصفنا هذه السلوكية بالتفصيل رغم كونها مألوفة وذلك لانها قد تطورت منها مؤشراتنا في الضحك والابتسام . وعندما يقول بعضنا «انهم ضحكوا حتى البكاء» فانهم يعلقون على علاقة الضحك والبكاء لكن بمعنى التطور فان العكس هو الصحيح - اننا بكينا حتى ضحكنا . كيف حدث ذلك ؟ انه من المهم بادىء ذي بدء أن ندرك كيف تتشابه نماذج البكاء والضحك . ان مزاجيهما يختلفان لدرجة اننا نتجاهل تشابهها . فالبكاء كالضحك يتطلب توترا عضليا وفغر الفم وانحسار الشفتين والمبالغة في التنفس والزفير الشديد . وفي الحالات القصوى يتطلب البكاء احمرارا لوجه ودمع العينين الا ان المؤشرات الصوتية ليست عالية . وعلاوة على ذلك فانها اقصر وتتعاقب الواحدة بعد الأخرى بسرعة اكبر ، كأن النحيب الطويل الذي يطلقه الطفل قد اصبح متكسرا على شكل قطع صغيرة وفي الوقت نفسه اصبح انعم واخفض صوتا .

ويبدو أن فعل الضحك قد تطور من فعل البكاء كمؤشر ثانوي . ولقد قلنا في السابق ان البكاء حاضر منذ لحظة الولادة الاان الضحك لا يظهر الا في الشهر الثالث

أو الرابع ويتوافق وصوله مع تطور تمييز الوالدين من قبل الطفل . وقد يكون الطفل الذكي هو الذي يستطيع ان يميز والده ولكن الطفل الضاحك هو الذي يستطيع ان يميز امه . وقبل انْ يتسنى للطفل ان يميز وجه امه وان يميزها من بقية البالغين ، فانه يناغي قبل مقدرته على الضحك . ومايحدث عندما يبدأ بتمييز امه هو انه يبدأ بالخوف من البالغين الغرباء . وفي سن الشهرين فان اي وجه لشخص بالغ يفي بالغرض وكل وجوه البالغين الودودة تفي بالغرض ايضا بالنسبة للطفل . ولكن مخاوفه من العالم من حوله قد تنضج ويغدو من المرجح ان اي وجه غير مألوف لديه قد يزعجه فيبدأ بالبكاء . (بعد ذلك وبمرور الزمن يتعلم الطفل ان البالغين الآخرين يمكن ان يكونوا بمثابة مكافأة له وسرعان ماتزول مخاوفه منهم ولكن هذا لا يحدث الا بطريق الاختيار والتمييز الشخصي) . وكنتيجة لهذه الانطباعات المستوحاة من الام يجد الطفل نفسه في صراع غريب فاذا فعلت امه شيئاً يذهله نجدها تلجأ الى اصدار مؤشرين متعارضين للطفل ، احدهما يقول «انا امك - حاميك الشخصي ولا حاجة لك للخوف» ، والثاني يقول «احذر - هناك شيء مخيف» . ان هذا الصراع لا ينشأ قبل معرفة الام كفرد بالنسبة للطفل وذلك لانها اذا قامت بفعل مذهل فانها ستصبح بكل بساطة مصدراً لمثير مخيف في تلك اللحظة لا اكثر وتستطيع الآن ان تصدر مؤشرا مزدوجا :

(هناك خطر ولكنه ليس بخطر) او بكلام آخر «يبدو أن هناك خطراً لكنه لا يأتي مني لذا عليك ألا تبالي به» . ان نتيجة ذلك ان يبدي الطفل تجاوبا نصفه بكاء خفيف ونصفه الاخر يدل على معرفته لوالدته . وان مناغاة تداخل التجاوبين السحري يؤدي الى الضحك .

لذا ، فالضحك يقول «لقد ميزت ذلك الخطر الذي هو ليس بحقيقي ونجد أن الطفل ينقل هذه الرسالة الى امه . الآن تستطيع الأم ان تلاعب طفلها بحيوية دون أن تجعله يبكي وان الاسباب المبكرة لضحك الأطفال تعود الى تصفيق اليدين أو تركيعه الايقاعي على ركبتيه اورفعه عاليا .

اما فيما بعد ، فان الدغدغة تلعب دورا رئيسيا لكن ليس قبل الشهر السادس ، ان هذه العملية قوامها (الصدمة) التي تؤديها الأم (الحامية) ، وسرعان مايتعلم الاطفال اثارة انفسهم بانفسهم بلعبهم لعبة «التغماية» [1] مثلا وذلك حتى يشعرون بالصدمة عند الكشف عن اصدقائهم أو الصدمة التي تأتيهم من الهرب ، حسبما تتطلبه اللعبة .

يصبح الضحك لذلك مؤشر اللعب ، اشارة إلى أن التفاعل المتداخل والمتزايد بين الولد واحد الوالدين يستطيع ان يستمر وأن يتطور . فإن كان رد الفعل مخيفاً أو مؤلماً فإن رد الفعل عندئذ سينداح الى البكاء مباشرة وإلى إثارة تجاوب الحماية . إن هذا النظام يمكن الولد من توسيع استكشافه لمقدرات جسمه وللخصائص الفيزيولوجية للعالم من حوله .

وللحيوانات الأخرى مؤشرات خاصة للعب ولكن لا قيمة لها بالمقارنة مع مؤشراتنا . فالشمبانزي مثلاً ، له خصائص وجهية خاصة للعب كما ان له قرقره خفيفة التي تعادل فعل الضحك لدينا ، فعند التحية يبرز الشمبانزي شفتيه الى الأمام ماداً إياهما حتى النهاية. وعند الخوف يقلصهما فاتحاً فاه ومظهراً أسنانه. إن التعبير الوجهي للعب يحثه شعوران : اما التحية الودودة أو الخوف فهو لذلك مزيج من الشعورين . ينفتح الفكان على مصراعيهما كما هو الحال اثناء الخوف إلا أن الشفاه تمدان الى الأمام بحيث تبقى الأسنان محجوبة . إن القرقرة الخفيفة هي منتصف الطريق بين تعبير التحية وزعيق الخوف . فإذا أصبح اللعب أكثر عنفاً تسحب الشفتان الى الخلف وتصبح القرقرة زعيقاً قصيراً وحاداً . . أما إذا أصبح اللعب هادئاً فينطبق عندئذ الفكان وتمتد الشفتان الى الأمام لدى الشمبانزي . وبشكل عام ، فالوضع هو ذاته اذاً ، ولكن القرقرة البسيطة اثناء اللعب لدى الشمبانزي هي مؤشر

---

(١) التغماية : لعبة يقوم بها الاولاد حيث يختبيء بعضهم ويلجأ البعض الآخر للتفتيش عنهم ومفاجأتهم .

تافه بالمقارنة مع الضحك الحيوي لدى البشر وكلما كبر الشمبانزي تضعف القرقرة عنده بينما يتوسع الضحك عند البشر ويكتسب أهمية أكبر في حياتنا اليومية . فالقرد العاري حتى في سن البلوغ هو قرد لعوب . ان كل ذلك يعود إلى طبيعة الانسان الاستكشافية فهو يدفع بالأمور الى حدودها القصوى محاولاً أن يذهل نفسه أو أن يصعق نفسه دون ان يؤذيها ومن ثم يؤشر لنفسه بمؤشرات الضحك المعدي معلنا الخلاص .

إن الضحك من الآخرين يمكن بالطبع ، أن يصبح سلاحاً إجتماعياً قوياً لدى البالغين أو الأولاد الأكبر سناً فهذا السلاح يعني أن المعني بالأمر قد أهين إذا اعتبر شاذاً بالنسبة للمجموعة وبالتالي لا يستحق التعامل معه جدياً . فالمهرج المحترف يتعمد تبني الادوار الاجتماعية وتدفع له المبالغ الطائلة من قبل الحضور الذين يستمتعون بتأكيده لهم أنهم أسوياء بالمقارنة مع الدور غير المألوف الذي يؤدى امامهم .

إن تجاوب المراهقين تجاه من يحبونه من المغنين أو المهرجين له علاقة بموضوعنا فالحضور يستمتعون ليس بإطلاق صيحات من الضحك فحسب بل بإصدارهم الصياح العالي . فهم لا يصرخون فحسب بل ينشدون إلى أجسام بعضهم بعضاً ، يئنون او يغطون وجوههم او يشدون شعورهم إن هذه الظواهر هي مؤشرات مألوفة في حالات الألم الشديد أو الخوف إلا أن هذه المؤشرات قد اعتمد استخدامها في هذه الظروف ولم تعد صيحات نجدة بل مؤشرات يتناقلونها من واحد إلى آخر من الحضور وهي تعني ان الحضور قادر على الاحساس بالتجاوب العاطفي مع من يحبه من المغنين او المهرجين فهؤلاء المغنون يثيرون حضورهم بمؤشرات ذات شدة عالية مما يؤدي بالحضور الى الانسياق الى عالم الالم المحض فإذا الفتاة المراهقة وجدت نفسها وحيدة فجأة في حضور احد الذين تحبهم من المغنين فلن يخطر ببالها ان تصرخ في وجهه فالصراخ ليس موجهاً له بل موجهاً الى بقية الفتيات من الحضور . فبهذه الطريقة تستطيع الفتيات المراهقات ان يأكدن لبعض تطور التجاوب العاطفي لديهن .

وقبل أن يترك موضوع الدموع والضحك هناك غموض آخر علينا توضيحه . ان بعض الامهات يعانين من تزايد بكاء اطفالهن اثناء الأشهر الثلاثة الاولى من ولادتهم . ولا شيء يفعله الأبوان يصلح لتخفيف حدة بكائهم . فهما - أي الأبوان - يستنتجان ان هناك شيئاً جذرياً ، شيئاً فيزيولوجياً لا يسير على ما يرام لدى

أطفالهما يؤدي بهم الى البكاء لذا يلجأ الآباء إلى معالجتهم على هذا الأساس . انهم على حق طبعاً ، باعتبار ان هناك شيئاً فيزيولوجياً يعاني منه اطفالهم . ولكن بما أن مردّ ذلك إلى السبب وليس المسبب . وان اللغز وراء بكاء هؤلاء الأطفال يتضح عندما ينقطع وكأنه يفعل السحر في الشهر الثالث او الرابع . ان هذا البكاء يختفي حتماً في اللحظة التي يبدأ فيها تمييز أمه كفرد معروف . إن مقارنة سلوك الأم مع طفلها الباكي وسلوك أم أخرى مع طفلها الهادىء ، تعطينا الاجابة فالأولى ام عصبية المزاج وقلقة في معاملتها مع طفلها بينما الأخرى هادئة ومسالمة . القضية هي ان الطفل حتى وهو في هذه السن الحديثة ، واعٍ تماماً بإحساسه للاختلاف بين الطمأنينة وعدم الطمأنينة مما يتلقاه من أمه . فالأم لا تستطيع ان تتجنب مؤشرات انزعاجها من وليدها . والطفل بدوره يؤشر لها كرد عليها طالبا حماية أكثر تجاه سبب انزعاج أمه . وكلما زاد مؤشر الطفل كلما زاد انزعاج الأم الذي يزيد من بكاء الطفل بدوره ، وبالنتيجة فالطفل المسكين يؤدي جسده من شدة بكائه فيضاف ذلك الى الحصيلة الاجمالية من شقائه وكل ما هو ضروري بالنسبة للأم في كسر طوق هذه السلسلة المزعجة من بكاء الطفل هو ان تتقبل الوضع وان تهدىء من اعصابها لنفسها حتى ولو لم تفلح في ذلك (يكاد يصعب الضحك من الطفل في هذا المجال) فإن المشكلة ستحل ذاتها بذاتها كما سبق وقلنا حين بلوغه الشهر الثالث او الرابع لانه سينطبع غريزياً بانطباع امه ويبدأ غريزيا ايضاً بتجاوب معها على اساس انها «الحامية» له فهي لم تعد بالنسبة له مثيرات مزعجة بل وجهاً مألوفاً واذا استمرت على ابداء مثيرات تزعجه تجاهه فهو لا يعود يتأثر بها او ينزعج منها بسبب ان هذه المثيرات آتية من مصدر معروف وودود تجاهه . ان الرابط الذي ينشأ بين الطفل وامه يهديء من اعصاب الأم ويخفف آلياً من قلقها وتختفي نوبات البكاء .

لقد غضضنا النظر حتى الآن عن مسألة الابتسام وذلك لأنها تتجاوب أكثر تخصصا عن الضحك ، وكما ان الضحك شكل ثانوي للبكاء فالابتسام ايضاً شكل ثانوي للضحك قد يبدو للوهلة الاولى ان الابتسام نسخة مصغرة عن الضحك ولكنه في الواقع ليس بهذه البساطة . صحيح أن الضحك الخفيف لا يميز بينه وبين الابتسام ولكن اثناء التطور الانساني تحرر الابتسام من الضحك ويجب ان نعتبره الآن ذا كيان منفصل . إن الابتسام الشديد أو الابتسام المشرق يختلف تماماً عن الضحك الشديد .

لقد أصبح الابتسام مؤشراً متخصصاً بالتحية عند البشر . فإن حيينا احدا بابتسامة فإنه يعلم أننا مترددون نحوه ولكن ان حييناه بضحكة فله الحق عندئذ ان يشك في سلوكنا تجاهه .

إن أفضل اتصال إجتماعي هو ذلك الذي يثير الحذر الخفيف . ان سلوك الفرد الآخر في لحظة اللقاء غير مقدر الابعاد . فكل من الضحك والابتسام يعنيان وجود هذا الحذر مع اشتراكه مع احساسات الجاذبية والقبول . ولكن عندما يتطور الضحك ليصبح أكثر شدة فإنه يشير الى استعداده لقبول موقف آخر او استغلال وضع «الخطر الآمن» ومن جهة أخرى لو أن التعبير المصحوب بالابتسام قد تطور الى ابتسامة عريضة فإنه يشير الى ان الوضع الجديد يجب الا يمتد في هذا الاتجاه . إنه يعني ببساطة ، ان المزاج المحرّض هو غاية في حد ذاته دون حاجة الى تكثيف حيوي . ان الابتسام المتبادل بين المبتسمين يؤكد لكليهما انهما في وضع ذهني خائف قليلاً ولكنهما ينجذبان الى بعضهما بشكل متبادل . إن كون المرء مخيفاً قليلاً يعني كونه غير عدائي وكونه غير عدائي يعني كونه ودوداً وبهذه الطريقة يتطور الابتسام ويصبح جهاز جاذبية ودودة .

لماذا اذا احتجنا إلى هذا المؤشر ، نجد ان الرئيسيات الأخرى تستطيع الاستغناء عنه ؟ ان للرئيسيات الاخرى ايماءات ودية متعددة إلا أن الابتسام شيء اضافي لدينا وله اهمية كبرى في حياتنا اليومية سواء أكنا صغاراً أم بالغين. إذا ما ذا في طراز وجودنا جعله بهذه الأهمية ؟ ان الاجابة على ذلك ، على مايبدو تكمن في جلدنا العاري . فعندما يولد القرد الصغير يتعلق بفراء امه ويبقى ساعة بعد

ساعة تقريباً على هذه الحال . وقد تطول الفترة عدة اسابيع او اشهر وهو لا يفارق فراء امه الذي يؤمن له الحماية ولكن بعد ذلك ، وعندما يتركها لينطلق بذاته للمرة الاولى نجده يعود اليها يتعلق بها ثانية ان له طريقته الايجابية في تامين اتصاله الجسدي وحتى لو كانت الام لا ترحب بهذا الاتصال (اذ ان الصغير يزداد نمواً وثقلاً) فإنها تلاقي الصعوبات في زجره إن أي امرىء يتبنى شمبانزي صغيراً يستطيع ان يتحقق من هذا الامر .

بينما نحن البشر نصبح في وضع اخطر بكثير عند ولادتنا ، فلسنا ضعفاء جداً فحسب لنتعلق بأمهاتنا بل ليس هناك ما نتعلق به . وبما أنه ليس لدينا الوسائل الآلية لضمان التصاقنا بأمهاتنا فلا بد لنا اذاً ، من الاعتماد كلية على المؤشرات التي تأتينا من امهاتنا .ـ فنحن نصرخ بأعلى ما يمكننا حتى نحصل على اهتمام الأم . ومتى حصلنا على هذا الاهتمام نعمل على الحفاظ عليه . ان صغير الشمبانزي يفعل الشيء ذاته وتلحق به امه وتنتشله الى صدرها وفي الحال نجد الصغير قد تعلق بها ثانية هذه اللحظة هي التي تحتاج فيها الى بديل عن هذا التعلق ـ اي الى نوع من المؤشرات التي تكافىء الام وتجعلها راغبة في البقاء معنا . وهذا المؤشر الذي نستخدمه هو الابتسامة .

إن الابتسام يبدأ اثناء الاسابيع الاولى القليلة من مولدنا ولكننا لا نستخدمه تجاه اي شيء معين . ولكن في غضون الاسبوع الخامس تقريباً فهو يصدر كتعبير عن رد فعل محدد تجاه مؤثر ما . إن عيني الطفل الآن تستطيعان التثبيت في شيء ما في البداية تتجاوب العينان مع عينين محدقتين فيه حتى ان بقعتين سوداوين على قطعة كرتون تفيان بهذا الغرض . وكلما مرّت الأسابيع يصبح وجود الفم ضرورياً . بقعتان سوداوان مع خط تحتهما تغدوان الآن أكثر فعالية للحصول على التجاوب . وسرعان ما يصبح تعريض خط الفم أمراً حيوياً ومن ثم تبدأ العينان تفقدان قيمتهما كمؤثر رئيسي في هذه المرحلة ، اي في الشهر الثالث او الرابع تقريباً . ويصبح التجاوب أكثر تحديدا ويضيق هذا التجاوب الذي كان يحدث مع أي وجه قديم ليتم الآن مع وجه الأم بالتحديد . فلقد بدأ انطباع احد الوالدين يأخذ محله لديه .

إن الأمر المذهل حول نمو رد الفعل هذا هو ان الطفل غير قادر على تمييز الاشياء ذات الأشكال الهندسية كالمربع او المستطيل وذلك أثناء نموه . ويبدو الأمر وكأن هناك تقدماً خاصاً في مقدرة الطفل على تمييز محدود لملامح بشرية - بينما تبقى الأشياء المرئية الأخرى متخلفة ان هذا الامر يؤكد ان بصر الطفل سيرسو على نوع معين من الأشياء . فهو اي الطفل - سيتجنب اخذ اي انطباع عن اشكال لا عضوية قريبة منه .

وعندما يصل الطفل الى الشهر السابع يصبح مطبوعاً بسلوك امه كلية . وما تفعله الأم الآن سيبقى مطبوعاً على طفلها حتى نهاية حياته . وصغار البط تحقق ذلك ايضاً ، عن طريق السير وراء امها وصغار القرود تتعلق بامها كذلك . أما نحن فمنظور ارتباطنا بأمهاتنا عن طريق التجاوب المصحوب بالابتسامة .

ولكون الابتسامة مؤشراً مرئياً فلقد حافظت على وضعها الفريد بمجرد رفع زوايا الفم بشكل رئيسي وتسحب الشفاه الى الخلف كما هي الحال عند الخوف لكن بزيادة لف الشفاه الى الأعلى . ويتغير شكل التعبير جذرياً . ان هذا التطور ادى بدوره الى امكانية وضعية وجهية اخرى مناقضة أي التفاف الفم نحو الأسفل . وحين تبين وضعية الفم المناقضة تماماً لشكل الابتسام في المحتمل ان يكون التعبير عكس الابتسام . وتماما كما تطور الضحك من البكاء ، والابتسام من الضحك ، كذلك تطور الوجه العدائي من الوجه الودود كتأرجح النواس .

لكن هناك أكثر من مجرد الشكل بالنسبة للابتسام فنحن كبالغين ، نستطيع ان ننقل مزاجنا بمجرد لف الشفاه ولكن الطفل يقذف بكل ما يستطيع في المعركة . فهو - اي الطفل - عندما يبتسم كل الابتسام ويلوح بذراعيه ماداً يديه ويصدر اصواتاً ويميل برأسه الى الخلف ويهز ذقنه وينهض بصدره الى الامام او انه يلتفت بجسمه اويبالغ في تنفسه وتصبح عيناه أكثر اشعاعاً وقد يغلقهما قليلاً ، وقد تبدو التجاعيد تحت عينيه واحياناً على انفه . ان ثنايا جلد انفه واطراف فمه تصبح بارزة كما يبرز لسانه قليلاً ، إن حركات الجسم المتعددة هذه تبدو وكأنها عبارة عن صراع يقوم به الطفل ليؤمن

الاتصال مع والدته وعلى الرغم من ضعف جسمه إلا أنه يحاول ان يظهر لنا شيئاً من بقايا الخصائص الرئيسية لا جداده في رغبته التعلق بوالدته .

لقد أكثرنا الحديث عن ابتسام الطفل لكن الابتسام في الواقع ، مؤشر مزدوج . فعندما يبتسم الطفل لأمه فإنها تتجاوب معه بمؤشر مماثل ، وكل ابتسام يكافىء الآخر ويقوي بذلك الارتباط بينهما . قد يبدو ذلك امراً بديهياً لكن قد تحدث فجوة في تبادل الابتسام بين الطفل وامه ، إذ تلجأ بعض الامهات حين يكنّ مزعوجات او قلقات على اطفالهن الى اخفاء مزاجهن بالتظاهر بالابتسام . وهن يأملن بذلك الا يظهر القلق على وجوههن خشية ان يزعجن اطفالهن . ولكن هذه الحيلة قد تسبب ضررا أكثر من النفع . لقد ذكرنا في السابق انه يكاد يستحيل ان نستغفل الطفل في موضوع مزاج الأم . ففي السنين المبكرة في حياتنا نبدو وكأننا نتجاوب مع المؤشرات الابوية الهادئة او المزعجة بشكل دقيق جداً . وفي المرحلة التي تسبق مرحلة الافصاح الصوتي ، وقبل تكوّن الاتصال الروزي التعليمي ، فإننا نعتمد على الحركات البسيطة وعلى تغيرات في نبرة الصوت أكثر مما نحتاجه في حياتنا المتقدمة . أما الانواع الأخرى من الحيوانات فتعتمد بشكل خاص على الحركات وتحديدها . إن القدرة المدهشة للحصان (هانس) ذلك الحصان الحاسب ، تعتمد على تجاوبه الدقيق مع التغيرات الحركية الدقيقة المدربة فهو عندما يطلب اليه ان يقوم بعملية الجمع فإنه يضرب بقدمه عدداً صحيحاً من المرات ثم يتوقف فإذا غادر مدربه الغرفة واحتل مكانه شخص آخر فإنه يتجاوب معه ايضاً . اننا جميعاً نملك هذه المقدرة حتى في سن البلوغ (ان هذا التجاوب يستخدمه قارؤ وا البخت ليحكموا فيما اذا كانوا يسيرون في الطريق الصحيح) ولكن يبدو ان تجاوبنا هذا يكون على اشده في الفترة التي تسبق مرحلة الافصاح الصوتي . فإذا قامت الام بحركات متوترة او مزعجة فإنها تنقلها الى طفلها مهما اخفتها . فإذا ابتسمت في الوقت نفسه ابتسامة عنيفة فإنها لا تستطيع ان تخدع الطفل بل تربكه فقط . هناك رسالتان مبثوثتان فإن تمادت الام في تصرفها مع طفلها على هذا النمو فإنها ستسبب له الكثير من المشاكل عندما يضطر الى إجراء الاتصال بالآخرين يوماً ما .

بعد ان نترك موضوع الابتسام علينا الآن ان نلتفت الى نشاط آخر مختلف جداً ، يبدأ بالظهور نموذج جديد من السلوك بمرور الأشهر : يبدأ العداء بالظهور على المسرح . فالنوبات المزاجية والبكاء الغاضب يبدآن بالانعتاق من البكاء المتعدد الاغراض . فالطفل يعبر عن عدائيته عن طريق الصراخ المتكسر وغير المنتظم وعن طريق الحركة بساقيه وذراعيه . انه يهاجم الاشياء الصغيرة وبهذه الاشياء الكبيرة ويبصق ويحاول العض او الخدش او ضرب اشياء تقع في طريقه . وفي البداية تكون هذه النشاطات إعتباطية وغير منسّقة . فالبكاء يعني ان الخوف ما زال موجوداً ان العداء لم يكتمل بعد الى المرحلة التي تؤدي إلى الهجوم . إن هذا الامر يأتي متأخراً عندما يثق الطفل بنفسه او يصبح واعياً تماماً لطاقاته الفيزيولوجية . وعندما ينمو الطفل تصبح لديه مؤشرات وجهية خاصة ، ان هذه المؤشرات تتألف من الحملقة وشد الشفاه . تشد الشفاه وتصبح زوايا الفم مدفوعة الى الامام بدلا من الخلف . والعينان تحدقان بإمعان بالخصم والحاجبان في شكل تقطيب . لقد بدأ الطفل يتثبت من نفسه .

لقد اكتشف ان هذه العدائية تزداد بازدياد كثافة عدد الاولاد ضمن المجموعة تحت ظروف الازدحام فإن التعامل الاجتماعي الودود يخف بين اعضاء المجموعة بينما يزداد حجم العداء وشدته بين الاطفال. ان هذه الظاهرة واضحة عند الحيوانات فهي اذ تتقاتل فليس بسبب الهيمنة فحسب بل لزيادة رقعه الارض الخاصة بكل فرد منهم ولسوف نعود الى هذا الموضوع في الفصل الخامس .

بالاضافة إلى عملية الحماية والاطعام والتنظيف واللعب مع اطفالنا فإن واجباتنا الابوية تتضمن ايضاً عملية تدريبهم الهامة كما هي الطريقة المتبعة مع الحيوانات ، اي طريقة العقاب والمكافأة التي مهمتها تعليم الصغار بواسطة نظام المحاولة والخطأ ، كذلك هي طريقة تعلم اطفالنا لكن الأطفال يتعلمون بسرعة عن طريق التقليد ان نتائج هذه العملية ضعيفة بالنسبة للحيوانات ولكنها فعّالة جداً بالنسبة للبشر . إن ما يجب ان يتعلمه الحيوان بنفسه كثير لكن الانسان يكتسب الكثير بسرعة من اقتدائه

بالابوين فالقرد العاري هو قرد قابل للتعلم (اننا نتبع هذه الطريقة مع انفسنا او نستفيد منها لذا نطبقها على الحيوانات ونزعم انها تفيدهم وتكون النتيجة اننا نبالغ في اهميتها وبالدور الذي تلعبه في حياتهم .)

ان الكثير مما نفعله كبالغين يعتمد على ما نكسبه اثناء طفولتنا عن طريق التقليد ، وكثيرا ما نتصور اننا نسلك سلوكاً معيناً يتفق مع مجموعة من المبادىء الاخلاقية بينما كل ما نفعله في الواقع ، هو خضوعنا لمجموعة من الانطباعات المقلّدة التي نسيناها منذ زمن بعيد . ان ذلك الخضوع غير المعدّل لهذه الانطباعات المقلّدة (بالاضافة الى دوافعنا الفطرية الغريزية المخيفه بحرص) هو الذي يجعل من المستحيل على المجتمعات ان تغير عاداتها ومعتقداتها حتى لو واجهنا افكاراً مثيرة منطقية وجديدة تعتمد على الذكاء وعلى الموضوعية ، نجد ان المجتمع لا يزال يتعلق بالعادات المألوفة القديمة .

ولحسن الحظ فقد ابتدعنا ترياقاً قوياً لهذا الضعف الموروث في تعلمنا عن طريق التقليد . لدينا فضول حاد ودافع غريزي في الاستكشاف يعملان ضد بعضهما ومن ثم يحدثان توازناً يؤدي الى نجاح عظيم . فإن اصبحت امه صارمة جدا بسبب عبوديتها للتكرار التقليدي او انها متهورة في استكشافها ، فإنها عندئذ ستصبح متعثرة في تقدمها . اما تلك الامم التي توازن بين دوافعها الغريزية ودوافعها الاستكشافية ، فتستطيع ان تزدهر . نستطيع ان نقدم الكثير من الامثلة عن الامم التي تتشدد في قيمها او تتهور بها فالمجتمعات الصغيرة المتخلفة التي تهيمن عليها اعباء المحرمات او العادات القديمة هي امثلة عن تلك الامم . ان هذه المجتمعات نفسها اذا ساعدتها مجتمعات اخرى متقدمة ثقافياً وادت الى تحولها فهي سرعان ما تصبح مجتمعاً من الفئة الثانية - اي المتهورة . ان الجرعة الزائدة في التجديد الاجتماعي تحجب توازن قوى التقليد الموروث وتثقل احدى كفتي الميزان . وتكون النتيجة الاضطراب والانحلال . ولحسن الحظ فإن المجتمع المتوازن هو الذي يتمتع بالاكتساب التدريجي

للتوازن بين دافع التقليد ودافع الفضول ، اي بين التقليد المستعبد وغير الواعي وبين التجريب الذكي .

الفصـل الرابـع

الاسـتطلاع

ان لجميع الثدييات دوافع استطلاعية قوية ، ولكنهـا تشـكل اهمية كبـرى بالنسبة لبعضها . ان ذلك يعتمد على مدى تخصص تلك الثدييات اثناء تطورها . فلو وضعت كل جهودها المتطورة في سبيل ايصال حيلة ما الى درجة الكمال لما احتاجت الى الاهتمام كثيرا بتعقيدات العالم من حولها . فطالما توفر النمل لاكل النمل وطالما كانت الاوراق الصمغية الشجرية متوفرة لدب الكوالا فهـو آمـن ومطمئـن في حياتـه اما الحيوانات غير المتخصصة ـ اي تلك الاستغلالية من عالم الحيوان ـ فهي لا تستطيع الى الراحة سبيلا . وهي لا تضمن لنفسها ان ستأتيها الوجبة التالية من الطعام فلابد لها اذا من اختبار كل حيلة او امكانية وان تستمر في المراقبة الشديدة على الحظ بحالفها . عليها ان تستطلع وتستمر في الاستطلاع . عليها أن تتحرى وان تستمر في التحقق والتحقق ثانية . فلابد لها من مستوى عال من الفضول الدائم .

ان الامر ليس مجرد مسألة طعام : فالدفاع عن النفس يتطلب المطالب نفسـها . فالحيوانات كالقنفذ والشيهم والظربان تستطيع ان تتشمم كيفما تشاء لامبالية باعدائها لكن الحيوانات الثديية غير المسلحة كالحيوانات الشائكة السابقة عليها ان تبقى يقظة وحذرة دائما . اذ لابد لها من معرفة اشارات الخطر ومنافذ النجاة . فاذا ارادت البقاء عليها ان تتعرف على كل تفاصيل مأواها الدقيقة .

فاذا نظرنا الى الموضوع من هذه الزاوية بدا ان عدم التخصص امر غير فعّال . لماذا لابد من وجود ثدييات انتهازية ؟ ان الاجابة هي ان هناك عقبة خطيرة في حياة

الحيوانات المتخصصة . ان كل شيء على مايرام طالما أن الأجهزة الخاصة للبقاء تعمل جيدا ولكن اذاخضعت البيئة الى تغيير جذري فان الحيوان المتخصص يتوه فلو انه قطع شوطا كبيرا في سبيل التفوق على منافسيه فسيجد نفسه مجبرا على القيام بتغيير جذري في تكوينه المتوارث ولن يتمكن من عكس هذا التغير بسرعة كافية عندما تحل الكارثة .

فاذا ذهبت جميع غابات شجر الكوالا الصمغية فان دب الكوالا سينقرض . ولو ان هناك حيوانا ذا فم حديدي يستطيع اكل الشيهم فانه - اي الشيهم - سيصبح فريسة سهلة . ان الانطلاق بالنسبة للحيوانات الانتهازية يكون دائما قاسيا الا انه يستطيع دائما ان يتأقلم مع اي تغيير يطرأ على البيئة . فمثلا ، لو ابعدنا جميع الفئران والجرذان من طريق حيوان النمس فاننا نراه يميل الى البيض والحلزون كبديلين . واذا ابعدنا الفواكه والبندق عن السعادين فاننا نراها تميل الى الجذور والاغصان الصغيرة .

ومن بين جميع المخلوقات غير المتخصصة ، فان السعادين والقرود هي الاكثر انتهازية . فلقد تخصصت في عدم التخصص . ومن بين القرود والسعادين يبرز القرد العاري كاكثر المخلوقات انتهازية . هذه ميزة اخرى من ميزات تطوره . ان جميع السعادين الفتية فضولية لكن شدة فضولها تميل الى التلاشي كلما كبرت . اما نحن فان طبعنا الاستفساري يقوى ويستمر ليشمل حياتنا في سن البلوغ . نحن لا نتوقف عن التحري . ولا نقنع بما نعرفه . فكل سؤال نجيب عليه يؤدي بنا الى سؤال آخر . ان هذا الامر اصبح اعظم حيل البقاء لنوعنا البشري .

ان الميل الى الانجذاب نحو التجديد والحداثة دعيا بنيوفيليا(Neophilia) اي حب الجديد وهذا بدوره يناقض الخوف من الجديد نيوفوبيا(Neophobia) . ان كل شيء جديد خطر . ولابد من مجابهته بحذر ، او ربما توجب تجنبه ؟ ولكن اذا تجنبناه فكيف لنا ان نعرف شيئا عنه ؟ ان على دوافع حب الجديدان تدفع بنا الى الامام وتبقينا مهتمين حتى يصبح المجهول معلوما وحتى يصبح المألوف مبتذلا . وفي هذه العملية نكون قد اكتسبنا تجربة قيمة نخزنها ونستدعيها عند الحاجة فيما بعد . ان الطفل يقوم بهذه العملية طيلة الوقت . ان دوافعه قوية لدرجة ان الكوابح الابوية تصبح

ضرورية . ولكن على الرغم من ان الابوين ينجحان في ارشاد فضولية ابنائهم الا انهم لا يستطيعون كبحها . وكلما كبر الاولاد فان ميولهم الاستطلاعية تصبح قوية وخطرة احيانا الى درجة اننا كثيرا ما نسمع من البالغين قولهم ، أن جماعة المراهقين قد تصرفوا كالحيوانات البرية . ولكن الواقع عكس ذلك . فلو كلف البالغون انفسهم بدراسة الكيفية التي تسلك فيها الحيوانات الفتية لقالوا ان البالغين ، اصحاب القول هم انفسهم الحيوانات البرية لانهم هم الذين يحاولون تضييق حب الاستطلاع وهم الذين يبيعون انفسهم الى «السلوك المحافظ السهل . ولحسن حظ نوعنا البشري فهناك دائما بالغون من الناس بما يكفي قد حافظوا سلوكيتهم في الاختراع والفضول وهم الذين يمكنون بقية الناس من احراز التقدم والتوسع .

وعندما نراقب شمبانزي صغيرا وهو يلهو يخطر ببالنا فجأة التشابه بين تصرفه وتصرف صغارنا. فكلاهما ينجذبان وينبهران باللعب الجديدة. وكلاهما يهجمان على لعبهما بلهفة حيث يرفعانها ويسقطانها او يضربانها او يفكانها . ان كلا منهما يخترع العابا بسيطة . وان شدة اهتمام الشمبانزي باللعب هي بشدة اهتمامنا نفسها لابل افضل منا اثناء السنوات القليلة الأولى من حياتها وذلك لان النظام العضلي لديها ينمو بسرعة اكبر ولكنه بعد فترة من الزمن يبدأ بالتلاشي . ان ادمغتها ليست معقدة بما يكفي لتبدأ بداية حسنة . وان قوتها في التركيز ضعيفة ولا تنمو بنمو جسمها . وعلاوةعلى ذلك تنقصها القدرة على التعامل مع ابويها تفصيلا حول الاساليب التقنية التي يكتشفانها .

ان افضل طريقة لشرح هذه الاختلافات هي اخذ مثال محدد : وصناعة الرسوم او الاستطلاع البياني هما الاختيار الافضل .

فلو وفرنا الفرصة والادوات والمواد المناسبة نجد ان صغار الشمبانزي تستثار مثلنا وتندفع نحو استطلاع الامكانيات البصرية في صنع علامات على صفحة من الورق الفارغ . ان بدء هذا الاهتمام له علاقة لبدأ «التحري ـ المكافأة» في الحصول

على نتائج تفوق نسبيا الطاقة المصروفة في سبيل ذلك . يمكن ان نرى ذلك في كل عمليات اللعب . تصرف الجهود الكثيرة في النشاطات لكن تلك الافعال التي تحدث صدى اكبر من الجهود المصروفة فيها ، هي التي ترضينا اكثر من غيرها . نستطيع ان نسمي مبدأ اللعب هذا (المكافأة المجسمة) . ان كلا من الشمبانزي والاولاد يحب صدم الاشياء وان الاجسام التي تحدث اصواتا اعلى من غيرها وبجهد قليل هي التي يفضلونها . ان المكبرات التي ترتد عاليا والتي لا تحتاج سوى لمجهود بسيط لقذفها والنفاخات التي ترتفع في فضاء الغرفة لمجرد لمسها لمسا بسيطا والرمل الذي يتشكل في اشكال عدة لمجرد الضغط عليه ضغطا خفيفا والالعاب التي تتدحرج بسهولة لمجرد دفعها دفعا بسيطا . ان جميع هذه الالعاب هي التي حظي باقصى حد من الاهتمام .

عندما يعثر الطفل للمرة الأولى على قلم وورق لا يجد نفسه في وضع مبهج وان افضل ما بوسعه ان يفعله هو ان يضغط برفق على سطح الورقة بالقلم . الا ان هذا التصرف يقوده الى دهشة محببة . ان ضغطه على الورقة يفعل اكثر من مجرد احداث ضجيج . انه يحدث تأثيرا مرئيا ايضا . ان شيئا ما في رأس القلم يخرج ويترك اثرا او علامة على الورقة . هناك خط قد رسم على الورقة .

ان الطفل او صغير الشمبانزي يجد الامر مثيرا عند لحظة اكتشافه هذا الخط على الورقة . فهو يحدث بالخط كما تثيره ايضا هذه المكافأة المرئية التي كافأه بها الخط المرسوم على الورق . وبعد معاينة النتيجة للحظة يلجأ الطفل بعد ذلك الى اعادة التجربة .

وبالتأكيد ستنجح التجربة . وسرعان ما تكسو الورقة خطوط غير منتظمة . وبمرور الزمن تصبح فترات الرسم اكثر حيوية . ان خطوطا احادية على سطح الورقة ستتضاعف وتتكاثر . فلو اعطى الطفل مجالا للاختيار فان اقلام التلوين والحوار والالوان الزيتية تصبح اكثر جاذبية بالنسبة له اكثر من اقلام الرصاص لان لها انطباعا في نظره افضل كما انها تحدث تأثيرا مرئيا اكبر كلما مرّ قلم التلوين على الورق .

ان الاهتمام الأول بهذا النشاط يظهر في السنة الأولى او نحوها من حياة الطفل والشمبانزي . ولكن تكاثر هذه الخطوط وبروزها على الورق لا يأخذ مجاله الا في السنة الثانية . وفي سن الثالثة فان الطفل المتوسط ينتقل الى طور جديد من الاطوار التخطيطية : فهو يبدأ بجعل خطوطه المبعثرة المرتبكة اكثر وضوحا وسهولة فهو يبدأ بانتقاء الاشكال التي يرسمها وتصفيتها من فوضاها . ويبدأ تجربته برسم الصلبان ثم الدوائر والمربعات والمثلثات . خطوط متعرجة حول سطح الورقة لكنها سرعان ما تنتظم وتنغلق . فالخط سرعان ما يصبح خطا رئيسيا لشكل ما .

وأثناء الاشهر التالية فان هذه الاشكال البسيطة تترابط بعضها ببعض لتعطي نماذج تجريدية بسيطة ، فالدائرة يقطعها صليب وزوايا المربع تتصل بخطوط قطرية .

هذه هي المرحلة الحيوية التي تسبق مرحلة التشكيل الصوري للاشياء . ان هذا التفجر العظيم في طاقات الطفل يبدأ في النصف الثاني من السنة الثانية أو الثالثه من عمره أو بداية السنة الرابعة . ان صغير الشمبانزي يتدبر أمره في صنع نماذج من الصلبان والدوائر وحتى انه يستطيع ان يرسم دائرة مميزة الا انه لا يستطيع اكثر من ذلك . ما يحدث هو ان هذه الخطوط القليلة أو البقع التي تظهر داخل الدائرة تذهل الطفل فيحملق فيها . ثم يظهر على وجهه وميض مفاجيء من المعرفة . لقد انتهت مرحلة التجريب التجريدي أو اختراع النماذج . ولا بد له الآن من تحقيق هدف جديد : هو تحقيق التمثيل الاكمل للاشياء . فتبدأ الوجوه بالظهور لا بل وجوه افضل لها عينان وفم وفي المكان الصحيح لها . ثم تضاف التفاصيل شعر اذنان ، انف ، ذراعان ، وساقان . ثم تتواجد الصور الاخرى ـ الأزهار ، المنازل ، الحيوانات ، الزوارق ، والسيارات . ان هذه الصور اصعب مما يستطيعها صغير الشمبانزي . فبعد تحقيق القمة ـ أي بعد صنع الدوائر وما في داخلها من خطوط يبدأ الحيوان بالنمو أما رسومه فلا . ولربما يظهر شمبانزي عبقري يوما ما لكن ذلك غير مرجح . وبالنسبة للطفل فان مرحلة التمثيل الخطي الاستطلاعي تمتد أمامه . وعلى الرغم من ان هذه المرحلة هي المرحلة الرئيسية للاكتشاف والاستطلاع لكن التأثيرات

القديمة للتشكيل التجريدي تبقى فعالة وخاصة بين سني الخامسة والثامنة . واثناء هذه المرحلة تظهر الرسوم الزيتية الجذابة التي يرسمها الاطفال والتي ترتكز على خلفية صلبة وهي مرحلة التشكيل التجريدي . ان الصور الممثلة لا تزال باقية في مرحلتها البسيطة الا انها تتضافر ظاهريا لتمثل تنسيقا محددا من الاشكال والنماذج .

ان العملية التي تتم فيها تعبئة الدوائر بالنقط تتعقد وتكبر لتصبح شكلا تمثيليا دقيقا مثيرا . ان الاكتشاف الذي يحققه الطفل في الاشكال التي يرسمها وهي تمثل وجها ، لا يؤدي به الى النجاح في اتقان رسم هذا الوجه في فترة وجيزة . وان ذلك يصبح هدفه المسيطر عليه لكن ذلك يأخذ وقتا طويلا (اكثر من عشر سنين في الواقع) . فبادىء ذي بدء لا بد للملامح الخارجية للاشكال ان ترتب الى حد ما بحيث تصبح الدوائر عينين والخط الافقي العريض فما والنقطتان أو الدائرتان المركزيتان انفا . أما الشعر فيجب ان يحاذي دائرة الوجه الخارجية . وهنا يجب ان تتوقف الامور لفترة ما . فالوجه هو الجزء المرئي الاهم على اقل تقدير في المستوى البصري . وبعد فترة يتحقق تقدم اكثر . فعندما يرسم الطفل بعضا من الشعر اطول من البقية فان الاحتمال وارد لهذه الصورة ان تعطي ذراعين وساقين ايضا . وهذه الاخيرة بدورها تفسح المجال امام الاصابع والاظافر . وفي هذه النقطة فان التشكيل المجسد لا يزال يعتمد على الفترة التي تسبق تشكيل الدوائر . فبعد ان كان الأمر مجرد وجه اصبح الآن وجها وجسما في آن واحد . ولكن وجود الذراعين وهما تمتدان من ناحية الوجه لا يقلق الطفل كثيرا في هذه المرحلة . لكن هذه الدوائر لا يمكن ان تدوم . فهي كالخلايا لا بد من ان تنقسم وتشكل خلايا اخرى . كذلك ايضا ، لا بد للساقين ان يتصلا في مكان ما وان يصبحا اطول من القدمين . وهكذا يظهر الجسم الى الوجود . ومهما يحدث فان الذراعين يبقيان عاليين ويمتدان من جانبي الرأس . وهناك يبقيان لفترة من الزمن حتى يضعا في مكانهما الصحيح ويبرزان من اعلى الجسم .

انه لامر مثير ان نراقب هذه الخطوط البطيئة التي تتعاقب عبر هذه المرحلة المستمرة التي لا تألو جهدا في البحث والاكتشاف . وبالتدريج فان اشكالا اكثر

وتشكيلات اخرى يحاول ان يرسمها الطفل فتخرج الالوان المعقدة الكثيرة والمتنوعة الى حيز الوجود . وفي النهاية يتحقق التمثيل الدقيق كما تتحقق محاكاة العالم الخارجي ويختزن ذلك وينقل على الورق . وفي هذه المرحلة فان طبيعة الطفل الاستطلاعية تغوص تحت وطأة مطالب الاتصال والتفاهم عبر التصوير . فالصور التي رسمها الشمبانزي التي مرّ ذكرها لا علاقة لها بتحقيق الاتصال بالآخرين ، لقد كانت مجرد فعل استكشاف فقط اختبار امكانات التخطيط المتنوع . لقد كانت (فعل - تصوير) ، وليست مؤشرات . فهي لم تتطلب مكافأة - فلقد كانت مكافأة بحد ذاتها . لقد كانت لعبة لمجرد اللعب فقط . الا انها بالنسبة للطفل تصبح هدفا في حياته في المستقبل . فالاتصال الاجتماعي يتطلبها وتضيع طبيعة الاختراع الاصلية . (ان هذا لا يعني ان الطفل اصبح غير مبدع بل يعني ان مساحة الابداع قد انتقلت الى جو اكثر تعقيدا الا وهو جو التكنولوجيا) .

ولحسن حظ فن الرسم فان الكثير من الطرق التقنية الفعالة قد اعطت صورا متطورة عن البيئة . فالتصوير الفوتوغرافي قد اعطى معلومات تخطيطية تمثيلية مطلقة الكمال . ان هذا الامر قد حطم طوق المسؤوليات الثقيل الذي كان عبئا على البالغين لفترة طويلة من الزمن . فالرسم الزيتي يستطيع الآن ان يتطلع الى المزيد عبر البالغين الراشدين . وهذا بالضبط ما يقوم به الرسم الزيتي اليوم .

لقد اخترت هذا المثال من السلوك الاستطلاعي لانه يكشف لنا الاختلاف بيننا وبين اقرب اقربائنا الشمبانزي . ويمكن من اجراء مقارنات مشابهة في مجالات اخرى . ان واحدة أو اثنتين من هذه المقارنات تستحق الذكر . فاستكشاف عالم الصوت يمكن ان يتم لدى الحيوان والانسان . والابداع الصوتي ، كما سبق ورأينا ، لا وجود له لدى الشمبانزي لكن التطبيل يلعب دورا هاما في حياته . ان صغار الشمبانزي لتتحرى باستمرار عن طاقات الضجيج التي يحدثها الخبط والصدم والتصفيق والدق بالأرجل . وعندما تدرك سن البلوغ ينمو لديها الميل نحو التطبيل

الجماعي المطوّل . فحيوان يتلو آخر هو يصرخ أو يدق برجليه . ان هذا الاتصال الجماعي يمكن ان يدوم مدة نصف ساعة أو أكثر .

وظيفته الحقيقية غير معروفة الا ان تأثيره المتبادل بين الجماعة واضح . أما نحن البشر فالتطبيل لدينا فمنتشر على نطاق واسع ويتخذ شكلا موسيقا . وهو يبدأ مبكرا معنا كما هو الحال مع الشمبانزي عندما يبدأ الاطفال باختيار الاشياء ذات الاصوات التطبيلية من حولهم . ولكن بينما لا يستطيع البالغة من الشمبانزي ان تحدث اكثر من صوت ايقاعي بسيط واحد فقط ، نجد ان الانسان يستطيع القيام بإصدار أصوات مختلفة معقدة ومتشابكة ويستطيع تقوية نبرتها أو اهتزازها كيفما يحلو له . كما أننا نستطيع ان نصدر اصواتا اضافية بنفخنا في فتحات جوفاء أو بلجوئنا الى الخدش أو قلع قطع معدنية . ان صرخات الشمبانزي تتحول الى ترانيم أو غناء مبدع عندما تصدر عن الانسان . وان تطور الفصل الموسيقي المعقد لدى الانسان يلعب الدور نفسه لدى الشمبانزي ـ أي الاثاره المتبادلة بين الجماعة . فبخلاف نزوع الانسان الى التصوير فان الفعل الموسيقي لم يكن مصمما لبث المعلومات المفصلة على نطاق واسع . ان بث الرسائل عبر الطبول لدى بعض من الأمم هو حالة شاذة لهذه القاعدة لكن شيئا فشيئا تطورت الموسيقا لتصبح اداة لاثارة المزاج الجماعي ولمزامنته مع الموسيقا . ان محتوى الموسيقا الابداعي والاستطلاعي قوي وقد تحرر من أي واجبات تمثيلية فاصبح تجربة جمالية تجريدية .

والرقص يتتبع خطوات الموسيقا والغناء ذاتها . فالشمبانزي يقوم بعدة حركات من الترنح والتمايل اثناء الطقس التطبيلي وتصحب هذه الحركات الافعال الموسيقية المثيرة للمزاج كما هو الحال لدى البشر . وهكذا نجد ان الرقص تطور كما تطورت الموسيقا ليصبح عرضا جماليا شائكا .

ان الالعاب الرياضية لها علاقة قريبة جدا بالرقص . فالافعال الفيزيولوجية المتنظمة يؤديها كل من الشمبانزي والاطفال اثناء اللعب . وسرعان ما تتخذ هذه

النشاطات الفيزيولوجية اساليب معينة الا أنها تحتفظ بطبيعتها في التنوع ضمن حدود النماذج التي يؤ ديها كل من صغار الشمبانزي والاطفال . الا ان الالعاب الرياضية التي تؤ ديها الشمبانزي لا تتطور ولا تنضج بل تتلاشى . بينما نحن نحاول ان نستطلع كامل الاحتمالات في النشاطات الرياضية ونطورها اثناء سنوات البلوغ لتصبح عبارة عن تمارين رياضية ذات أشكال معقدة . وهي ـ اي هذه الرياضات ـ وسائل اجتماعية ضرورية لتأمين وتوسيع استطلاعنا لقدراتنا الفيزيولوجية .

ان الكتابة شكل متطور من اشكال رسم الصور وان اتصالنا الصوتي بالاخرين قد تطور بالطبع كوسيلة رئيسية لبث وتسجيل المعلومات وهو أيضا وسيلة استخدمت للاستطلاع الجمالي على نطاق واسع . ان صراخ وزعيق اسلافنا اللذين طورناهما الى شكل كلام معقد وذي مدلول رمزي قد مكنانا من مداعبةالأفكار في اذهاننا والتعامل مع تعاقب الكلمات لغايات جديدة تجريبية جميلة .

لذا فاننا نستطيع ان نمضي حاملين بملء خاطرنا ، وطوال حياتنا ، اشكالا معقدة ومتخصصةمن الاستطلاع والتجربة عبر مجالات كالرسم الزيتي والنحت والرسم والموسيقا والغناء والرقص والرياضة والالعاب والكتابة والخطابة . وعبر التدريب المعقد نستطيع كمتفرجين وكمشاركين أن نصل عبر تجاوبنا إلى الطاقات الاستطلاعية لما تستطيع أن تقدمه النشاطات السابقة . فلو وضعنا جانبا الوظائف الثانوية لهذه النشاطات (ربح المال) اكتساب المركز الاجتماعي الخ . . .) عندئذ تبرز هذه النشاطات جميعها فيزيولوجيا إما كامتداد لسن البلوغ أو كنماذج طفولية أو بشكل نظام له قوانينه في تبادل المعلومات في حياة البالغين .

ويمكن ذكر هذه القوانين على الشكل التالي :

(١) عليك بالتحري عن غير المألوف حتى يصبح مألوفا .

(٢) عليك تبني التكرار المنتظم في عملية التحري .

(٣) عليك بتفريغ هذا التكرار قدر استطاعتك .

(٤) عليك بالتقاء التنويع الاكثر ملاءمة وتطويره على حساب التنويعات الاخرى .

(٥) عليك ربط واعادة ربط كل هذه التنويعات بعضها ببعض .

(٦) عليك القيام بكل هذه الأمور لاجلها بالذات وكفاية في حد ذاتها .

ان هذه المبادىء تطبق في كل مراحل حياة الانسان فيما لو كان طفل يلعب بالرمل أو مؤلف موسيقي يؤلف سيمفونية .

إن القانون الأخير له أهمية خاصة . فالسلوك الاستطلاعي يلعب دوراً أيضاً في نماذج سلوك «البقاء» كالغذاء والسعي وراء الطعام والقتال والتناسل الخ .... وهو يتحدد بأطوار القابلية المبكرة لتعاقب هذه النشاطات وتوافقه مع المطالب الخاصة . أما بالنسبة للكثير من أنواع الحيوان فليس لديها نشاطات استطلاعية لمجرد الاستطلاع .

ولكن عندالثدييات العلياوإلى حدأقصى عندالبشر يتحرر الاستطلاع ويصبح دافعاً منفصلاً مميزاً . إن وظيفة الاستطلاع هي تزويدنا بيقظة معقدة وإدراك للعالم من حولنا ولقدراتنا على تنفيذ استطلاعنا .

لقد تغاضيت في بحثي عن ذكر توسع العلوم والتقنية لأنهما يتصلان بالتحسينات المعينة في الأساليب المستخدمة في تحقيق أهداف «البقاء» كالقتال (السلاح) والسعي وراء الطعام (الزراعة) وبناء المنزل (الهندسة) والراحة (الطب) . إنه لمن الجدير بالاهتمام مع ذلك أن التقدم التقني قد ازداد تشابكاً بمرور الزمن وقد غذت الدوافع الاستطلاعية المجالات العلمية . إن البحث العلمي الذي يتخلى عن اللعب (واعني اللعب بالذات) ـ يعمل بطريقة اللعب ـ المبدأ ، المذكور آنفاً . ففي البحث العلمي الدقيق ، يستخدم العالم خياله تماما مثلما يفعل الفنان . انه يتحدث عن تجربة جميلة بدلا من تجربة ذات نفع . فهو كالفنان يهتم بالاستطلاع لمجرد الاستطلاع . فإذا جاءت نتائج الدراسات نافعة في تحقيق هدف معين من اهداف البقاء فلا بأس لكن ذلك يبقى امراً ثانوياً .

ففي كل السلوكيات الاستطلاعية فيما إذا كانت فنية أم علمية هناك المعركة الخالدة بين دوافع التجديد ودوافع الخوف من التجديد . فالدوافع الاولى تدفعنا الى تجربة التجارب الجديدة وتجعلنا نلجأ إلى المألوف : فنحن دائماً في كفتي الميزان نوازن في الصراع القائم بين ما يسحرنا من الدوافع الجديدة الجذابة وبين دوافعنا القديمة الصديقة . فلو فقدنا حبنا للتجديد لقبعنا في مكاننا . واذا فقدنا خوفنا من التجديد فستحل بنا الكارثة . ولا يعزى الى هذا الوضع من الصراع القائم ، التذبذب الواضح في الأزياء والملبس وتصفيف الشعر واثاث المنزل والسيارات فقط بل يعزى اليه ايضاً تقدمنا الحضاري بأكمله . فنحن نستطلع ونبحث ونتحرى ثم نرسخ ما نريد ترسيخه . وخطوة فخطوة ، نوسّع يقظتنا ومفهومنا عن انفسنا وعن بيئتنا المعقدة التي نعيش ضمنها .

وقبل ان نترك هذا الموضوع هناك جانب آخر للسلوك الاستطلاعي الذي لا يمكن ان نغفله . انه يتعلق بطور (اللعب الجماعي) ، اثناء فترة الطفولة . عندما يكون الانسان طفلاً صغيراً فإن لعبه الجماعي الطفولي يتوجه بشكل رئيسي ، نحو الأبوين ولكن بنمو الطفل فإنه يتوجه إلى الأطفال الآخرين من سنه بدلاً من أبويه . فالطفل يصبح عضواً في مجموعة (اللعب الطفولي) ، وهذا خطوة دقيقة في تطوره .

ان هذه الخطوة لها تأثيرها الكبير في سن بلوغ الفرد في المستقبل . لا شك أن جميع اشكال الاستطلاع في هذه السن الغضّة لها تعاقب طويل ـ ان الطفل الذي يفشل في استطلاع الموسيقا او الرسم سيجد هذين الموضوعين صعبين عندما يكبر لكن اللعب شخصياً مع الآخرين له اهمية كبرى . فالانسان البالغ الذي يقدم على الموسيقا للمرة الاولى دون ان تكون له تجربة استطلاعية مبكرة في طفولته قد يجدها صعبة الآن لكنها ليست مستحيلة . أما الطفل الذي حجب عنه المجتمع بشدة فسيجد نفسه معاقاً جداً في علاقاته الاجتماعية . لقد دلت التجارب التي أجريت على السعادين على أن العزلة الاجتماعية للسعدان في طفولته لا تجعله بالغاً منعزلاً في المجتمع فحسب بل مخلوقاً ضد الجنس وضد والديه . ان السعادين التي ربيت في عزلة من غيرها فشلت في اشتراكها في اي نشاط من نشاطات اللعب عندما تعرضت لوضع كهذا فيما بعد . وبالرغم من

صحة اجسام المعزولة اجتماعياً إلا أنها غير قادرة على التعامل مع غيرها . فهي تلجأ الى الانزواء (لا حراك فيها) في زوايا غرفة اللعب . وعادة تلف ذراعيها حول جسمها بإحكام او تغطي عينيها كما أنها لا تبدي أي إهتمام بالجنس . ولو ضغطنا على اناثها في سبيل التناسل لوجدنا أنها تلد صغاراً بالطريقة الطبيعية إلا أنها تمضي في معاملتها وكأنها حشرات كبيرة تزحف على أجسادها . فهي تهاجم صغارها او تنبذها او تقتلها او تتجاهلها .

وقد دلت تجارب مشابهة على صغار الشمبانزي على أنه إذا ما أحيطت هذه الشمبانزي المنزوية بالعناية الدقيقة فإن من الممكن الى حد ما ، إزالة الضرر الذي اصاب سلوكها .

أما بالنسبة للبشر فعلى الرغم من العناية الزائدة التي تتخذ مع هؤلاء الأطفال المنزوين فإنهم يعانون دائماً من اختلاطهم الاجتماعي . ولهذا الامر اهمية خاصة بالنسبة للاولاد الوحيدين لأهاليهم . فإذا لم يمارسوا اي تجربة إجتماعية مع الاولاد الخشنين اثناء اللعب فسيقون على الأغلب ، اولادا خجولين انزوائيين بقية حياتهم وسيجدون الرباط الزوجي والجنسي أمراً صعباً أو مستحيلاً واذا ما تدبروا امرهم وأصبحوا آباء فمن المرجح انهم سيكونون آباء سيئين .

ويتضح مما تقدم على ان عملية تربية الصغار تمر في طورين متميزين ـ طور مبكر وطور متأخر . وكلاهما هام . ونستطيع أن نتعلم الكثير عن الأطفال عبر دراسة سلوك السعادين . فأثناء الطور المبكر نجد الطفل يحب ويشجع ويحمى من قبل الأم . فهو يبدأ يستوعب مفهوم الأمان . أما أثناء الطور المتأخر فنراه يشجع في الانطلاق ومشاركة الآخرين في نشاطاتهم . وتصبح الأم اقل عطفاً وتبذل جهدها لحمايته فقط اثناء الفزع الشديد أو عندما تتهدده المخاطر الخارجية . فهي تستطيع الآن ان تعاقب ولدها إذا ألحّ في التعلق بأهدابها . أما والطفل بدوره يفهم الآن ويقبل نمو استقلاليته .

فإن اختلّ أحد الطورين من قبل الأبوين فسيكون الطفل في وضع شائك في حياته في المستقبل . فإذا نقصه طور الأمان المبكر وكان فعالاً في طور الاستقلال فإنه سيجد عملية الاتصال بالآخرين عملية سهلة إلا أنه لن يتمكن من المحافظة على هذا الوضع في الظروف الحميمة للاتصال بالآخرين أما إذا تمتع بأمان كبير في حياته المبكرة وكذلك حظي بحماية تزيد عن الضروري فيما بعد فإنه سيجد اتصاله بالآخرين صعباً جداً وسيميل الى التعلق الشديد بما حظيه من الحماية المبكرة له .

إذا أمعنا النظر في الحالات القصوى من الانزواء الاجتماعي فسنشهد سلوكاً يعارض النزعة الاستطلاعية فالأفراد المنزوون جداً قد يصبحون غير فعالين اجتماعياً إلا أنهم بعكس ذلك فيزيولوجياً . فهم يميلون الى تكرار حركات يقومون بها إذ يمضون الساعة تلو الساعة وهم يهزون انفسهم او يتمايلون او يصفقون أو قد يمصون ابهامهم أو اجزاء أخرى من أجسامهم أو يقرصون انفسهم أو يؤدون حركات غريبة بوجوههم او يدحرجون أشياء بانتظام أو يفرقعون بها . فنحن جميعاً نمارس هذه الأمور إلا أنهم يبالغون في ممارستها . وما يحدث هو انهم يجدون البيئة تتهددهم وأن الاتصال بالآخرين مخيف ومستحيل لدرجة أنهم يفتشون عن تعويض مريح . فبدلاً من أن يقوموا بنشاطات متعددة يلجأ الطفل الخجول الى التعلق بنشاطات قليلة يعرفها . فكأنه بذلك يحول المثل القديم الذي يقول «لا مغامرة ـ لا ربح» الى «لا مغامرة ـ لا خسارة» .

لقد سبق لنا أن ناقشنا الخصائص المواسية لضربات قلب الأم بالنسبة للطفل وهذا ايضاً تنطبق هنا . فالكثير من نماذج السلوك تعمل بسرعة ضربات القلب ولكن حتى تلك التي لا تعمل كذلك ، تبقى كمواسية بفضل الألفة التي تتحقق من جراء التكرار المنتظم . لقد لوحظ أن الأفراد المتخلفين عقلياً في المجتمع يزيدون من الافعال المتكررة التي يقومون بها عندما يوضعون في غرفة غريبة . فالتجديد في البيئة يزيد من مخاوفهم لذلك يلجؤ ون الى السلوك التعويضي ليجابهوا مخاوفهم .

وكلما إزداد السلوك المتكرر كلما أصبح الامر وكأنه يُصنّع من ضربات قلب الأم . ان «صداقته» تزداد حتى يستحيل التراجع عنها . حتى لو ازيل الخوف الشديد من التجديد المسبب للسلوك التعويضي (وذلك امر صعب بحد ذاته) فإن السلوك المتكرر الرتيب لا يزول .

وكما قلنا ، فإن الأفراد المقبولين اجتماعياً يصدر عنهم مثل هذا السلوك المتكرر من حين الى آخر . وعادة يظهر هذا السلوك في اوضاع الشدة ويعمل هذاالسلوك حينها كمواس . اننا نعلم كل هذه الاشارات . فالمدير الذي يكون في انتظار مكالمة هاتفية يقرقع على الطاولة امامه . كذلك نجد المرأة بانتظار الطبيب وهي في غرفة الانتظار ، تقبض بأصابعها على محفظة يدها وتفلتها . والطفل المحرج أو الخجول يتأرجح ذات اليمين وذات اليسار . والأب الذي ينتظر مولوده يذرع الأرض جيئة وذهابا . والطالب في غرفة الامتحان يمص قلمه والضابط القلق يفرك شاربيه . وفي حالات الاعتدال فإن هذا السلوك مفيد . فهو يساعدنا على تهدئة الجرعة الزائدة من التجديد ، التي نواجهها . ويظهر الخطر عندما يصبح هذا السلوك مبالغاً فيه متسلطاً الى درجة انه يظهر دون الحاجة إليه .

إن هذا السلوك المتكرر التعويضي يظهر في حالات الضجر التام . ويمكن ان نلاحظ ذلك في حديقة الحيوان وعند الانسان . وقد يصل إلى حد مخيف . وما يحدث هنا هو أن الحيوانات الأسيرة تتصل بالآخرين إذا ما سنحت الفرصة لها الا انه محرم عليها ذلك جسدياً . ان الوضع هو نفسه في حالات الانزواء الاجتماعي . ان بيئة حديقة الحيوان محدودة بأقفاص تمنع الحيوان من إجراء الاتصال بالآخرين وتجبره على الانزواء الاجتماعي . إن قضبان الاقفاص الصلبة تعادل الحواجز النفسية التي تواجه الفرد المنزوي اجتماعياً . فهي عبارة عن اداة تمنع الاستطلاع . وعندما لا يجد الحيوان الأسير ما يستطلعه يبدأ بالتعبير عن نفسه بالطريقة الوحيدة الممكنة أمامه الا وهي السلوك المتكرر التعويضي . إننا نعرف جيداً ذلك السلوك الذي يسلكه الحيوان الاسير في القفص وهو يذرع الأرض جيئة وذهاباً ولكن هذا السلوك واحد من كثير .

كما تظهر حالات من الاستمناء أيضاً . ولا يعني ذلك دائماً ان الحيوان يداعب قضيبه بل قد يلجأ فقط الى القيام بحركة الاستمناء الى الامام والخلف بذراعه ويده دون ان يلمس قضيبه فعلياً . وكما يفعل ذكر السعدان ذلك فإن انثاه تمص ثدييها بشكل متكرر . أما صغار الحيوان فتمص مخالبها . والشمبانزي يدخل اعواداً من القش في أذنيه . وتكتفي الفيلة بهز رؤوسها لمدة ساعات طويلة . وهناك حيوانات اخرى تعض نفسها بنفسها او تشد شعرها وقد تلجأ الى عملية بتر لبعض اعضائها . إن بعض هذه التجاوبات تظهر في اوقات الضيق لكن الكثير منها يظهر في اوقات الملل . وعندما لا يتوفر التنوع في البيئة فإن دوافع الاستطلاع تركد .

واذا راقبنا حيواناً يقوم بهذا السلوك المتكرر التعويضي نصل الى تفسير ما بسبب هذا السلوك لعجزنا . فقد يكون السبب هو الملل او توتر المزاج ، فإذا كان الأمر توتراً فهو نتيجة الوضع البيئوي المباشر او قد يكون ظاهرة قديمة ترجع الى تربية غير طبيعية . ان تجارب قليلة بسيطة تعطينا الاجابة . اذا ما وضعنا شيئاً غريباً في القفص فاختفى معه السلوك المتكرر التعويضي وظهر السلوك الاستطلاعي مكانه فعندئذ نجد أن السبب هو الملل . فإذا ازداد هذا السلوك المتكرر فإن سببه هو الانزعاج . وإذا استمر الحال كذلك على الرغم من دخول عضو آخر من الحيوان نفسه وفي بيئة إجتماعية فإن مرد السلوك المتكرر بالتأكيد الى الطفولة الانطوائية غير الطبيعة .

إن كل هذه الامور الشاذة التي نلاحظها في حديقة الحيوان يمكن ملاحظتها على البشر (لأننا صممنا حدائق الحيوان ، على ما يبدو ، على شكل مدننا) . ان هذه الملاحظات على سلوك الحيوان يجب ان تكون درساً لنا وان تذكرنا بالأهمية الكبرى في تحقيق توازن بين ميول الخوف من الجديد وحب التجديد . وإذا لم نملك مثل هذه الميول فلا نستطيع ان نعمل كما يجب . ان نظامنا العصبي سيفعل ما بوسعه لصالحنا لكن النتائج ستكون دائماً تشويها لطاقاتنا السلوكية الحقيقية .

الفصـــــل الخامـــــس

القتـــــال

إذا كان لا بد لنا من فهم طبيعة دوافعنا العدائية فعلينا أن نراها في خلفية اصولنا الحيوانية . فنحن كنوع نهتم بخلق العنف الواسع والمدمر على نطاق اعم في الوقت الحاضر إلى درجة أننا نميل إلى فقد موضوعيتنا عندما نناقش هذا الموضوع . إنها حقيقة أن معظم العقلانيين يصبحون غالباً عدائيين عندما يناقشون الحاجة الملحة للحد من العداء . وهذا الأمر ليس مفاجئاً . فنحن - إذا بسطنا الأمر - في ورطة وهناك احتمال كبير أن ندمر انفسنا في نهاية هذا القرن . إن تعزيتنا الوحيدة هي أننا نملك عقلاً .

ولكن قبل أن نخوض في اتقاننا الغريب لظاهرة الهجوم والدفاع علينا أن نتحرى طبيعة العنف الاساسية في عالم الحيوان الخالي من الرماح والبنادق والقنابل .

فالحيوانات تتقاتل فيما بينها لسبب أو سببين وجيهين : أما لتثبيت سيطرتها في النظـام الطبقـي الاجتماعي او لتحقيق حقوقهـا في رقعـة ارض ما . وليس لبعض الحيوانات مثل هذه الاشكالات . ولبعضها الآخر نظام حكم وحقوق على رقع من الأرض فعليها لذلك ان تقنع بكلا الشكلين من العداء . ونحن ننتمي الى المجموعة

الثانية : فنخضع لشكلي العداء . وبما اننا أحد الرئيسيات فنحن نتحمل عبء نظام الحكم الاجتماعي . هذه هي طريقة حياة الانسان الاساسية . إن الجماعة تستمر في التنقل ونادراً ما تبقى في مكان ما فترة كافية لتؤسس لنفسها مكاناً محدداً . وأحيانـاً ينشأ صراع بين جماعتين ولكن تنظيمه يبقى ضعيفاً ومتشنجاً ولا قيمة له نسبياً في حياة

السعدان المتوسط . هناك نظام حكم طبقي صارم بين السعادين والقرود حيث يبقى احد الذكور مهيمنا على الجماعة بينما يتدرج الآخرون وراءه في السلم الاجتماعي . وعندما يصبح عجوزاً بحيث لا يستطيع ان يحافظ على سيطرته يزيحه أحد الذكور الشبان ويحتل مكانه في السيطرة على الجماعة . وبما أن الجماعة تتلازم مع بعضها فإن دور الرئيس يصبح طاغياً وفعالاً . وعلى الرغم من ذلك يبقى هذا القرد الرائد أكثر جماعته نظافة وأكثرها نشاطاً جنسياً .

وليست جميع أنواع الرئيسيات تميل الى الحكم الدكتاتوري العنيف في التنظيم الاجتماعي . ويكاد يكون هناك دائماً فرد مستبد إلا أنه مستبد وصالح في آن واحد بل هو متسامح ايضاً كما هو الحال لدى انواع الغوريلا الضخمة . انه يتقاسم الاناث مع بقية الذكور الأقل شأناً . وهو سخي في توزيع الطعام الا انه يميز نفسه عندما ينشأ امر لا يمكن له أن يتقاسمه مع أحد أو يكون هناك عصيان ضده او شجار بين الافراد الأقل قوة .

كان لا بد لهذا النظام أن يتغير عندما اصبح القرد العاري صيادا متعاوناً له مقر رئيسي . وكان لا بد لنظام الرئيسيات ان يتعدل تماماً مثلما تعدل السلوك الجنسي ليتلاءم مع دوره كآكل للحوم . وأصبح على الجماعة ان تتخذ لنفسها ارضاً محددة وكان عليها أن تدافع عن قادتها المحددة . ويعود الفضل الى طبيعة الصيد التعاونية في إجراء هذا التعديل على مستوى الجماعة بدلا من مستوى الفرد . وضمن الجماعة كان لا بد لنظام الحكم الاستبدادي للمستعمرة العادية ان يعدّل تعديلاً كبيراً يؤمن تعاوناً كاملاً من قبل الأفراد عندما يخرجون إلى الصيد . إلا أن هذا النظام لا يمكن انهاؤه كلية . فلا بد من وجود نظام آخر اكثر مرونة مع وجود اعضاء أكثر قوة يترأسهم قائد ان كان لا بدّ للقرارات ان تتخذ ، حتى لو كان هذا القائد مجبراً على الأخذبآراء مرؤوسيه على نقيض ما تفعله الرئيسيات الاخرى .

وبالاضافة الى دفاع الجماعة عن الأرض ونظام الحكم فان اعتماد الصغار الطويل الأمد على الكبار يجبرنا على تشكيل وحدة عائلية مترابطة واعتماد الصغار علينا يتطلب

نوعاً من سيطرة أحد أفراد العائلة على بقية أعضائها والذكر سيد العائلة يتحتم عليه الدفاع عن بيته الخاص في المستوطنة ذاتها وهذا ما يجعل هناك ثلاثة أشكال من العداء بدلاً من الشكل أو الشكلين العاديين . وكلنا نعرف هذا الأمر جيداً فهو واضح لدينا على الرغم من تعقيدات مجتمعاتنا .

كيف يعمل العداء ؟ ما هي نماذج السلوك المتعلقة به ؟ كيف يرعب أحدنا الآخر ؟ علينا لنجيب على هذه الأسئلة ، أن نتدارس بقية الحيوانات . فاذا ما أثير أحد الحيوانات الثديية الى درجة العدائية يظهر عنده كثير من التبدلات الفيزيولوجية الأساسية . فآلية جسمه يجب ان تكيف نفسها مع الفعل المطلوب عن طريق النظام العصبي الآلي . ويتألف هذا النظام العصبي من أنظمة فرعية متعارضة ومتعاكسة - أي متعاطفة وعدائية . فالأولى تتعلق بالأمور التي تهيء الجسم للنشاط العنيف ، والثانية مهمتها الحفاظ على مخزون الجسم من الطاقات . والأولى تقول ، أنت مستعد للقيام بالفعل - فانطلق ! والثانية تقول تمهل واسترخ وحافظ على قوتك ! وفي الظروف الطبيعية يصغي الجسم الى كلا النظامين محاولاً بذلك ان يخلق توازناً حكيماً بينهما ولكن عندما تثار الغريزة العدائية القوية فانه - اي الجسم - يصغي الى النظام المتعاطف فقط . وعندما ينشط هذا النظام ينساب الادرينالين في الدم وتصبح الدورة الدموية باكملها نشيطة . ويبدأ القلب بالخفقان السريع ويتدفق الدم الى الجلد والعضلات والمخ . وتحدث زيادة في ضغط الدم . كما تزداد نسبة تكاثر الكريات الحمراء في الدم . ويحدث انخفاض في زمن تخثره . وبالاضافة الى ذلك تتوقف عملية الهضم وتخزين الطعام . وتنحسر عملية إفراز اللعاب . كما تتقلص العمليات التالية : حركة المعدة ، افراز العصارات المعوية وحركات الأمعاء . كما أن المعي المستقيم والمثانة لا يفرغان محتوياتهما بسهولة كما هي حالهما في الظروف الطبيعية .

وينطلق الكربوهيدرات المخزن في الكبد، ويغرق الدم بكميات من السكر. ويزداد النشاط التنفسي ويتسارع ويزداد عمقاً . كما تنشط آلية تنظيم الحرارة وينتصب الشعر ويتصبب العرق .

تساعد كل هذه التبدلات في تجهيز الحيوان للمعركة . فهي وكانها بفعل السحر ، تطرد التعب مباشرة وتولد طاقة كبيرة تزجها في الصراع من أجل البقاء . فيضخ الدم بقوة في الأماكن التي هي بحاجة اليه : الى المخ ليساعد على التفكير السريع والى العضلات لتساعد على الحركة العنيفة . ان زيادة السكر في الدم تزيد من فعالية العضلات . كما أن تسارع عملية التخثير يعني أن أي دم يهدر نتيجة الاصابة أثناء المعركة سوف يتخثر بسهولة أكبر وبالتالي يقلل من هدره . كما أن تكاثر الكريات الحمراء في الدم مع ازدياد تسارع حركة الدورة الدموية يساعدان النظام التنفسي على استقبال كمية اكبر من الاوكسجين والتحرر من غاز الفحم . كما أن انتصاب الشعر يعرض الجلد للهواء . ويساعد على تهوية الجسم ، شأن العرق المتصبب من غدده لذا تقل المخاطر من جراء ازدياد الحرارة نتيجة النشاط المستفيض .

ويصبح الحيوان جاهزاً للهجوم بعد أن تكون جميع أنظمة جسمه قد نشطت . لكن هناك عقبة لكل ما تقدم ، قد يؤدي القتال الى نصر مؤزر لكنه يحدث ضرراً كبيراً للمنتصر أيضاً . فالعدو يثير الخوف والعداء وهذا العداء يقود الحيوان الى الأمام اما الخوف فيقوده الى الخلف وينشأ من جراء ذلك صراع داخلي . وبشكل عام فان الحيوان الذي أثير نحو القتال لا ينطلق مباشرة الى الهجوم . فهو يبدأ بالتهديد بالهجوم . فصراعه الداخلي يكبحه الا انه يبقى متوتراً تجاه المعركة وليس مستعداً تماماً لبدأها . فلو حاول خلال هذا التوتر ان يقوم بعرض عدائي نحو خصمه نجد أن هذا الخصم يتسلل هارباً ، وهذا هو المطلوب . ويمكن للمعركة ان تحسم دون إراقة الدماء . فالحيوانات تستطيع ان تسوي خلافاتها دون التسبب في أي ضرر لأفرادها وبالتالي فهي تفيد فائدة كبرى من ذلك .

هناك ميل كبير نحو تسوية الخلافات بين الأشكال العليا للحيوانات ميل نحو معركة شعائرية . فالتهديد والتهديد المعاكس حلا بدلا من المعركة الجسدية الفعلية . الا أن المعركة الجسدية بكل معناها لا تزال بالطبع ، قائمة من حين الى آخر الا أنها ـ اي الحيوانات ـ لا تلجأ اليها الا في النهاية عندما يفشل المؤشر العدائي والمؤشر

العدائي المعاكس في تسوية الخلاف . ان قوة المؤشرات العدائية الفيزيولوجية الخارجية تبين للعدو الى أي حد يجهز الحيوان العدائي نفسه للمعركة . ان هذا الأمر جيد سلوكياً الا أنه فيزيولوجياً يخلق مشكلة الى حد ما . فآلية الجسم تكون قد كيّفت نفسها للقيام بعمل ضخم ، الا ان هذه الطاقات لا تستنفد . فكيف يستطيع النظام العصبي ان يجابه هذا الوضع ؟ لقد زج بكل قواته الى الخط الأمامي ، وأصبحت جاهزة للحركة الا ان مجرد تواجدها يؤدي الى فوزها في الحرب ـ فماذا يحدث الآن ؟

اذا كانت المعركة الجسدية تعقب ، بشكل طبيعي ، كل تلك النشاطات التي تنطلق من النظام العصبي المتعاطف فان جميع التجهيزات التي قامت بها ستستخدم كلياً . إن طاقة الحيوان ستحرق وبالتالي فالنظام العصبي العدائي سيؤقلم نفسه وبالتدريج يستعيد حالة الهدوء الفيزيولوجي . لكن أثناء الصراع المتوتر بين العدائية والخوف ترجأ الأمور . وتكون النتيجة ان يستنفر النظام العصبي العدائي ، ويبدأ القتال فيتأرجح النواس الفيزيولوجي ذات اليمين وذات اليسار بهيجان . وكلما تلاشت لحظات التهديد والتهديد المعاكس نشهد ومضات من النظام العصبي العدائي تتخلل أعراض التعاطف . ويفسح جفاف الفم المجال أمام تزايد اللعاب . كما تنهار تقلصات الأمعاء ويحدث التغوط الفجائي كما ينطلق البول المكبوت في المثانة بقوة .

وتنعكس عملية تدفق الدم من الجلد ويزداد احمراره وتوهجه وتضطرب عملية التنفس السريع ويؤدي ذلك الى التنهيدات أو اللهاث . ان كل ذلك عبارة عن محاولات مستميتة من جانب النظام العصبي العدائي ليتوازن مع الاسراف الظاهر للنظام العصبي المتعاطف . ففي الظروف الطبيعية لا مجال لرد فعل شديد ليظهر في اتجاه واحد وفي وقت واحد مع رد فعل آخر وباتجاه آخر ولكن في الظروف غير الطبيعية الشديدة للتهديد العدائي . لا تنضبط الأمور آنيا . (هذا الأمر يفسر لماذا يلاحظ الاغماء ، في حالات الصدمة الشديدة ؟ وفي هذه الحالات فان الدم الذي اندفع الى المخ يتراجع بقوة كبيرة مما يؤدي الى فقدان الوعي المفاجىء) .

اما بالنسبة لمؤشرات التهديد فان هذا الاضطراب الفيزيولوجي الذي يصحبها هو بمثابة (نعمة) . لأنه يزودنا بمصدر جديد وغني آخر من المؤشرات . فأثناء مرحلة التطور تتصاعد هذه المؤشرات المزاجية عبر عدد من الطرق . فالتغوط والتبول أصبحا علامة ذات رائحة تتعلق بالأرض التي يستوطنها نوع من أنواع الحيوانات الثديية . ان أكثر الأمثلة شيوعاً هي ما نلاحظه لدى بعض الحيوانات الداجنة : فالكلاب ترفع أحد ساقيها وتتبول على عمود ضمن مستوطنتها . ويزداد هذا الفعل أثناء المجابهة التي تنشأ بين كلبين خصمين (ان شوارع مدننا تتيح المجال لهذا الفعل لأنها تتألف من عدة مستوطنات معادية ويتوجب على كل كلب أن يشم كل ما يمكن ان يدل على هذه المستوطنات في محاولة للتنافس فيما بينها) . ولقد أصبح لدى بعض الحيوانات أساليب متطورة في التغوط . فحيوان فرس النهر اكتسب ذنباً مسطحاً خاصاً يهتز بسرعة الى الأمام والخلف أثناء التغوط . وتكون نتيجة ذلك انه يستطيع قذف ما يتغوطه ونشره على مساحة واسعة . ولقد تطورت لدى بعض الحيوانات غدد شرجية خاصة تضيف رائحة شخصية قوية على روثها .

إن اضطراب الدورة الدموية اثناء الانفعال الشديد والذي يتسبب في امتقاع الوجه واحمرار أماكن أخرى من الجلد ، أصبح من المؤشرات المحسنة لدى المخلوقات . وان أصواتاً كالحفيف واللهاث اللذين يعتبران اضطرابا في التنفس قد تطورت الى زمجرات وأصوات أخرى عدائية . وقد قيل ان مرد ذلك الى أصل نظام التخاطب عبر المؤشرات الصوتية . وهناك ظاهرة اخرى تطورت عبر الاضطراب التنفسي هي ظاهرة التضخم . فالكثير من الأنواع الأخرى تنفخ نفسها أثناء التهديد ، وهناك عدد منها تضخمت جيوبها الهوائية (هذا الأمر شائع بشكل خاص بين الطيور التي لديها مثل هذه الجيوب كجزء أساسي من نظامها التنفسي) .

ان الانتصاب الشعري العدائي قد ادى الى نمو مناطق متخصصة كالعرف او ريش العنق او شعر الكتف أو هدب على جبهة الرأس . ان هذه المواطن وبقع الشعر الأخرى أصبحت ظاهرة للعيان تماما . فالشعر أصبح طويلاً وقاسياً . كما تعدل لونه

جذرياً ليحدث تناقضاً بيّناً مع الفراء المحيط. وعندما يثار الحيوان وينتصب شعره يبدو بحجم أكبر وأكثر ارعابا كما تصبح هذه البقع الشعرية أكبر حجماً وأكثر لمعاناً .

وقد أصبح العرق العدائي مصدر آخر للمؤشر ذي الرائحة . وفي كثير من الأحيان استغلت ظاهرة التطور هذه الميزة المتخصصة . لقد أصبحت بعض الغدد العرقية متضخمة بشكل هائل وتطورت الى غدد ذات افرازات لها رائحة قوية . ويمكن أن نتحرى عن هذه الغدد على الوجه والقدمين والذنب وبعض الأجزاء الأخرى من أجسام الكثير من أنواع الحيوان .

ان كل هذه التحسينات قد غذت نظام التخاطب بين الحيوانات وصعدّت أساليب التفاهم فيما بينها . فهذه المؤشرات الخارجية تجعل السلوك المهدد للحيوان المثار مفهوماً لدى الحيوانات الأخرى .

الا أن ذلك ليس الا نصف القصة . فما كنا نناقش سوى المؤشرات البدنية فقط وبالاضافةالى كل هذه المؤشرات هناك عددكبير من المؤشرات المتوفرةالتي تنطلق من الحركات العضلية المشدودة ومن وقفات الحيوان المهدد . وكل ما فعله النظام الفيزيولوجي هو ملاءمة الجسد واستعداده للحركة العضلية ولكن ماذا فعلت العضلات ؟ لقد تقلصت هذه العضلات استعداداً للمعركة لكن المعركة لم تحن بعد وتكون عاقبة هذا الوضع سلسلة من الحركات العدائية ووضعية الصراع . ان ردود الفعل العكسية التي تحث الحيوان على الهجوم او الهرب تسحب الجسم باتجاهين متضادين فيبدأ الحيوان بالقفز الى الأمام أو التراجع الى الخلف أو يميل الى جانبيه أو يتقوقع ويقفز الى الأعلى ويتكىء ويميل بجسمه الى الخلف . وفي اللحظة التي يتفوق فيها عنده دافع الهجوم نجد ان رد الفعل العكسي يتغلب فوراً على ردود الفعل الأخرى فكل حركة تراجعية توقفها حركة نحو الهجوم . وأثناء مرحلة التطور فان هذه الاضطرابات الفيزيولوجية قد تخصصت وتعدلت بحيث أصبحت وقفات مهددة متخصصة في العداء . ان الحركات ذات النوايا أصبح لها اسلوبها من التمايل المنتظم

الايقاع والاهتزاز . كما أن هناك عدداً كبيراً من المؤشرات العدائية التي تطورت واتقنت .

ونتيجة لذلك فاننا نشاهد طقوساً في التهديد معقدة لدى الأنواع الكثيرة من الحيوانات حيث تتخلل هذه الطقوس ضروب من الرقص الذي يسبق المعركة .

فالحيوانات المتعاركة تتحلق حول بعضها في وقفات مائلة بحيث تصبح أجسامها مشدودة وقاسية . فقد تنحني او تهز برأسها او تهتز أو ترتعش او تتمايل ايقاعياً ذات اليمين وذات الشمال أو تقوم بالركض القصير والمتكرر وقد تضرب الأرض بمخالبها أو تقعي على ظهورها أو تخفض رؤوسها . ان كل هذه الحركات تمثل مؤشرات في التخاطب وتتحد بشكل فعال ، مع المؤشرات الفيزيولوجية لتقدم صورة دقيقة عن شدة العداء الذي أثير وتصبح دليلاً قاطعاً على التوازن بين دوافع الهجوم ودوافع الهرب .

لكن هناك المزيد من الكلام حول هذا الموضوع . هناك مصدر هام لمؤشرات خاصة تنشأ من زمرة سلوكية سميت بالنشاط المنحرف . ان واحداً من التأثيرات الجانبية للصراع الداخلي الشديد هو أن الحيوان يلجأ احياناً الى استعراض شرائح سلوكية غريبة ولا علاقة لها بالوضع الجديد الذي يتعرض له الحيوان . وكأن هذا الحيوان المثار غير قادر على القيام بأي عمل يتطلبه وضعه الجديد ولذا يلجأ الى منفذ آخر لتفريغ هذه الشحنات من طاقاته بالقيام بنشاط لا يمت إلى واقعه بصلة . ان دوافعه في الهرب تمنع عليه دوافعه في الهجوم والعكس صحيح لذا يصرف مشاعره في منفذ آخر . فالخصوم المهددة يمكن أن تلجأ الى حركات غير كاملة توحي بحاجتها الى الطعام ثم تعود فجأة الى وضعية التهديد ثانية . وقد تحض أو تنظف نفسها بطريقة من الطرق ويتخلل هذه الحركات بعض الحركات الأخرى كالمناورة المهددة . وتؤدي بعض الأنواع الأخرى نشاطاً منحرفاً يأخذ شكل القيام ببناء العش كالتقاط مواد بناء هذا العش التي يتفق أن تلقاها هذه الطيور بجانبها ثم تسقطها في أعشاشها

الوهمية . كما تلجأ بعض الحيوانات الى (النوم الآني) فتتقوقع فجأة أو تتثاءب أو تتمطى .

لقد دارت نقاشات مستفيضة حول هذه النشاطات المنحرفة . وقال بعضهم انه ليس هناك مبرر موضوعي لاعتبارها (منحرفة) . فاذا اكل الحيوان فهو جائع واذا حك جلده فلانه بحاجة الى ذلك . كما ان هؤ لاء شددوا على انه من غير المحتمل اثبات ان الحيوان المهدد ليس جائعاً عندما يقوم بهذه الحركات المسماة (بالنشاط المنحرف) او انه لا يحتاج الى الحك عندما يحك جلده . الا ان هذه الانتقادات تصدر عن اناس يقبعون في كراس وثيرة ويصدرون احكاما غير ملتزمة وتبدو مضحكة بالنسبة للعالم الدارس والمراقب للعديد من انواع الحيوانات . ان التوتر والحركة اللذين يصحبان هذه اللحظات يجعلان من المستحيل أن نتصور أن هذه الحيوانات المتنازعة تتوقف فجأة لتأكل لمجرد الاكل أو تحك نفسها لمجرد الحك أو تنام لمجرد النوم .

وعلى الرغم من الجدل الأكاديمي حول مسببات الحركات في احداث النشاط المنحرف ، يتضح امر واحد وهو ان هذا النشاط المنحرف يزود الحيوان بمؤشرات تهديدية اضافية قيّمة ، وهذا من حيث توظيف هذا النشاط المنحرف . ولقد بالغ الكثير من هذه الحيوانات في تأدية هذا النشاط بحيث اصبحت ظاهرة للعيان واستعراضية .

ان كل هذه النشاطات ثم المؤشرات الجسدية والحركات ذات النوايا والوقفات المعادية والنشاط المنحرف تأخذ شكل طقوس تزود الحيوان بمجموعة من المؤشرات العدائية . ففي معظم المجابهات تصبح كافية لحسم الخلاف دون تورط المتخاصمين في مجابهة جسدية . ولكن اذا فشل هذا النظام ، كما يحدث ذلك غالباً في ظروف من الاحتشاد الأقصى مثلا، عندئذ ، يعقب القتال الفعلي وتفسح المؤشرات المجال امام الهجوم الجسدي ذي الحركة الوحشية . بعد ذلك تستخدم الاسنان للعض والرأس والقرون للنطح والجسم للدك او الصدم والدفع والساقان والمخلبان للرفس واليدان للمسك والعصر واحيانا الذنب للضرب والجلد . وعلى الرغم مما تقدم يندر أن يقتل

احد الخصوم الآخر . فالأنواع التي تطورت لديها أساليب قتل فريستها يندر أن تستخدم أساليبها القتالية في القتال مع ابناء نوعها (لقد ارتكب بعضهم خطأ فادحاً فيما يتعلق بهذا الموضوع كما انهم يخلطون بين سلوك الهجوم على الفريسة وبين سلوك الهجوم على الخصم . ان السلوكين متميزان في الدوافع وفي اظهار كل منهما . حالما يرضخ العدو بشكل كاف ، يتوقف عن تشكيل مصدر للتهديد وبالتالي يتجاهله خصمه . ولا حاجة لهدر أي طاقة أو جهد حياله ويسمح له عندئذ بالهرب دون احداث أي ضرر أو اضطهاد له .

وقبل ان نقابل هذه النشاطات الحيوانية بنشاطاتنا البشرية هناك جانب آخر من العدائية الحيوانية التي لابد من ذكرها . وهي تتعلق بسلوك الخاسر فانه عندما يصبح مركزه مقلقلا فالأمر الواضح الذي يجب ان يقوم به هو أن يزيح نفسه من هذا الوضع بأسرع مايمكنه . لكن هذا الأمر ليس ممكناً دائماً . فطريق الهرب يمكن أن يكون مسدوداً من الناحية الفيزيولوجية . وإذا كان عضواً في نوع من الأنواع الاجتماعية الدقيقة الارتباط ، فقد يجبر على البقاء ضمن مدى المنتصر . وفي كلا هاتين الحالتين لابد له من ان يشير الى الحيوان الأقوى انه لم يعد يشكل تهديدا وانه لا يرغب في استمرار القتال . فاذا ترك الأمر حتى يصبح منهكا جسدياً أو مجروحاً جروحاً خطرة فان خصمه سيتركه في سلام . أما اذا اشار الى قبونه الهزيمة قبل أن يصل مركزه الى درجة من السوء فانه سيتمكن من تجنب عقاب اكثر شدة . انه يحقق هذا الأمر عبر قيامه باستعراض يدل على خضوعه . وبالتالي فان هذا الاستعراض يهدىء المهاجم ويخفف من عدائيته ويسرّع تسوية الخلاف .

ان هذا الاستعراض يتخذ عدة اشكال . فهو اي الحيوان ، اما ان يتخلى عن المؤ شرات التي اثارت العداء أو انه يتبنى مؤ شرات ايجابية اخرى غير عدائية . فالزمرة الأولى من المؤ شرات تهدىء الحيوان بينما الزمرة الاخرى تساعد بشكل فعال على تغيير مزاجه الى شيء آخر . ان الشكل الصارم من الرضوخ هو عدم الفعالية المطلقة . وبما ان العداء يتطلب حركة عنيفة فالوقفة الساكنة تشير بشكل تلقائي الى عدم العداء .

وغالبا ما تتخذ هذه الوقفة وضعية الانكماش والتقوقع . فالعداء يتطلب تمديد الجسم الى اقصى حد اما التقوقع فيعكس هذه الوضعية لذا يعمل كمهدىء . ان عدم مواجهة المهاجم يساعد ايضا حيث تصبح هذه الوضعية غير امامية او انها معاكسة لجبهة الهجوم . وتستخدم وضعيات اخرى معاكسة للهجوم ايضا . فاذا ماهدد حيوان ما باتخاذ موقف خفض الرأس عندئذ فان رفع الرأس يمكن أن يشكل التفاتة مهدئة ذات قيمة . فاذا انتصب شعر المهاجم ثم عاد الى وضعه السابق فان ذلك يعتبر وسيلة تدل على الرضوخ . وفي الحالات النادرة فان الخاسر سيقر بهزيمته بمنح المهاجم ساحة غير محصنة . فالشمبانزي مثلا يمد يده كتعبير عن رضوخه ويمدها الى اقصى حد ويجعلها غير محمية من العض المؤذي وبما ان الشمبانزي العدائي لا يفعل مثل هذا الأمر ، فان هذه البادرة من الشمبانزي الراضخ تخدمه في تهدئة الشمبانزي المهاجم .

ان الزمرة الثانية من المؤشرات المهدئة تعمل كوسائل لاعادة النظر في الدوافع . وهذا الحيوان الراضخ يبث هذه المؤشرات التي تحث التجاوب غير العدائي وبالتالي فانها ـ تفعل فعلها في كبح دوافع الحيوان المهاجم . ويؤدي الحيوان هذه المؤشرات في ثلاث طرق رئيسية . ان هذه المؤشرات غير العدائية الاكثر شيوعا هي تلك التي يتبنى فيها الحيوان وضعية المستجدي للطعام . فالفرد الأضعف يتقوقع ويستجدي الحيوان المهيمن على الطعام . هذه الوضعية تفضلها الاناث عندما يهاجمها الذكور . وتصبح هذه الوضعية فعالة في أغلب الأحيان فيلجأ الذكر عندئذ ، الى اجترار بعض الطعام ويقدمه الى الانثى التي تكمل هذه الشعار بتناول الطعام وابتلاعه . والآن نجد الذكر يفقد هذه العدائية عبر تبني سلوك الحماية ، ومن ثم يهدىء الحيوانات . هذه هي القواعد الاساسية في الاشتراك في تناول الطعام لدى الكثير من الأنواع وخاصة الطيور حيث المراحل المبكرة لتكوين الارتباط الزوجي تتطلب الكثير من العدائية من الذكر . وهناك مؤشر آخر في اعادة النظر في الدوافع وهو تبني الحيوان المستضعف لوضعية جنسية انثوية . وبغض النظر عن جنسه أو عن ظرفه الجنسي فقد يحاول أن يلعب دور الأنثى في وضعيته الانثوية . فهو عندما يتبنى

هذه الوضعية يخفف من حدة العداء لدى خصمه المهاجم . وعندما يثار الحيوان في ظروف كهذه فان الذكر او الانثى يعتلي الحيوان الآخر المستضعف يجامعه أو يجامعها حسبما يتطلبه الوضع .

أما المؤشر الثالث لاعادة النظر في الدوافع فيتطلب اثارة المزاج نحو قبول الجماع اما فاعلا او مفعولا به . فالحيوان الاضعف اما ان يدعو الحيوان القوى الى ملاطفته أو يبث مؤشرات تتطلب السماح بالقيام بالملاطفة التي تسبق الجماع . وتلجأ السعادين كثيرا الى استخدام هذه الوسائل ويصحب هذه الوسائل بعض التعابير الوجهية التي تتألف من تلمظ الشفتين .

وعندما يلاطف السعدان سعدانا آخر فانه يلجأ الى المبالغة في حركاته وينجح في كبح عداء المهاجم ويقنعه بالاسترخاء ومن ثم يسمح بأن يعتلى . وبعد فترة من الزمن يهدأ الحيوان المهيمن من جراء هذه المبادرات ومن ثم يستطيع الحيوان الأضعف ان ينجو بنفسه دون ان يصاب بأذى .

هذه اذن ، هي الشعائر والوسائل التي تستطيع بها الحيوانات ان تحل مشاكلها العدائية . ان العبارة التي تقول الطبيعة حمراء الاسنان والمخالب ، كانت تشير في الأصل الى النشاطات المتوحشة لقتل الفريسة لدى الحيوانات الآكلة للحوم ولكنها عبارة خاطئة في تعميمها على جميع الحيوانات المقاتلة . فهي بعيدة كل البعد عن الحقيقة . ولو كتب «للنوع» البقاء فلا يمكن له الاستمرار في قتل ابناء نوعه . هناك

عداء داخلي محدد يجب توفره وضبطه . وكلما كانت اسلحته القوية العنيفة فتاكة كان لابد له من توفر كوابح تحد من استخدامها في تسوية الخلاف . هذا هو قانون الغابة ، حيث تسوى الخلافات حول الارض أو الحكم . ان تلك الأنواع التي فشلت في اطاعة هذا القانون قد انقرضت منذ زمن بعيد .

والآن كيف يمكن أن نقارن أنفسنا بالحيوان وفي ظروف مماثلة ؟ ماهو مخزوننا من المؤشرات المهددة والمهدئة ؟ ماهي طرق قتالنا وكيف نتحكم بها ؟

ان الاثارة العدائية تحدث لدينا كل التغيرات الفيزيولوجية والتوترات العضلية وبقية التوترات التي مرّ ذكرها عن الحيوانات . فنحن كبقية الأنواع نظهر عدداً متنوعاً من النشاطات المنحرفة الا اننا لا نستطيع في بعض المجالات ان نطور هذه التجاوبات الأساسية الى مؤشرات قوية فنحن مثلا ، لا نستطيع ان نعادي خصمنا عن طريق انتصاب شعرنا مع العلم أن شعرنا ينتصب في لحظات الصدمة العنيفة جدا (انتصب شعر رأسي) . ولكن أن يصبح مؤشرا فلا جدوى من ذلك . أما في مجالات اخرى فنستطيع ان نفعل افضل من ذلك . ان عرينا بذاته الذي يمنع انتصاب شعرنا بشكل فعال يعطينا الفرصة لبث مؤشرات امتقاع الوجه أو اصفراره . فقد يصفر لون وجهنا عند الغضب الشديد ، أو يحمر عند مجرد الغضب أو يشحب عند الخوف . انه اللون الاصفر الذي يجب ان نراقبه هنا . فاذا تضافر ذلك مع الافعال الاخرى التي تعني مؤشرات هجومية فعندئذ يصبح مؤشرا خطرا . اما اذا تضافر مع مؤشرات الخوف فانه يصبح مؤشرا للفزع . وسبب هذا المؤشر كما نعلم جميعا ، عملية تنشيط للنظام العصبي المتعاطف اي نظام (الانطلاق) ويجب الا نستهين به . اما احمرار الوجه ، من جهة اخرى ، فهو اقل اهمية : لأن مسببه هو تلك المحاولات المقابلة لتوازن الهيجان في نظام النشاط العدائي وانه يعني ان (الانطلاق) قد خمد . اما الوجه الأحمر للعدو المغضب الذي يواجهك فهو ابعد من ان يهاجمك كما يفعل ذو الوجه الاصفر المطبق الشفتين . فذو الوجه الأحمر يعاني صراعا داخليا مكبوتا بخلاف ذي الوجه الأصفر المستعد للقتال . الا انه لا يمكن الاستخفاف بهاتين الزمرتين . والمرجح ان ذا الوجه الأصفر ينطلق في هجومه الا اذا هدىء مباشرة أو قابله تهديد أكثر قوة من خصمه .

كذلك أيضاً فان التنفس العميق مؤشر خطر الا انه يصبح اقل تهديداً عندما يتطور الى شخير او غرغرة . وتتواجد العلاقة ذاتها بين الفم الجاف الذي يرافق

الهجوم الأولي وسيلان اللعاب المرافق للتهجم الشديد المكبوت اما التبول والتغوط والاغماء فتأتي متأخرة وهي تعقب الصدمة الضخمة التي ترافق لحظات التوتر الشديد .

وعندما تنشط دوافع الهجوم والهرب بشكل قوي وفي آن واحد فاننا نظهر حركات تدل على نوايانا . ان اكثر هذه الحركات شيوعا هي رفع قبضة اليد ـ حركة اصبحت طقسية تعمل على مستويين فنحن نؤديها عن بعد من الخصم وحيث تصبح بعيدة عن الضرب بها . وهكذا نجد أن وظيفتها لم تعد آلية بل أصبحت مؤشراً مرئياً .

كما اصبحت حركة طقسية باضافتها لحركات الساعد الأمامية والخلفية . اما هز القبضات من هذا القبيل فهو ظاهرة مرئية اكثر منها آلية اننا نقوم بحركة أو بحركات متكررة بقبضتنا ولكن هذه الحركات تبقى بعيدة .

وبينما نحن نؤدي هذه الحركات فان الجسم بأكمله يقوم بحركات تتحكم بنفسها من التوغل والمبالغة كثيرا قد نضرب الأرض باقدامنا وبقوة ونهوي بقبضتنا على اقرب شيء في متناول يدنا ان هذا السلوك الأخير يلاحظ عند الحيوانات الأخرى ويسمى بالنشاط المنحرف التوجيه ، ومايحدث هو التالي : بما ان الخصم (او الشيء) المثير للهجوم مخيف جدا بحيث لا يمكن ان يوجه اليه الهجوم مباشرة لذلك تنطلق المؤشرات العدائية وتنحرف باتجاه شيء اقل عدائية كالشخص الحيادي الذي يشهد الخلاف أو شيء جامد (عانينا جميعا هذا الأمر في وقت من الأوقات) . فاذا صادفنا شيئا جامدا فاننا نحطّمه تحطيماً ساحقاً . فعندما تحطم الزوجة مزهرية على الأرض، فهذه المزهرية تمثل بالطبع رأس زوجها .

والجدير بالاهتمام هو أن الشمبانزي والغوريللا غالباً مايفعل كل منهما ذلك بطريقته الخاصة كأن تحطم وتقذف بغصون الأشجار والنباتات من حولها . ولكن ذلك يبقى أيضاً انطباعاً مرئياً قوياً .

ويصاحب كل هذه الأفعال العدائية بعض التعابير الوجهية المتخصصة والهامة فهذه بالاضافة الى المؤشرات الصوتية تزودنا بأدق وأحسن طريقة للتخاطب مع الآخرين ونقل الانطباع عن مزاجنا بكل دقة وعلى الرغم من أن ابتسامتنا التي تظهر على وجوهنا والتي ناقشناها في فصل سابق هي ظاهرة فريدة في نوعها تبقى وجوهنا العدائية على الرغم من شدة تعبيرها ، وجوها مشابهة في تعبيرها لجميع الرئيسيات العليا الاخرى . (فنحن نستطيع أن نميز بنظرة واحدة بين وجه سعدان غاضب وسعدان خائف ولكن علينا أن نتعلم كيف نتعرف على وجه سعدان ودود) . ان السبيل الى ذلك سهل : كلما كان دافع الهجوم مهيمنا على دافع الهرب اصبح الوجه مشدودا الى الأمام وعندما تكون الحالة عكسية وعندما يسيطر الخوف عندئذ تصبح كل تفاصيل الوجه مشدودة الى الخلف ، فأثناء الهجوم يقطب حاجبا الوجه وتلتمع الجبهة وتندفع زوايا الفم الى الأمام كما تطبق الشفتان على بعضهما بحيث نشكلان خطاً افقياً على الوجه . أما إذا هيمن الخوف على المزاج فيظهر الوجه الخائف من التهديد عندئذ وقد ارتفع الحاجبان وتتخلل الجبهة التجاعيد وتسحب زوايا الفم الى الخلف وتفترق الشفاه معرضة الاسنان للعيان ويرافق مظهر هذا الوجه التعابير الاخرى العدائية اذ ان ظهور الاسنان بهذا الشكل يصبح من المؤشرات الرهيبة .

ولكنها في الحقيقة مؤشرات الخوف اذ ان الوجه يزودنا بمؤشرات اخطار مبكرة تنذرنا بتواجد الخوف على الرغم من استمرار تواجد الحركات العدائية التي تؤديها بقية اعضاء الجسم . لكنه يبقى وجها مهددا ولا يمكن الاستخفاف به فاذا عبر الوجه عن الخوف الشديد فانه يتخلى عن انشداده وبالتالي سينسحب الخصم .

ان كل هذه التعابير الوجهية نشترك بها مع السعادين الا اننا طورنا تعابير وجهية اخرى لابل اكتسبناها ، مثل مد اللسان او نفخ الخدين او شد الأنف او زيادة تجاعيد الوجه التي تضيف اضافة كبيرة الى مخزوننا من التعابير المهددة . وقد اضافت معظم الشعوب عددا متنوعا من التعابير المهددة او المهيمنة باستخدامها لبقية اعضاء جسمها فهناك حركات ذات دلالات تطورت الى رقصات حرب عنيفة

ذات اسلوب متطور جدا ان وظيفة هذه الحركات اصبحت اشارة جماعية وتناغما جماعيا ذا مشاعر عدائية قوية بدلاً من كونها استعراضا مرئيا مباشرا تجاه العدو .

وبما ان تطورنا الحضاري أدّى الى تطور في الاسلحة الاصطناعية المميتة ، فقد اصبحنا نوعا خطرا وليس غريبا ان نجد لدينا عددا كبيرا من المؤشرات المهددة . فنحن نشارك الرئيسيات الاخرى التجاوبات الراضخة الاساسية التي تتخذ شكل التقوقع والصراخ . وبالاضافة الى ذلك فقد استنبطنا عددا كبيرا من الاستعراضات الفرعية . فالتقوقع نفسه قد توسع بحيث اصبح يشمل الانبطاح على الارض وهناك تعديلات طفيفة لهذا التقوقع هي الركوع والانحناء كشكل من الاشكال الاحترام بين الناس . ان المؤشر الرئيسي هنا هو خفض الرأس تجاه الشخص ذي المركز الأهم وعند التهديد فاننا نوسع جسدنا قدر استطاعتنا جاعلين جسمنا طويل القامة قدر الممكن اما السلوك الراضخ فلابد من ان يتخذ الوضعية المضادة وجعل الجسم متقوقعا الى ابعد الحدود وبدلاً من ان نفعل ذلك بطريقة اعتباطية فقد تبنينا اسلوبا في كل مرحلة محددة ولكل مرحلة مؤشرها الخاص بها وسلوك التحية هنا جدير بالاهتمام .

فللوهلة الاولى تبدو التحية العسكرية حركة عدائية . فهي تشبه حركة رفع القبضة المهددة الا ان الاختلاف الكبير بينهما هو في كون اليد غير مطبقة وهي تشير الى القبعة . انها بالطبع اسلوب معدل لرفع القبعة ، الذي كان في الأصل ، جزءا من عملية خفض قامة الجسم .

ان اشتقاق حركة الانحناء من حركة التقوقع القديمة البدائية أمر جدير بالاهتمام أيضا والملامح الاساسية لحركة الانحناء هي خفض النظر . لأن التحديق نموذج من نماذج العداء . انه جزء من تعابير الوجه القاسية وهو يصحب بقية الحركات ومهما قللنا من المدى الذي تذهب اليه الانحناءة حسب الاعراف الاجتماعية ، فان خفض الرأس يبقى واردا . فالاعضاء الذكور في العائلة المالكة

مثلا بدلا من تكرار حركات الانحناء المملة قد عدلوها لتصبح مجرد خفض الوجه من عند الرقبة بدلا من الخاصرة ولكن بشكل صارم .

اما في الظروف الرسمية الاقل اهمية فان السلوك المضاد الذي يقابل التحديق يتشكل من النظر الى الجانبين او تجاهل ذلك التحديق . ولا يستطيع احد ان يحدق فيك لفترة من الزمن الا اذا كان يعاديك . عداء حقيقيا . ونحن اثناء التخاطب وجها لوجه ننظر بعيداً عن الذي نخاطبه ثم ننظر اليه في نهاية كل جملة او فقرة لنتحقق من تجاوبه مع مانقوله له . ان المحاضر في الجامعة ياخذ بعض الوقت ليدرب نفسه على النظر مباشرة الى مستمعيه بدلا من ان ينظر فوق رؤ وسهم او الى جوانب القاعة . حتى لو كان مسيطرا تماما على الكثير منهم وهم يحدقون فيه ، الا انه يشعر بشيء من الخوف الجوهري يتملكه منهم . ولا يستطيع ان يتغلب على احساسه هذا الا عن طريق التدريب . ان احساس الممثل بالخوف من المستعمين اليه وهم يحدقون فيه هو سبب تلك الازعاجات المعوية التي يعانيها هذا الممثل وهو يشق طريقه الى خشبة المسرح . فهو دائم القلق حول نوعية تمثيله وتقبله من قبل الجمهور الا ان تحديقهم المهدد خوف اضافي بالنسبة له (هذا ايضا الظرف الذي ينسب عدم التمييز بين التحديق المهدد والتحديق الفضولي) فوجود النظارات الطبية او الشمسية على الوجوه يجعل تلك الوجوه تبدو وكأنها وجوه عدائية لانها توسع بشكل اصطناعي حجم تلك الحملقة . فاذا نظر الينا احد يرتدي النظارات فذلك يعني وكأنه يطيل التحديق فينا . والاناس اللطيفو المعشر يميلون الى انتقاء النظارات ذات الاطارات الرقيقة (وهم اغلب الاحيان لا يعرفون لماذا يفعلون ذلك) لان ذلك يجعلهم يرون بشكل افضل مع ادنى حد من المبالغة في التحديق . وبهذه الطريقة فهم يتجنبون اثارة العداء المضاد .

اما تلافي التحديق فيتم عن طريق تغطية الوجه باليدين او دفن الوجه في مرفق الذراع . إن مجرد اسدال الجفنين على العينين يحد من التحديق . ويحضرنا هنا ان نذكران بعض الناس يلجأون الى رفرفةالعينين اثناء التحدث الى الآخرين ولكن

ذلك يختفي عندما يتحاورون مع الأصدقاء أو وهم في ظروف يشعرون بارتياح معها . فاذا كانوا يحاولون أن يوقفوا تهديد الآخرين إياهم أو أنهم يحاولون ان يخففوا من نسبة تحديق الآخرين فيهم أو كلا الحالين فالأمر غير واضح تماماً .

وبقصد التأثير تطورت لدى الكثير من انواع الحيوان بقع بصرية في عيونها تحدق وتصبح عبارة عن آلية للدفاع عن النفس . فالكثير من الفراشات لها علامتان على اجنحتها على شكل عينين . وان هاتين العينين المزيفتين مختبئتان حتى اذا هاجمها مخلوق آخر فان جناحيها ينفرجان عندئذ وعيناها تومضان في وجه العدو . ولقد ثبت عبر التجارب ان هذه الوسيلة تزود الفراشات بتأثير عدائي قيّم على اعدائها التي تهرب دون احداث أي ضرر لها . لقد تبنى الكثير من أنواع السمك والطيور والثدييات هذه الوسيلة العدائية . حتى جنسنا البشري قد استخدم الوسيلة ذاتها أحيانا (ربما عن غير وعي منه) . فمثلا صانعو السيارات استخدموا المصابيح الأمامية بهذه الطريقة وغالبا مايضيفون انطباعا اجماليا عدائيا في تشكيل واجهة السيارة على شكل تقطيب الحاجبين . وبالاضافة الى ذلك فقد صمموا اسنانا اصطناعية على شكل قضبان حديدية بين المصابيح . وبما أن الطرقات اصبحت مزدحمة واصبحت قيادة السيارة امرا خطرا لذا فان وجه السيارة المهدد قد دخل عليه التعديل والتحسين مما اعطى لسائقي هذه السيارات صورة عدائية اكبر . اما في المجالات الضيقة فقد لجأ بعض صانعي المواد الى اعطاء منتجاتهم اسماء ذات صبغة مهددة مثل «اوكسو . اومو . اوزو . أو اوفو» ولحسن حظ المنتجين فان الزبائن لم يرفضوا هذه المنتجات بل على العكس ، فان هذه المنتجات لفتت انتباههم وبالتالي فهم الزبائن ان هذه المنتجات ليست سوى علب من الكرتون لا ضرر منها . لكن الانطباع الذي تحدثه هذه المنتجات في ذهن المستهلك قد ادى الى زيادة حجم مبيعاتها اكثر من غيرها .

لقد ذكرنا سابقا ان الشمبانزي يلجأ الى مد يده تجاه خصمه كوسيلة لتهدئة ذلك الخصم . ونحن نشارك في هذه البادرة ولكن بشكل مختلف كأن نستجدي او

نناشد الآخرين مثلا . كما أننا تبنينا هذه البادرة في ظروف اخرى كالمصافحة والتحية مثلا . فالبادرة الودودة قد نشأت عن السلوك الراضخ . ولقد رأينا سابقا كيف يتم ذلك عن طريق الضحك أو الابتسام (كلاهما يظهر عرضيا ، في ظروف تهدئة الآخرين) . ان المصافحة تظهر اثناء الاحتفاء المتبادل بين الأفراد ذوي الرتب والطبقات المتساوية الى حد ما الا انها اي المصافحة - تحولت الى انحناءة لتقبيل اليد الممدودة حيث لا تتساوى الرتب بين الشخصين (وبازدياد المساواة بين الجنسين أو الطبقات اصبحت ظاهرة تقبيل اليد امرا نادرا هذه الأيام الا انها تتواجد بين المجتمعات التي تحكمها الهيمنة الطبقية كما هو الحال في الكنيسة)

هناك الكثير من السلوك الراضخ لدى الأمم الأخرى كرفع الراية البيضا مثلا . لكن هناك وسيلة أو وسيلتين في تهدئة السلوك العدائي يجب ان نذكرها هنا لانها تتشابه من حيث مضمونها مع نماذج السلوك لدى الأنواع الأخرى من الكائنات . فنحن نذكر كيف يلجأ بعض صغار الحيوان الى سلوك انثوي امام افراد عدائيين وذلك لاثارة مشاعر غير عدائية لديه وكبح عدائيته . اما لدى البشر فهذا السلوك الراضخ الذي يلجأ اليه المراهقون الراضخون شائع اثناء فترة المعاشرة . فالشاب والفتاة يتحدثان في امور صبيانية وذلك لان احاديث من هذا القبيل تثير مشاعر الابوة او الامومة الرقيقة والحامية للشريكين الا انها تكبح المشاعر الاكثر عدائية بينهما (او الاكثر تخويفا) .

ان سلوك المعاشرة الذي تلجأ اليه الطيور يتألف من الاطعام المتبادل الذي نلجأ اليه نحن البشر ايضا . فنحن لا نكرس الوقت اثناء حياتنا لنقوم بمثل هذه الأمور كتقديم علب الشوكولا او قذف اللقم اللذيذة في فم الآخر اثناء فترة المعاشرة .

أما بالنسبة لاعادة تكييف الدافع في مجال الجنس فان ذلك يحدث عندما يتبين الذكر أو الانثى الادنى موقفا انثويا تجاه ذكر أو انثى مهيمنين ولكن هذا الموقف ليس موقفا جنسيا في مضمونه الحقيقي بل هو موقف عدائي . وهذا الأمر شائع وبخاصة عند النساء حين يتبنين وقفة جنسية بغرض تهدئة العدائية عند الفرد الآخر .

وهناك مثال آخر لاعادة تكييف الدافع وذلك عندما يمسد أو يربت احد على كتف شخص آخر بغرض تهدئته .

اما النشاطات المنحرفة فتلعب ايضا دورا في مجابهاتنا العدائية وتظهر في كل اوقات التوتر ، فنحن نختلف عن الحيوانات في اننا لا نجد انفسنا بنماذج قليلة من النشاطات المنحرفة فنحن نقوم بأي فعل تافه يشكل منفذاً لتصريف احساساتنا .

ففي الظروف المتوترة نلجأ الى ترتيب هندامنا او نشعل سيجارة او ننظف نظاراتنا او نصب كأسا من الشراب . ان ايا من هذه التصرفات يمكن ان نؤديها طبعا ، لاغراض وظيفية طبيعية الا اننا لا نستخدمها كثيرا فالهندام الذي اعدنا ترتيبه قد يكون مرتبا مصففا بشكل افضل في السابق وقد يصبح الان اسوا من قبل ، والسيجارة التي اشعلناها في ظرفنا المتوتر قد لا نكون بحاجة اليها وخاصة انها تعقب سيجارة اطفأناها قبل انتهائها كذلك ايضا فان نسبة التدخين اثناء ظروف التوتر لا علاقة لها بنسبة مايطلبه جسم المدمن من مادة النيكوتين والنظارات التي ننظفها قد تكون نظيفة في الاصل ، والساعة التي نملؤ ها قد لا تحتاج الى ذلك وقد ننظر اليها ولا نعي ماتشير اليه من الوقت ، وعندما نلجأ الى الشراب فذلك لا يعني اننا عطشون . ان كل هذه الأمور التي نؤ ديها ليست مكافأة نجنيها بل هي لمجرد القيام بأمر ما في محاولة منا لازالة توترنا وتزداد هذه التصرفات المنحرفة خاصة في المجابهات الاجتماعية حين يكون الخوف والعداء مختبئين تحت السطح مباشرة ، ففي الحفلات أو في اي تجمع وعندما ينتهي دور التهدئة التي تتشكل من الاحتفاء ومصافحة الأخرين والابتسام لهم تقدم كل النشاطات الخاصة التعويضية من تقديم السجائر او الشراب او حتى الطعام ، وحتى اثناء العروض السينمائية أو المسرحية فان هذه العروض تقطع بحيث توفر استراحة للجمهور ليتسنى له ان يقوم بنشاطاته الخاصة المفضلة في المأكل والمشرب .

وعندما نكون في لحظات العداء الشديدة نظهر ميلا الى القيام بنشاطات منحرفة تعويضية من النوع الذي نتقاسمه مع الرئيسيات الأخرى ويصبح تنفيذنا

اكثر بدائية ، فالشمبانزي مثلا في ظروف كهذه يقوم بحك جلده مرارا وبتوتر شديد يختلف عن حكه لجلده في الظروف الطبيعية ويتركز هذا الحك في منطقة الرأس وأحياناً الذراعين . ان هذه الحركات ذاتها تتخذ اسلوبا معينا . أما نحن فنسلك سلوكاًمماثلا ، اذ نلجأ الى حك رأسنا اونقضم أظافرنـاأو نمسح وجوهنابأيدينا أو نلمس شواربنا أو لحانا أو نعدل في شكل شعرنا أو نلامس آذاننا أو أنوفنا أو ننظف آذاننا الخارجية أو نلمس شفاهنا أو نفرك أيدينا ببعضها ، واذ تدارسنا لحظات الصراع الشديدة نلاحظ أن هذه النشاطات تنفذ بطريقة طقسية دون القيام بها بشكل فعّال في الظروف الطبيعية ، فمثلاً حك الرأس التعويضي يختلف اختلافاً بيناً عن مماثله لدى الفرد الآخر فلكل امرىء طريقته الخاصة في حك رأسه . فعملية التنظيف الحقيقية ليست بذات أهمية وان تحظى منطقة من الجسم بكل الاهتمام دون غيرها فليس ذلك بالأمر الهام . ويمكن أن نلاحظ وجود شخص ذي أهمية دنيا في اجتماع صغيريسوده اشخاص ذوومراكز اجتماعيةاكبر بمجردان يقوم هذاالشخص بحركات انحرافية تعويضية متكررة ويمكن أن نميز بالمقابل الشخص المهيمن في هذا الاجتماع بغياب هذه السلوكيات التعويضية تماما . أما اذا قام ذلك الشخص ذو الهيمنة المركزية بحركات تعويضية فهذا يعني أن مركزه الاجتماعي في خطر أو أن أحد الحضور يتهدد هذا المركز .

افترض في تدارسنا لهذه السلوكيات الراضخة أو العدائية ان الافراد الذين يقومون بهذه السلوكيات التعويضية يقولون الحقيقة وانهم لا يعدّلون في تصرفاتهم عن وعي منهم أو تصميم لتحقيق غايات خاصة فنحن نكذب بكلامنا اكثر مما نفعله بمؤ شراتنا وعلى الرغم من ذلك لا يمكن تجاهل هذه الظاهرة كلية . ويصعب جدا أن ننطق كذبا عبر سلوك من هذا القبيل ولكن الأمر ليس مستحيلا . وكما ذكرنا اذا تبنى الأبوان هذا السلوك مع أولادهما الصغار فانهما سيفشلان فشلا ذريعا اكثر مما يستطيعان ادراكه اما هذا السلوك فقد يكون ناجحا مع البالغين لان هؤ لاء مهتمون بمضمون المعلومات التي تأتيهم عن طريق المشافهة . ومن حسن حظ الكاذب

بسلوكه ، أنه يستطيع أن يكذب عن طريق بعض مؤ شراته السلوكية وليس كلها أما مؤ شراته الأخرى فلاحظ لها من الكذب وتخذل صاحبها ، ان اكثر الكاذبين بسلوكهم نجاحا هم اولئك الذين يضعون انفسهم في جو المزاج الذي يودون نقله الى الاخرين ومن ثم لا يعبأون بالتفاصيل ، منهم يفعلون ذلك بدلاً من التركيز على تعديل مؤ شرات خاصة ، ان هذه الطريقة يؤ ديها الكاذبون المحترفون كالممثلين والممثلات . فانهم يقضون حياتهم بكاملها وهم يمثلون لنا سلوكا كاذبا ، الأمر الذي قد يسبب ضررا كبيرا لحياتهم الخاصة ويطلب من السياسيين او الدبلوماسيين أن يقوموا بأدوار كاذبة الى حد ما إلا أنهم يختلفون عن الممثلين فهم «غير مرخصين من قبل المجتمع» ، للكذب وتكون النتيجة عقدة الذنب التي تتدخل في تصرفاتهم ، فهم على خلاف الممثلين لا يخضعون الى فترة تدريب طويلة .

حتى دون حاجة الى التدريب المهني فانه من الممكن وبجهد بسيط وبدراسة دقيقة للحقائق الواردة في هذا الكتاب ان نحقق التأثير المطلوب . لقد اختبرت هذا الأمر بنفسي في مجال واحد أو مجالين وبنسبة نجاح لابأس بها مع الشرطة . لقد وجدت أنه اذا توفر سلوك بيولوجي قوي يجب تهدئته بالتفاتة راضخة فان الأمر يمكن معالجته اذا مااستخدمت المؤ شرات الضرورية ، ان أغلب السائقين الذين تمسكهم الشرطة بسبب «مخالفة مرور» ، بسيطة يلجأون مباشرة الى الجدال مبررين تصرفهم أو يخلقون الأعذار المتنوعة لسلوكهم . فهم بعملهم هذا يدافعون عن أرضهم (المتحركة) ويجعلون من انفسهم اعداء جغرافيين . ان هذا أسوأ سلوك يقومون به ، فهذا السلوك يجبر الشرطي أن يقابل هجومهم بهجوم آخر . ولو قاموا برد فعل راضخ بدلاً من ذلك فسيصعب على الشرطي أن يتجنب احساسه بالتهدئة . ان اقرار السائق بذنبه واعترافه بغبائه او سوء تصرفه يضع الشرطي في مركز الهيمنة التي يصعب عليه أن يهاجم فيها أكثر مما فعل . ويجب الاعتراف بالامتنان والاعجاب بقدرة الشرطي وفعاليته في ايقاف السائق ، الا ان الكلام لا يكفي ، اذ يجب ان يتوفر السلوك والوقفة المناسبان ايضا ، ويجب ان نعبر عن خوفنا ورضوخنا للشرطي وعلاوة على ذلك فانه من الضروري ان نخرج بسرعة من السيارة وأن نتحرك بسرعة

نحو الشرطي ، ويجب ان لا نسمح له بالاقتراب منـا أو أن نجبـره على الوصـول الينا . فاذا بقينا في السيارة فكأننا بقينا في أرضنا ، وعندما نتحرك بعيدا عنها فاننا نضعف مركزنا الجغرافي ، وبالاضافة الى ذلك فان وضعنا ونحن قاعدون داخـل السيارة وضـع مهيمـن غريزي . ان قوة وضـعية الجلـوس عنصر غـير عادي في سلوكنـا . فما من احـد يجلس بينما يكون (الملك) واقفـا . فاذا وقف الملك وقف الجميع ان هذه الخاصة في الرضوخ تتوازى مع تناقص في ارتفاع القامة .

فعندما نترك السيارة نكون قد تخلينا عن ارضنا وعن وضعيتنـا في الجلـوس واصبحنا في وضع ضعيف يسهل علينا التصرف الراضـخ الـذي يلي . فاذا وقفنـا فيجب الا يكون وقوفنا منتصبا تماما . كما ان نبرة الصوت هامـة كأهمية الـكلام المستخدم ويضاف الى ماتقدم بعض الحركات التعويضية واظهار الوجه القلق .

ولكن لسوء الحظ ، فان سائق السيارة يكون عادة في مزاج عدائي في دفاعه لذا يصعب عليه جدا ان ينكر مزاجه هذا . فقد يتطلب منه الأمر تدريبا كبيراً أو معرفة كبيرة بمؤشرات السلوك غير الشفوي . فان كنت قليل الهيمنـة في حياتـك العامـة فستكون التجربة غير سارة بالنسبة لك ويستوجب عليك ان تدفع ضريبة ذلك .

وعلى الرغم من أن هذا الفصل يناقش السلوك القتالي الا اننا عالجنا حتـى الآن ، طرق تجنب المعركة الفعلية . وعندما يزداد الوضع سوءاً ويضطرنا الأمر الى المجابهة الفيزيولوجية فان القرد العاري ـ غير المسلـح ـ يتصرف بطريقـة تنـاقض تصرف بقية الرئيسيات الأخرى . فالاسنان بالنسبة للـرئيسيات الأخـرى ، اهـم الاسلحة اما بالنسبة لنا فالأيدي هي الأهم ، اذ بينما تطبق الحيوانات بمخالبها وتعض نجد ان الانسان يمسك ويعصر أو يضرب بقبضتي يديه ولا يلجأ الانسان الى العض الا في سني الطفولة . فالاطفال والاولاد لا يستطيعون استخدام ايديهم واذرعهم كما يجب وذلك لعدم نمو عضلاتهم بعد لتصبح اطرافهم فعالة في معركة حقيقية .

نستطيع ان نشاهد اليوم معركة غير مسلحة بين البالغين وتتخذ هذه المعركة انواعا متعددة من الاساليب كالمصارعة والجيدو والملاكمة أما في شكلها البدائي فهذا امر نادر . ففي اللحظة التي تبدأ فيها المعركة الجادة تحضر الى الساحة الاسلحة الصناعية من نوع او آخر . وهي تعتبر امتدادا لاستخدام القبضات في الضرب . لقد استطاع الشمبانزي في ظروف خاصة ان يزيد من امكاناته القتالية الطبيعية .

ففي شروط الاسر النصفي لوحظ ان الشمبانزي يلتقط قطعة غصن ويهوي بها على جسم فهد اصطناعي او يغرف قطعة من الطين ويقذفها على المارة ولكن ليس هناك اي اثبات ان الشمبانزي يفعل ذلك في حياته في الغابة ولا انه يفعل ذلك ضد خصومه من ابناء جنسه . ومع ذلك فهذا يعطي فكرة عن الكيفية التي نشأنا بها في الاصل باستخدامنا للاسلحة الاصطناعية وكيف نشأت الاسلحة وتطورت لتكون وسائط دفاع ضد الأنواع الأخرى أو لقتل الفريسة. فظهور الاسلحة كان انسجاماً مع حالات الطوارىء .

ان أبسط اشكال الاسلحة الاصطناعية هي الاشياء الطبيعية كالخشب والحجر وهي اشياء صلبة غير معدلة . وبمجرد ادخال تحسينات على هذه الاشياء لعملية القذف البدائي بالاشياء او الضرب بها حركات اضافية كالرمي بالرماح او الجرح او الطعن .

اما الميل السلوكي العظيم الذي طرأ على عملية الهجوم فهو تمديد المسافة بين المهاجم وعدوه ، فالرماح تستطيع التأثير عن بعد الا ان مداها محدود . والسهام افضل الا انها تنقصها الدقة . اما البنادق فتوسع الفجوة بشكل كبير الا ان القنابل الملقاة من السماء يمكن ان يكون لها مدى اكبر والصواريخ ارض - ارض تستطيع ان تؤ ثر تأثيرا فعالا . وتكون النتيجة هي ان الخصم لا ينهزم فحسب بل يباد كلية وكما شرحنا سابقا فان عمل العداء المتخصص في المستوى البيولوجي هو الاخضاع وليس قتل العدو ان المراحل الاخيرة لابادة العدو قد تتخذ شكل تجنب ذلك ومن ثم يتسنى للعدو الهرب او الخضوع وفي كلا الحالين فان المجابهة العدائية تنتهي بان يسوى

النزاع . الا ان المؤشرات المهدئة التي يبثها الخاسر لا يمكن ان تؤثر على الفائز حين يبدأ هذا هجومه من مسافة بعيدة . وهكذا نجد ان العداء العنيف الذي يصحب الهجوم سيعمل عمله ولا يمكن لهذا العداء ان يزول الا بالمجابهة الراضخة او بفرار العدو ، ولا يمكن ان يتحرى عن هذين السلوكين من مسافة بعيدة وخاصة في «اعداء هذه الايام» ، وتكون النتيجة مذبحة رهيبة ولامثيل لها لدى الأنواع الاخرى .

فنحن عندما حسنّا اسلحتنا تجاه فرائسنا في الصيد ادينا لانفسنا نفعا كبيرا الا ان الأمر يجري الآن على عكس مانشتهي اذ انفلتت هذه الاسلحة ضدنا وقد نشأ لدينا دافع الى التعاون المشترك الا ان هذا الدافع قد اصبح حساسا جدا للاثارة العدائية . فالولاء في الصيد قد اصبح ولاء في القتال وهكذا ظهرت «الحرب» للوجود . ومن سخرية القدر ان ذلك الدافع الفطري لمساعدة ابناء جنسنا كان سببا لكل الحروب الرئيسية . انه الدافع نفسه الذي قادنا الى كل تلك العصابات القاتلة او الغوغاء والجيوش . وبدون ذلك الدافع سينقصهم التلاحم وسيصبح العداء «شخصيا» ثانية .

ورغم اننا متخصصون بقتل الفرائس فقد اصبحنا «قتلة خصوماً» بشكل آلي ونملك دافعا فطريا لقتل خصومنا . اما الاثبات ضد هذه الفكرة فقد سبق لنا ان شرحناه فالهزيمة هي مايطمح اليه العدو وليس القتل ، الهيمنة او التحكم هما هدف العداء وليس الابادة ولا نختلف جوهريا عن بقية الحيوانات في هذا المجال فليس لدينا سبب وجيه لنختلف عن الحيوانات في هدف عدائنا . وماحدث هو ان الشر الذي ينجم عن اختلاف الهجوم البعيد مع التعاون القائم بين الجماعة قد ادى الى تشويش في الأهداف الاصلية لدى المجموعات المتورطة في الهجوم . فالمقاتلون يهاجمون الآن لحماية رفاقهم اكثر مما يرغبون في التحكم في اعدائهم اما احساساتهم في تهدئة العدو بشكل مباشر فلاحظ كبيرا لها في التعبير . ان هذا التطور البائس قد يصيبنا بكارثة ذات يوم وقد يؤدي الى انقراض نوعنا البشري بسرعة .

ان هذه المشكلة قد ادت الى المزيد من النشاطات المنحرفة التعويضية ، كهرش الرأس اما الحل المفضل لهذه المشكلة فهو نزع السلاح العالمي وليكون لهذا الحل فعاليته يجب ان ينفذ حتى حدود مستحيلة وان تحد المجابهات القتالية في حدود ضيقة كأن تكون معركة التحامية حيث يمكن للمؤشرات المهدئة ان تعمل عملها بفعالية ، أما الحل الثاني فهو نزع الشعور الوطني من الانسان الذي ينتمي الى عدة مجموعات اجتماعية ، لكن هذا الأمر يعني اننا نعمل ضد طبيعتنا البيولوجية البشرية الرئيسية . ان ميلنا الطبيعي الى تأليف المجتمعات التي ننتمي اليها لا يمكن نزعه دون أن يطرأ تغيير جنسي رئيسي على تكويننا العام وان تم ذلك فهذا يعني التسبب في تفسخ بنياننا الاجتماعي المعقد .

أما الحل الثالث فهو ايجاد بديل أو بدائل عن الحرب وأن نصعد هذه البدائل الرمزية وغير الضارة . فاذا كانت هذه البدائل غير ضارة فستؤدي حتماً إلى حل بسيط للمشكلة الحقيقية . ويجدر بنا أن نتذكر هنا أن هذه المشكلة أي الحرب في المستوى البيولوجي ، هي واحدة من الدفاع الجغرافي للمجموعة وهي أيضاً تعني التوسع الجغرافي للمجموعة اذا مانظرنا الى المشكلة بهذا المنظار .

هناك حل رابع هو تحسين التحكم العقلاني في العداء . وقد قال بعضهم : بما أن ذكاءنا قد اقحمنا في ورطة فعليه أن يخرجنا منها ومن سوء حظنا ، أن يكون المراكز العليا في أدمغتنا حساسة جداً للدوامغ الدنيا بدلاً من العليا في قضايا جوهرية كالدفاع الجغرافي . فالتحكم العقلاني يستطيع أن يساعدنا حتى هذا الحد ليس أكثر وفي هذا المجال لا يمكن الاعتماد على تحكمنا العقلاني فهو يضيع علينا كل الانجازات الجيدة التي حققناها لمجرد أن نقوم بسلوك واحد غير منطقي أو تصرف عاطفي .

فالحل المنطقي لهذه المشكلة هو تخفيض عدد سكان الأرض أو انتشار النوع البشري في الكواكب الأخرى مثلا ، بالاضافة الى المساعدة التي يمكن أن تمدنا بها

المناهج الأربعة التي ذكرناها آنفاً . فنحن نعلم أنـه إذا استمر سكان الأرض في التكاثر بالنسبة الحاضرة المخيفة فسيزداد العداء غير المنضبط . ولقد ثبت ذلك عبر التجارب المخبرية .

فالازدحام الاجمالي سيولد توتراً اجتماعياً سيسحق كل المنظمات الاجتماعية قبل أن يؤدي بنا الى المجاعة القاتلة . وهذا الازدحام السكاني سيعمل مباشرة ضد تحسيناتنا في التحكم العقلاني وسيؤدي الى الانفجار العاطفي بشكل مخيف .

ويمكن أن يمنع مثل هذا التطور بمجرد تخفيض نسبة انجاب الأطفال تخفيضاً ملحوظاً . ولسوء الحظ فان هناك عائقين خطرين في هذا الموضوع . كما شرحنا سابقا . فالوحدة العائلية ـ التي لا تزال الوحدة الأساسية لمجتمعاتنا ـ هي وسيلة لتربية الاطفال . ولقد تطورت الى نظام حاضر كثير التقدم ومعقد ، ووظيفته انجاب الاطفال وحمايتهم وانضاجهم . فاذا حُدّت هذه الوظيفة بشكل ملحوظ فسيعاني الرباط الزوجي كثيرا ولسوف يجلب معه الفوضى الاجتماعية .

ومن جهة اخرى فلو قمنا بمحاولة ما وهي ان نسمح لزوجين بالانجاب بكل حرية وقيدنا زوجين آخرين فان هذه المحاولة ستعمل ضد التعاون الاجتماعي الضروري لابناء جنسنا .

ومن وجهة نظر حسابية ، اذا شكّل جميع البالغين من السكان أزواجا فان باستطاعتهم ان ينجبوا ولدين فقط لكل زوجين من المجتمع وأن يحافظوا عليهم في مستوى منتظم فيكون كل فرد من الأولاد في الواقع تعويضاً عن والده أو والدته .

وإذا سلمنا بالواقع ان نسبة ضئيلة من السكان لا يتزوجون ولا ينجبون اطفالا وان هناك دائما موتا مبكرا من جراء الحوادث والأسباب الأخرى ، عندئذ ، سيصبح حجم الوحدة العائلية اكبر بقليل . وحتى لو كان الأمر كذلك فانه سيحمل الرباط الزوجي عبئا ثقيلا وكلما خف عبء تربية الاطفال كلما زاد جهد الزوجين وتوجه الى

مجالات اخرى وذلك للحفاظ على الرباط الزوجي . الا ان ذلك اقل خطورة على المدى البعيد ، من الازدحام السكاني الخانق .

ولنلخص الموضوع فان افضل حل لضمان السلم العالمي هو انتشار وتصعيد استعمال موانع الحمل او الاجهاض ، الا ان الاجهاض خطوة خطيرة وقد تحتم الاضطراب النفسي وبالاضافة الى ذلك ، فحتى تشكل الجنين يعتبر عضوا في المجتمع والتخلص منه عمل عدائي وهو سلوك نطمح للسيطرة عليه والتحكم فيه . فموانع الحمل اذا هي المفضلة .

لقد بينا في بداية هذا الفصل ان القرد العاري حيوانٌ يحمل ثلاثة اشكال من العداء ، وعلينا الان ان ندرس الشكلين الاخرين من عدائياته . انهما الدفاع الجغرافي عن الوحدة العائلية ضمن وحدة الجماعة وحفاظ الفرد الواحد على مركزه السلطوي .

ان فكرة الدفاع الجغرافي عن بيت العائلة قد رافقتنا طيلة حياتنا التقنية . حتى عندما تصمم ابنيتنا الضخمة على اساس وحدات سكنية فهي تقسم الى وحدات سكنية متكررة بحيث يصبح لكل عائلة وحدة سكنية مستقلة لم يغفل وجود غرف طعام الوحدة العائلية . وعلى الرغم من كل التقدم الذي احرزته البشرية ، فان تصميم مدننا لا يزال يخضع لحاجات القرد العاري القديمة في تقسيم مجموعاتنا البشرية ضمن حدود جغرافية عائلية صغيرة الحجم . وحيث ترتفع الابنية السكنية فهناك مناطق دفاعية كالجدران والخنادق التي تفصل الوحدات العائلية السكنية عن الجيران تماما مثلما تفعل الأنواع الأخرى من الحيوانات .

واهم عنصر في الحدود الجغرافي للعائلة هو سهولة تمييزها بطريقة من الطرق عن الحدود الأخرى فانفصالها في الموقع يعطيها فرديتها بالطبع ، الا ان ذلك ليس كافيا . ان شكلها ومظهرها العام يجب ان يجعلاها تنتصب في كيان مميز ولكي تصبح

ممتلكات شخصية للعائلة التي تسكنها . هذا امر يبدو واضحا بما يكفي الا انه يتجاهله الناس كثيرا اما نتيجة للضغوط الاقتصادية أو لنقصان الوعي البيولوجي لدى المهندسين .

وهكذا تقام الانساق الطويلة من المنازل المتشابهة في مدن العالم . ففي حالة الشقق السكنية يبدو الوضع اكثر خطورة . ان الضرر النفسي الذي يسببه المهندسون المعماريون والمخططون والبناؤ ون للحدود السكنية للعائلة ، لا يحصى . ولحسن حظ هذه العائلات فانها تستطيع اقامة الحدود الفردية لسكناها بطرق مختلفة فالابنية نفسها يمكن طليها بالوان مختلفة . والحدائق ان وجدت ، يمكن ان تقام باساليب فردية ، كما ان داخل هذه المساكن او الشقق يمكن ان تجري فيه الديكورات والتزيينات بشكل افرادي ويزعم الناس انهم يفعلون ذلك لجعل بيوتهم تبدو (جميلة) . ولكن مايفعلونه في الحقيقة هو ماتفعله بقية الحيوانات تماما من حيث انها تودع تغوطها بالقرب من جحورها لتمييز سكناها . فانت عندما تضع اسمك على باب بيتك او تعلق الصور على جدران بيتك انما تفعل ذلك كما يفعل الكلب عندما يبول على عمود . وهناك بعض الناس الذين يجمعون اشياء متخصصة تستهويهم وانما يفعلون ذلك لحاجتهم الملحة الى تحديد حدود بيتهم الجغرافية .

وكثيرا مانجد اصحاب السيارات يعلقون في سياراتهم التمائم جالبة الحظ ، أو أشياء اخرى شخصية او مايفعله مدراء المكاتب عندما يضعون على طاولاتهم اشياء شخصية او صور لعائلاتهم ، فهم يفعلون ذلك لتمييز حدودهم الجغرافية الفردية . ان السيارة او المكتب هما حدود جغرافية شخصية فرعية اي انها احدى فروع الحدود الجغرافية العائلية .

ان هذا الأمر يقودنا الى مسألة العداء المتعلقة بالنظام الاجتماعي وترؤ سه . فالأمكنة التي يرتادها الفرد يجب الدفاع عنها . كما ان مركزه الاجتماعي يجب المحافظة عليه وان امكن ، تحسينه . ويجب على الفرد ان يفعل ذلك بحذر والا فستصاب علاقته بالآخرين بأذى .

هنا يدخل دور المؤشرات العدائية والراضخة التي تكلمنا عنها في السابق . ان التعاون الجماعي يتطلب درجة كبيرة من التجانس في الهندام والسلوك ولكن ضمن هذا التجانس هناك مجال كبير للمنافسة في الهيمنة وبسبب هذه المطالب المتصارعة فان المنافسة في الهيمنة تصل الى حد كبير من الحنكة . ان شكل عقدة ربطة العنق وظهور منديل الجيب في اعلى السترة ونبرة الصوت المميزة ، الى جانب الامور الاخرى التي تبدو سخيفة ، تأخذ اهمية اجتماعية حيوية في تحديد مركز الفرد الاجتماعي . فالفرد المختبر في المجتمع ، يستطيع ملاحظة هذه الامور بسرعة . الا انه قد يفشل اذا ماوضع في مجتمع مغاير لمجتمعه . ان هذه الاختلافات الدقيقة في الهندام والعادات لا معنى لها اطلاقا ، الا ان اهميتها تتركز في السباق الى الاستيلاء على الهيمنة الاجتماعية .

فنحن لم نتطور لنعيش ضمن مجموعة ضخمة تصل الى الالاف من الافراد ان سلوكنا مصمم للعمل ضمن مجموعات صغيرة قد لا تصل الى مائة نسمة . ففي ظروف كهذه فان كل فرد ضمن هذه المجموعة أو العشيرة ، سيعرف شخصيا من قبل جميع الافراد كما هي حال السعادين والقرود . ففي هذا التنظيم الاجتماعي يسهل العمل على النظام السلطوي ويثبت الى حد ما بغض النظر عما يطرأ من تعديل على هذا النظام من جراء موت الكبار في السن . وفي مجتمعات المدينة الكبيرة فالوضع اكثر ضغطا . ففي كل يوم يتعرض الحضر الى الاتصال المفاجىء بالغرباء ـ هذا وضع غير وارد لدى الأنواع الأخرى من الحيوانات ـ وتصعب الهيمنة النظامية على جميع افراد الحيوان من النوع الواحد . فليس لدى الحيوان اي اتصال اجتماعي بين افراده . وفي تجنبنا التحديق في الاخرين او في بثنا لمؤشرات متعددة او في قيامنا باتصالنا الجسدي مع الآخرين ، نستطيع البقاء في وضع اجتماعي مزدحم للغاية . فاذا أخللنا بقاعدة عدم لمس الاخرين فنحن نعتذر مباشرة ونوضح لهم ان لمسنا لهم كان عرضيا خالصا .

ان سلوكنا في «عدم اللمس» يساعدنا على الحفاظ على عدد من معارفنا في المستوى الصحيح الضروري لنوعنا . فنحن نقوم بذلك بدقة متناهية وتجانس دقيق

فإذا طلبنا التحقق من ذلك فلنجرب ان نفتح دليل الهاتف ونرى كم هو عدد معارفنا المدرجين في الدليل .

وسنجد ان جميع معارفنا ايضا يعرفون العدد نفسه أو نحوه . وبكلام آخر ، فنحن نخضع للقواعد البيولوجية الأساسية التي أورثنا اياها اسلافنا حتى في علاقاتنا الاجتماعية .

هناك شواذ بالطبع ، لهذه القاعدة ، فالأفراد المضطرون مهنياً لانشاء علاقات شخصية مع الآخرين ، أو الناس الخجلون الذين يمنعهم خجلهم من اقامة علاقات طيبة مع الآخرين يلجأون جاهدين إلى التعويض عن عدم استطاعتهم اقامة هذه العلاقات الاجتماعية الواسعة النطاق . اما بقية الناس فيمضون في اعمالهم بسعادة مع بقية الكتلة الضخمة من الأفراد ـ تلك الكتلة التي هي في الواقع ، سلاسل معقدة من المجموعات العشائرية المتطابقة أو المحكمة ، يالله كيف لم يتغير القرد العاري كثيرا منذ أيامه الأولى البدائية .

الفصل السادس

المسعى في طلب الطعام

ان سلوك «المسعى في طلب الطعام» لدى القرد العاري يبدو للوهلة الأولى احد النشاطات الاستغلالية الحساسة على الرغم من وجود مباديء بيولوجية تعمل عملها .

لقد رأينا كيف ان نماذج سلوك أسلافه في قطف الفاكهة قد تعدلت الى سلوكية تعاونية في قتل الفريسة . ورأينا كيف ان هذا الأمر ادى الى عدد من التغييرات الأساسية في رتابة مسعاه في طلب الطعام . لقد اصبح المسعى في طلب الطعام امرا منظما تنظيما معقدا . وكان على الدافع الذي يقود الى قتل الفريسة ان يستقل جزئيا عن دافع طلب الطعام . وكان الطعام يؤخذ الى المنزل ليتسهلك . وكان تحضير هذا الطعام يتطلب وقتا . واتسعت الوجبات كما تباعدت فترات الأكل . وازدادت انواع الطعام بشكل كبير . وقد مارس الانسان عملية تخزين الطعام واقتسامه . وكان على افراد الأسرة الذكور ان يزودوا العائلة بالطعام . كما كان يجب التحكم في عملية التغوط وتعديلها .

لقد جرت كل هذه التغييرات عبر فترة طويلة من الزمن والجدير بالذكر ، اننا بقينا مخلصين لهذه التغييرات رغم كل التقدم التقني الذي احرزناه في السنوات الأخيرة . ومن خلال حكمنا على سلوكنا الحاضر فلا بد لهذه التغييرات من ان تصبح خصائص بيولوجية بشرية الى حد ما .

وكما رأينا فان الاسلوب التقني للزراعة المعاصرة قد جعل الغالبية من الذكور في مجتمعاتنا يتخلون عن دورهم في الصيد . فهؤلاء الذكور البالغون استعاضوا عن

الصيد «بالعمل» . «فالعمل» اخذ محل «الصيد» الا انه حافظ على الكثير من خصائص الصيد . فهو يتطلب الانتقال من البيت الى «ارض الصيد» وهو بذلك مسعى ذكرى يزوده الذكور بفرص الاختلاط بالذكور الآخرين . فهو يستلزم المخاطر والاستراتيجية التخطيطية . فالصياد «المزيف» يتحدث عن «القيام بالقتل في المدينة» . ويصبح قاسيا في معاملاته . ويقال انه «آت باللحم الى البيت» .

وعندما يخلد «الصياد المزيف» الى الراحة يذهب الى ناد للرجال حيث لا يسمح للنساء بالدخول . اما الذكور الأصغر سنا فهم يؤلفون عصابة صغيرة ذات طبيعة صاخبة . وعبر كل هذه المجالات للمنظمات او الجمعيات الثقافية او النوادي الاجتماعية او الرياضية او النقابات التجارية او الجمعيات السرية ، هناك احساس عاطفي يشترك به جميع الذكور . وهناك اتحاد مخلص يربط بين الذكور . فتوضع لذلك الشارات على الصدور او ترتدي الثياب الموحدة او اي شيء آخر يميز الشخصية الفردية .

كما تقام حفلات التعارف للأعضاء الجدد . ان وحدة الجنس المشتركة بين هؤلاء يجب ألا تخلط بالشذوذ الجنسي . فهذه المنظمات لا علاقة لها بأمور الجنس . ان اهتمامها ينصب بشكل رئيسي ، على الرباط بين الذكر والذكر كما كان حالهم في ايام الصيد السالفة . ان الدور الذي تلعبه هذه المنظمات في حياة الفرد الذكر هام اذ تظهر للعيان استمرارية الدوافع الأصلية التي ورثها عن اسلافه . فاذا انكرنا اهمية هذه المنظمات فلربما تسنى للفرد القيام بهذه النشاطات ضمن الوحدة العائلية ودون اللجوء الى الفصل بين الذكور والاناث . وغالبا ما تستاء النساء من فراق ازواجهن لهن للانضمام الى هذه المنظمات وكأن في الأمر خيانة لهن . الا انهن مخطئات . وكل ما يشهدن هو التصرف العصري لما كان يميل اليه الذكور في العصور السالفة اثناء الصيد .

ان هذا الرباط يشبه الى حد بعيد الرباط الزوجي الذي يقوم بين الرجل والمرأة . ان هذا الرباط ظل معنا طيلة حياتنا على هذه الأرض وسيبقى معنا الا اذا طرأ تغيير جذري على تكويننا .

وعلى الرغم من ان «العمل» اخذ مكان «الصيد» هذه الأيام . الا انه لم يستطع ان يبعد هذه الدوافع القديمة فينا . وحتى حينما لا يكون هناك مبرر اقتصادي للاشتراك في مطاردة الفريسة فان هذا النشاط لا يزال مستمرا في اشكال عدة . ان صيد الثعالب والذئاب وصيد الصقور وصيد الحيوانات البرية وألعاب الصيد التي يقوم بها الصغار ما هي الا دلالات لدوافع الصيد القديمة .

وقد قيل ان الدافع الحقيقي وراء النشاطات المعاصرة له علاقة وثيقة باخضاع الخصوم اكثر من علاقته بالصيد ؛ ، وان الحيوان البائس وهو ينبح يمثل العضو المكروه من ابناء جنسنا . لا شك ان هناك شيئا من الحقيقة في هذا القول على الاقل بالنسبة لبعض الأفراد . ولكن عندما نناقش هذه النشاطات ككل ، يتضح لنا أنها لا تعطينا سوى تفسير جزئي . ان جوهر رياضة الصيد هو اعطاء الفريسة فرصة الهرب . (اذا اعتبرنا ان الفريسة هي مجرد بديل لخصم مكروه ، اذا لماذا نعطيه فرصة الهرب ؟) . ان عملية رياضة الصيد بأكملها تتعمد عدم المقدرة ، او نقصا يفرضه الصيادون على انفسهم .

فهم يستطيعون استخدام البنادق بسهولة او اي سلاح قاتل آخر الا ن ذلك لن يجعل من الصيد متعة . انه عنصر التحدي الذي يحسب له الحساب، وان تعقيدات المطاردة والمناورة الذكية هي التي تمنح الصيادين المكافأة .

ان الخصائص الأساسية للصيد هي المقامرة لذا فليس من المستغرب ان يكون للمقامرة جاذبية قوية للبشر . لذا فان الصيد البدائي والصيد للمتعة هما من خصائص الذكور وهو محاط بقوانين اجتماعية جادة ولها طقوسها .

ان تحرينا عن بنياننا الاجتماعي يبين ان كلا من الصيد للمتعة والمقامرة يستحوزان على الطبقة العليا والطبقة الدنيا من المجتمع اكثر من الطبقة المتوسطة وهناك سبب وجيه لذلك ، اذا اعتبرنا ان هذا تعبير عن دوافع الصيد الأساسية . لقد اشرنا سابقا الى ان العمل اصبح بديلا للصيد البدائي لهذا فقد استفادت منه الطبقة المتوسطة .

اما بالنسبة للذكر المتوسط الذي ينتمي الى الطبقة المتوسطة ، فان طبيعة العمل المطلوب منه لا تتناسب مع متطلبات دوافع الصيد . فالعمل متكرر جدا ويمكن التنبؤ به . وهو يحتاج الى عنصر التحدي ، اذ ان الحظ والخطر ضروريان بالنسبة للذكر الصياد . ولهذا السبب فان الطبقة الدنيا تشارك الطبقة العليا (غير العاملة) الحاجة الماسة الى التعبير عن دوافعها في الصيد اكثر من الطبقة المتوسطة . فطبيعة عمل الطبقة المتوسطة اكثر ملاءمة مع دورها كبديل للصيد .

ولنترك الصيد الآن ونعود الى نماذج سلوك المسعى في طلب الطعام اي في لحظة القتل . ان هذا العنصر يجد نسبة ما من التعبير عن النشاطات البديلة للعمل - اي الصيد - للمتعة والمقامرة . ففعل القتل اثناء الصيد للمتعة لا يزال لحظات نصر رمزية ينقصها عنف السلوك الفيزيولوجي . لذلك ، فان الدافع الى قتل الفريسة قد تعدل تعديلا كبيرا في الوقت الحاضر . ويظهر هذا الدافع مرارا وبأشكال منتظمة في نشاطات اللعب التي يقوم بها الذكور الصغار . ولكنها في عالم البالغين تخضع الى كبح ثقافي قوي .

هناك نوعان من هذه الكوابح : احدهما هو الصيد للمتعة الذي ذكرناه والآخر هو مصارعة الثيران . فعلى الرغم من ذبح اعداد هائلة من الحيوانات ، يوميا الا ان قتلها لا يتم على مرأى من الناس . اما مصارعة الثيران فهي على النقيض تماما ، حيث يحتشد الناس للتفرج على سلوك العنف في قتل الفريسة .

وضمن حدود هذه الرياضة الدامية فان هذه النشاطات مسموح بها ومسموح لها بالاستمرار لكن ليس دون احتجاج . اما خارج نطاق هذه المجالات . فان جميع اشكال القسوة تجاه الحيوانات محرمة ويعاقب عليها القانون . الا ان هذه القوانين لم يكن يعمل بها دائما . فمنذ بضعة قرون كانت عملية تعذيب وقتل الحيوانات تجري امام الجمهور في بريطانيا وفي بلدان اخرى وهي عبارة عن تسلية عامة . اما الآن فيعتبر الفرد المشارك في العنف من هذا القبيل ميت الاحساس تجاه جميع اشكال اراقة الدماء .

لذا فاستمرار هذه العروض تعتبر مصدرا للخطر على مجتمعاتنا المزدحمة المعقدة .

كنا حتى الآن نتدارس المراحل المبكرة للمسعى في طلب الطعام وتشعب هذه المراحل . فبعد الصيد والقتل نأتي الى وجبة الطعام نفسها . فبما اننا احدى الرئيسيات النموذجية علينا ان نجد انفسنا نأكل وجبات صغيرة متواصلة . الا اننا لسنا احدى الرئيسيات النموذجية . فتطورنا في اكل اللحوم قد تعدل ضمن النظام بأكمله . فأكلة اللحوم تلتهم وجباتها المنفصلة زمنيا ويتضح انه ينطبق علينا هذا الوصف . ان هذه الميول مستمرة حتى بعد اختفاء ضغوط الصيد الأصلية بزمن طويل . والأمر اليوم سهل بالنسبة لنا لو أردنا ان نرتد الى طرقنا القديمة ان اظهرنا ميلا نحوها . وعلى الرغم من ذلك ، نبقى متشبثين بأوقات طعامنا المحددة وكأننا لا نزال مرتبطين بنشاطات صيد الفريسة . ان القلة القليلة فقط من ملايين البشر تتبع نظام الطعام المتوزع على امتداد اليوم ، وهو ذلك النظام الذي تتبعه الحيوانات . وحتى اذا

توفر الطعام بشكل كبير فنحن لا نزال نأكل ثلاث او اربع وجبات في اليوم ويندر ان نأكل من ذلك . وبالنسبة للكثير من الناس فان هذا النظام لا يتطلب اكثر من وجبتين رئيسيتين في اليوم الواحد . وقد يقول بعضهم ان هذا الاجراء هو نتيجة تلاؤم حضاري الا انه ليست هناك دلالة تدعم هذا الزعم . وقد نفضل ان نأكل وجبات صغيرة متعددة في اليوم الواحد الا انه يجب ان نبتدع نظاما جديدا فعالا تتوزع عبره هذه الوجبات في فترات اليوم . ان انتشار وجبات الطعام على هذا النحو يمكن ان يتحقق دون حاجة الى خسارة فعاليتنا اذا تعدل سلوكنا بحسب النظام الجديد . ولكن بسبب ماضينا القاسي فسوف يفشل النظام الجديد في ارضاء احتياجاتنا البيولوجية الأساسية .

انه لمن الجدير بالاهتمام ان نتحرى عن السبب في تسخين طعامنا وأكله وهو مايزال حارا . هناك ثلاثة تفسيرات لذلك . احدها هو ان الطعام الحار يثير «حرارة الفريسة» .

وعلى الرغم من اننا لم نعد نستهلك اللحم المقتول حديثا ، الا اننا نلتهمه وهو في نفس الحرارة التي يلتهمه فيها حيوان آخر أكل للحوم . فطعام الحيوانات الآكلة للحوم حار لأنه لم يتسن له ان يبرد : اما طعامنا فهو حار لأننا اعدنا تسخينه . اما التفسير الآخر فهو ان لدينا اسنانا ضعيفة فنحن نلجأ الى تليين اللحم بطبخه . الا ان ذلك لا يفسر لماذا نأكله وهو حار او لماذا نعيد تسخين الكثير من انواع الأطعمة مع العلم انها لا تحتاج الى تليين . اما التفسير الثالث فهو اننا بزيادتنا لحرارة الطعام نحسن من نكهته . وباضافتنا اشياء اليه فاننا انما نزيد من مذاقه المحبب . ان هذا الأمر له علاقة ليس بأصلنا كأكلةللحوم، بل بأصلنا كاحدى الرئيسيات . ان اطعمة الرئيسيات النموذجية متنوعة ولها نكهات متعددة اكثر من اطعمة آكلة اللحوم الأخرى . فعندما يمضي آكل للحوم في سعيه في الصيد وفي قتله وتجهيزه للطعام فانه يسلك سلوكا بسيطا في مضغه للطعام . فهو يمضغ ثم يبلع طعامه . اما السعادين والقردة ، «من جهة ثانية» فهي حساسة جدا تجاه مذاقها للطعام ولذا فطعامها متنوع . وهي تستمر في السعي وراء تنويع هذا الطعام وتنويع نكهته . وعندما نسخن طعامنا ونضيف اليه التوابل ربما كنا نعود الى اصلنا كاحدى الرئيسيات المبكرة . واننا لسنا آكلة لحوم فقط .

وبعد ان اثرنا موضوع «نكهة الطعام» لابد لنا من توضيح بعض الأمور التي اسيء فهمها بخصوص الطريقة التي نتلقى فيها هذه المؤشرات . كيف نتذوق ما نطعمه ؟ ان سطح اللسان ليس ناعما الا انه مغطى بنتوءات صغيرة تدعى «بالحليمات» التي تنقل المذاق . فكل واحد منا لديه عشرة آلاف من حليمات الذوق الا ان هذه الحليمات قد انخفض عددها . والأمر المذهل هو اننا لا نتجاوب الا مع اربعة انواع اساسية من المذاقات . وهي : الحامض ، والمالح ، والمر ، والحلو . فعندما نضع قطعة طعام على لساننا فان هذا اللسان يسجل نسبة هذه الخصائص الذوقية التي تحتويها قطعة الطعام فهذا المزيج يعطي الطعام نكهته الأساسية . ان مناطق مختلفةمن اللسان تتفاعل تفاعلا قويا مع احدى هذه المذاقات الأربعة . ان رأس اللسان يتجاوب بشكل خاص مع المالح والحلو اما جانباه فمع الحامض وخلفه مع المر .

فاللسان ككل . يستطيع ان يحكم على نسيج ودرجة حرارة الطعام الا انه لا يستطيع ان يذهب اكثر من ذلك . وفي الحقيقة ان جميع المذاقات التي تتجاوب معها تجاوبا قويا ، لا نتذوقها بل نشمها . ان رائحة الطعام تنتشر في منخرى الانف حيث يتوضع الغشاء الشمي . فعندما نقول ان طبقا ما «مذاقه» لذيذ فاننا ، في الواقع نقول ان مذاقه ورائحته لذيذان . والمضحك في الأمر هو أننا عندما نصاب بزكام ويقل تجاوبنا الشمي نقول ان طعامنا لا مذاق له . ونحن في الواقع ، قد تذوقناه تماما مثلما كنا نفعل قبل إصابتنا بالزكام . وما حدث هو ان ما يقلقنا اختفاء رائحة الطعام .

بعد ان فسرنا ما تقدم ، هناك جانب آخر لذوقنا الحقيقي يحتاج الى تعليق خاص وذلك هو «ضرسنا الحلو» المسيطر الأمر الذي لا يمكن نكرانه . هذا شيء لا تعرفه الحيوانات آكلة اللحوم وخاصة تلك الشبيهة بالرئيسيات . فكلما نضج طعام الرئيسيات اصبح اكثر حلاوة لذا نجد السعادين والقرود تتجاوب تجاوبا قويا مع هذا المذاق . فنحن كبقية الرئيسيات يصعب علينا مقاومة انواع «الحلوى» . فأسلافنا القردة كانت تبحث عما هو «حلو» بالرغم من انها آكلة اللحوم . فنحن نفضل هذا المذاق اكثر من اي مذاق آخر . ونحن لدينا «دكاكين لبيع الحلوى» ولكن ليس لدينا «دكاكين لبيع الحامض» وبشكل عام ننهي وجبتنا الغذائية بشيء من الحلوى . فنحن عندما نلجأ الى اكل وجبات صغيرة اثناء النهار فكثيرا ما نأكل قطعة من السكاكر او الشكولا او البوظة او المشروبات الحلوة .

ان ميولنا نحو المآكل الحلوة تقودنا الى صعوبات . وفي الواقع هناك عنصران يحببان هذا الطعام الينا : هما قيمته الغذائية ومذاقه . وهذان العنصران متلازمان في الطبيعة اما في الأطعمة المصنعة فيمكن فصلهما وقد يكون لهذا الفصل اخطاره . فالأطعمة التي لا قيمة غذائية تذكر لها . يمكن ان تجعل محببة الينا بمجرد اضافة كمية كبيرة من المواد المحلاة اليها . فاذا حليت هذه الاطعمة كثيرا فسنلتهمها ولا نجعل في بطوننا متسعا لأطعمة اخرى : وهكذا يضطرب توازن طعامنا . وهذا ينطبق على سلوك الأطفال تجاه الطعام . لقد ذكرنا سابقا ان ابحاثا دلت على ان تفضيلنا لروائح

الفاكهة العذبة يتغير عند بلوغنا سن الرشد ويتوضع هذا التفضيل في الروائح الزيتية والمسكية او الزهرية . وضعفنا هذا يمكن استغلاله استغلالاً كبيرا .

ويواجه البالغون اخطارا اخرى . فبينا يصنع طعامهم ليصبح ذا مذاق طيب ، بشكل عام ـ اي اكثر مما هو عليه في الطبيعة ـ فان قيمته الذوقية تكبر ويصبح تجاوبهم تجاهه مبالغا فيه . وتكون النتيجة في اغلب الأحيان ، ازدياد وزن الفرد ، وللحد من ذلك فقد ابتدع الكثير من انواع النظام الغذائي لتخفيف الوزن . ونجد المرضى يؤمرون بأكل هذا النوع أوذاك أو بعدم أكل هذا أو ذاك او التقليل من هذا دون ذاك او القيام بالتدريبات الرياضية المتنوعة . ولسوء الحظ فهناك اجابة صادقة واحدة فقط لهذه المشكلة : هي ان نخفف من اكلنا . وهذه النصيحة تفعل مفعول السحر ولكن الانسان محاط بمؤشرات ذوقية يصعب عليه معها المواظبة على هذا النهج في المأكل لفترة طويلة . كما ان الفرد البدين يواجه تعقيدات اخرى شيطانية . لقد ذكرنا سابقا ظاهرة النشاطات المنحرفة التعويضية ـ التي تعمل كمهدئات للضغوط على الرغم من كونها تصرفات تافهة ولا علاقة لها بصلب الموضوع . وكما رأينا فان الأشكال الشائعة من هذه النشاطات التعويضية في نشاطات تعويضية على حساب الطعام . ففي لحظات التوتر نلجأ الى المبالغة في الأكل اوشرب كمية غير ضرورية من المشروبات . ان ذلك قد يساعد على تهدئة توترنا العصبي الا انه يساعد في زيادة وزننا وخاصة ان ما نختاره من الأطعمة اثناء نشاطنا التعويضي هو الطعام الحلو . واذا كررنا هذه النشاطات في تناول الأطعمة الحلوة فذلك سيؤدي بنا الى ما يسمى «البدين القلق» .

وان عملية تخفيف الوزن لهذا البدين ستعمل عملا فعالا اذا رافقها تغييرات سلوكية اخرى تخفف من حالة التوتر . ان دور مضغ «اللبان» ـ اي العلكة ـ يستحق الذكر في هذا البحث . ويبدو ان مادة اللبان قد نشأت من الحاجة الى وسيلة تعويضية . فهي تزودنا بالعنصر الضروري لتهدئة التوتر دون التسبب في عملية تناولنا للطعام .

اذا التفتنا الآن ، الى انواع الطعام الذي يتناوله القرد العاري هذه الأيام سنجد ان هذه الأنواع كثيرة ومتعددة . وبشكل عام تميل الرئيسيات الى تنويع طعامها اكثر مما تفعله بقية الحيوانات الآكلة للحوم . فالحيوانات الآكلة للحوم اصبحت متخصصة في الطعام بينما الرئيسيات مستغلة للطعام . ان الدراسة الميدانية للقرود اليابانية ، مثلا ، قد دلت على انها تستهلك مقدار مائة وتسعة عشر نوعا من النباتات على شكل براعم او اغصان صغيرة او فواكه او اوراق الشجر بالاضافة الى انواع متعددة من العنكبوت والفراشات والنمل والبيض . اما وجبات الحيوان الآكل للحوم فان لها قيمة غذائية اكبر الا انها اكثر رتابة .

فعندما اصبحنا قتلة استفدنا من ناحيتين : اضفنا اللحم ذا القيمة الغذائية الكبيرة الى وجبة طعامنا الا اننا لم نتخل عن اكلنا للنبات . . وفي الأزمنة القليلة الماضية - اي اثناء بضعة آلاف ماضية من السنين - تحسنت اساليبنا في الحصول على الطعام .

لقد بدأت الأنظمة الزراعية ، «على وجه التقريب» بشكل يمكن تسميته «الزراعة المختلطة» ؛ ان تدجين الحيوان قد سار جنبا الى جنب مع تدجين النبات . وحتى في هذه الأيام ، وبالرغم من سيطرتنا على بيئتنا الحيوانية والنباتية فلا نزال نعلق اهمية على كل من الحيوان والنبات . ماذا منعنا من ان نلقي ثقلنا على احد هذين العنصرين دون الآخر ؟ تبدو الاجابة على هذا السؤال تكمن في ظاهرة ازدياد عدد السكان وان اعتمادنا على اللحم فقط سيكون سببا في خلق مشكلة «الكم» بينما اعتمادنا على الحبوب يسبب مشكلة «النوع» .

وقد يقول بعضنا : بما ان اجدادنا من الرئيسيات استطاعوا الاستغناء عن اللحم فلماذا لا نحذو حذوهم . لقد دفعنا الى اكل اللحم بسبب ظروفنا البيئوية ، والآن بعد سيطرتنا على بيئتنا وتحكمنا الكامل في محاصيلنا الزراعية ، يتوقع منا ان نعود الى اساليبنا القديمة العهد في مسعانا في طلب الطعام - اي ان نكون نباتيين او فاكهيين - كما تحلو التسمية لبعضهم - الا ان هذا التوقع قد خاب خيبة كبيرة . ويبدو ان دافع

الطعام قد تأصل تأصيلا كبيرا فينا . ونادرا ما يستطيع النباتيون ان يبرروا ميلهم الى اكل النبات بدلا من اللحم . ويكتفون بالقول انهم يفضلونه على اللحم . وعلى العكس من ذلك ، فهم يلجؤ ون الى اعطاء المبررات المعقدة كالمعتقد الفلسفي او الطبي لديهم .

ان هؤ لاء النباتيين ـ عن طواعية ـ يضمنون لانفسهم وجبة متوازنة باستهلاكهم انواعا متعددة من النباتات تماما كما تفعل الرئيسيات الأخرى . اما بالنسبة للمجتمعات النباتية فلقد اصبح الأمر ضرورة قائمة اكثر من كونها سلوكا ينحصر في اقلية من الناس . وبتقدم اساليب الزراعة والتركيز على قلة من الحبوب الرئيسية والاعتماد على عمليات الحصاد الواسعة ادى الأمر الى زيادة في عدد السكان . الا ان الاعتماد على انواع قليلة من الحبوب ادى الى سوء تغذية خطيرة . ان هؤ لاء الناس يستطيعون التكاثر بأعداد كبيرة الا ان اولادهم يكونون ضعفاء البنية . فهم مجرد احياء . وبالطريقة نفسها ، فان اساءة استخدام «اسلحتنا الحضارية» يمكن ان تؤ دي الى كارثة كما ان اساءة استخدام اساليبنا في مسعانا في طلب الطعام قد تؤ دي الى كارثة غذائية . ان المجتمعات التي فقدت تحكمها في توازن الطعام بهذه الطريقة ، يمكنها البقاء لكن عليها ان تتغلب على التأثيرات الجانبية لنقص البروتين والفيتامين ان كانت هذه المجتمعات تود التقدم والتطور النوعي . وعلى الرغم من صحة اجسام افراد المجتمعات المتقدمة اليوم وعلى الرغم من محافظتها على توازن طعامها من اللحم والنبات ، وعلى الرغم من الطرق الحديثة المستخدمة في الحصول على الموارد الغذائية ـ فلا يزال القرد العاري المتحضر في هذه الأيام يقتات من وجباته نفسها كما كان يفعل اسلافه الصيادون . ونكرر القول ، ان التغيير ظاهري اكثر من كونه فعليا .

الفصـــل السابــع

النظــافــة : العنــايــة بالــذات

ان المكان الذي تتصل منه البيئة اتصالا مباشرا مع الحيوان هو ـ سطح جسمه ـ فهو يتلقى معاملة خشنة طيلة حياته . والغريب في الأمر أن سطح الجسم يتحمل مثل هذه المعاملة . انه يستطيع ذلك بسبب نظام تبدل الأنسجة الرائع وبسبب ان الحيوانات قد تتطور لديها حركات رائعة تساعدها على البقاء نظيفة . ونميل الى الاعتقاد ان هذا التصرف التنظيفي ليس تافها اذا ما قورن بسلوك المسمى في طلب الطعام أو القتال أو الهرب أو التناسل ولا يستطيع الجسم ان يعمل بشكل فعال بدونه . وبالنسبة لبعض المخلوقات كالطيور الصغيرة ، فان صيانة الريش تعتبر قضية حياة أو موت . فاذا اهمل الريش فلن يستطيع الطائر ان يطير بسرعة كافية ليتجنب الطيور الأخرى العدائية ولن يتمكن من الحفاظ على درجة حرارة جسمه العالية اذا ما اصبح الطقس باردا . وتقضي الطيور العديد من الساعات وهي تستحم أو تهرش جسدها . أما الثدييات فهي اقل تعقيدا في سلوكها التنظيفي ولكنها مع ذلك تنهمك في تنظيف جسدها أو لحسه أو هرشه أو حكه فالشعر كالريش يحتاج الى تنظيف وعناية اذا ما اريد له الحفاظ على دفء صاحبه . فهو يتسخ وقد يؤدي الى المرض . ويجب تخليص الجسم من الطفيليات قدر الامكان . ولا تستثنى الرئيسيات من هذه القاعدة .

وفي الطبيعة ، يلاحظ ان القردة والسعادين تلجأ الى تنظيف بعضها ، فهي تعمل في العراء وتلتقط الأجسام الصغيرة التي تعلق على الجلد . وعادة تقذف القرده هذه الحشرات في فمها وتأكلها أو على الأقل ، تتذوقها . ان هذا السلوك التنظيفي قد

يطول عدة دقائق ويلاحظ خلال هذه الدقائق ان الحيوان يحصر كل اهتمامه في عملية التنظيف هذه . وقد يتخلل هذا التنظيف بعض الهرش الموجه الى مناطق معينة . وتهرش معظم الثدييات نفسها بقدمها الخلفية أما القرد أو السعدان فقد يستطيع استخدام قدمه الأمامية أو الخلفية . وأطرافه الأمامية مثالية في مهمة التنظيف . واصابعه تستطيع ان تمر خلال الفراء وان تحدد موضع الهرش بكل دقة . واذا قارنّا ايدي الرئيسيات بحوافر أو مخالب الحيوانات الأخرى لوجدنا ان ايدي الرئيسيات «منظفات دقيقة» وعلى الرغم من ذلك فان يدين افضل من واحدة ـ وهذا بدوره يخلق اشكالا . فالقرد أو السعدان يستطيع ان يعالج الأمور بيديه اذا احتاج الى هرش ساقيه أو صدره مثلا ، الأ انه لا يستطيع ذلك لهرش ظهره أو ذراعيه نفسهما . وبما انه يفتقد الى المرآة فهو لا يستطيع ان يرى ما يركز جهده عليه في منطقة كالرأس مثلا . انه يستطيع ان يستخدم كلتا يديه ولكن لا بد له من العمل وكأنه مكفوف . فبالطبع ، سيكون الرأس والظهر والذراعان اقل نظافة من الخاصرتين أو الساقين أو الصدر .

ان حل هذه المشكلة يتمثل في عملية التنظيف الجماعية ، اي تطوير نظام للمساعدة المتبادلة . وتلاحظ هذه الظاهرة لدى العديد من الطيور والثدييات ، الآ ان هذه الظاهرة تتضح اكثر لدى الرئيسيات العليا . وقد تطورت لهذا الغرض مؤشرات تنظيفية خاصة ونشأت النشاطات «التجميلية» الاجتماعية . فعندما يقترب السعدان المنظف من سعدان يطلب التنظيف ، فان الأول يعبر عن نواياه تجاه الأخير ، بتعابير وجهية معينة . فهو يقوم بحركات تلمظ سريعة بشفتيه وغالبا ما يمد لسانه بين كل حركة واخرى أما السعدان طالب التنظيف فيبث مؤشرات القبول بتبنيه وضعية استرخاء وربما عرض منطقة معينة من جسمه تحتاج الى تنظيف . وكما شرحنا سابقا ، فان حركة تلمظ الشفتين السريعة التي يقوم بها السعدان ، قد تطورت من حركة تذوق الجزئيات التي يقوم بها السعدان اثناء التقاط الطفيليات . وبتكرار هذه الحركات وتسريعها بات بالامكان تحويلها الى مؤشرات مرئية ملحوظة لا يخطئها احد .

وبما ان عملية التنظيف نشاط تعاوني لا عدائي فان حركة تلمظ الشفتين قد اصبحت مؤشر ود . فاذا اراد حيوانان ان يوطدا عرى الصداقة بينهما فهما يقومان بتنظيف بعضهما على الرغم من أن فراءهما قد لا يحتاج الى تنظيف . وفعلا ، لا تبدو هناك اية علاقة بين حجم القذارة الموجودة على الفراء وحجم عملية التنظيف . ان هذه النشاطات التنظيفية تبدو مستقلة عن دافعها الأصلي . وعلى الرغم من ان هذه النشاطات تؤدي دورا تنظيفيا فعالا الآ ان دافعها اليوم اجتماعي اكثر منه تجميليا . فعندما نسمح لحيوانين بالبقاء مع بعضهما في مزاج تعاوني غير عدائي ، نكون قد ساعدناهما على توطيد عرى الصداقة بينهما وبالتالي على سيادة الود بين افراد المستوطنة الواحدة .

وقد نشأ من هذا المؤشر التنظيفي الودي وسيلتان لاعادة تكوين الدافع . فالوسيلة الأولى تتعلق بالتهدئة والثانية بالطمأنة . فاذا ما خاف حيوان ضعيف من آخر اقوى ، فيستطيع هذا الأخير تهدئته بدعوته الى تنظيف فرائه . هذا السلوك يهدىء الحيوان المهيمن ويساعد الآخر على الاطمئنان . فهو يسمح له بالبقاء حاضرا وذلك بسبب الخدمات التي يؤديها . وقد يقوم الحيوان المهيمن بحركات تلمظ شفتيه للدلالة على انه غير عدائي تجاه الحيوان الذي يخاف منه وعلى الرغم من شكله المهيمن فهو يستطيع ان يبين للآخر انه لا يضمر له الأذى . ان هذا السلوك الخاص - عرض الطمأنينة - يلاحظ اقل مما يلاحظ سلوك التهدئة وذلك لأن حياة الرئيسيات الاجتماعية لا تتطلبه كثيرا . ويندر ان يكون في حوزة حيوان ضعيف ما يريده الحيوان الأقوى ولا يستطيع الحصول عليه باستخدامه لعداء مباشر . هناك حالة شاذة لهذه القاعدة وهي عندما تلجأ انثى لعوب الى الاقتراب من وليد انثى اخرى ، لمداعبته . فالسعدان الصغير سيخاف منها بالطبع ، وسيلجأ الى التراجع . ويلاحظ في حالات من هذا القبيل ان تلجأ الأنثى الأكبر حجما الى تطمين الصغير بتلمظ شفتيها تلمظا متلاحقا .

فاذا اطمأن الصغير اليها ، تستطيع عندئذ تهدئته عن طريق البدء بتنظيفه .

اذا التفتنا الآن ، الى جنسنا البشري فقد نتوقع ان نرى سلوكا تنظيفيا مشابها ، ليس مجرد عملية تنظيف فحسب ، بل كسلوك اجتماعي . الاّ ان الاختلاف الكبير هو اننا طبعا ، لم نعد نملك هذا الفراء الذي يحتاج الى تنظيف . فعندما يتلاقى قردان عاريان ويودان ان يقـوّيا عرا صداقتهما ، لا بـد لهما اذا ، من ايجاد بديل لعملية التنـظيف الجماعـي . فاذا درس المرء حالات من هذا القبيل لدى الـرئيسيات الأخرى ، سيتوقع ان يشهد عملية تنظيف متبادلة . مبدئيا حلت الابتسامة محل تلمظ الشفتين . وقد رأينا في فصل سابق كيف ان الطفل يلجأ الى الابتسام لجذب انتباه والدته اليه . فالابتسام هو البديل الممتاز اذا للدعوة الى التنظيف . ولكن ماذا بعد هذا المؤ شر الودي ؟ ان حركة تلمظ الشفتين يدعمهـا التنـظيف ولـكن ماذا يدعـم الابتسامة ؟ صحيح ان الابتسام قد يدوم الى ما بعد تجاوب الآخرين ولـكن هنـاك حاجة الى شيء آخر ـ الى شيء من النشاط ، كالتنظيف ، مثلاً .

ان سلوك التحادث تطور في الأصل من الحاجة الماسة الى تبادل المعلومات . فمن مخزون الثدييات من العـويل والزمجـرة والصراخ تطـورت سلسلـة معقـدة من المؤ شرات الصوتية المتبادلة . ان هذه الوحدات الصوتية وتضافرها اصبحت اسسا لما نستطيع تسميته «بتبادل المعلومات» . فهذه المؤ شرات التي تختلف عن المؤ شرات غير الصوتية البدائية انما هي طريقة جديدة في التخاطب ساعدت اسلافنا على التدليل على الأشياء في بيئتهم وعلى التدليل على الزمن الماضي والحاضر والمستقبـل . والى يومنـا هذا ، بقي «تبادلُ المعلومات» اهم اشكال التخاطب الصوتي بالنسبة لجنسنا . وبما انه قد تطور فلم يتوقف عند هذا الحد . فلقد اكتسب وظائف اضافية . وقد اتخذت هذه الوظائف شكل «الحديث المزاجي» . وبالتحديد ، لا حاجة لهذه الوظيفة لأن المؤ شرات غير الصوتية لم تزل . فنحن لا نزال نستطيع ان ننقل حالاتنا العـاطفية باطلاقنا الصراخ ذلك الصراخ الخاص بنوعنا البشري ولكننـا نستـطيع تصـعيد هذه الرسائل بتأكيد صوتي على مشاعرنا . فصراخ الألم يليه مؤ شر صوتي «اني متألم» . وصراخ الغضب تليه رسالة «اني غاضب» . واحيانا لا ينبث المؤ شر غـير الصوتـي في شكله الخالص بل في شكل نبرة صوتية. فالكلام «اني متألم» يعبر عنه بالصراخ .

وكلام «اني غاضب» يعبر عنه الزعيق . وتبقى نبرة الصوت في هذه الحالات غير معدّلة وشبيهة الى حد كبير ، بالمؤ شرات غير الصوتية لدى الشديات لدرجة ان الكلب يستطيع ان يتلقى رسالة كهذه ان لم نقل الشخص الاجنبي الذي ينتمي الى عرق آخر من البشر . ان الكلمات الفعلية المستخدمة في هذه الظروف لا جدوى منها . وفي المستوى المتوتر جدا فان «الحديث المزاجي» هو اكثر من مجرد مؤ شر صوتي بقليل ، في جو تخاطبي . ان قيمته تكمن في زيادته لا حتمالات وجود مؤ شرات مزاجية حساسة .

ان الشكل الثالث للمؤ شرات الصوتية هو «الحديث الاستكشافي» . ان هذا الحديث هو لمجرد الحديث فقط اي ، حديث ان شئت للتسلية . اما الشكل الرابع للمؤ شرات الصوتية فهو الذي يهمنا في هذا الفصل - وقد وصف هذا الشكل مؤ خرا بأنه «حديث التنظيف» . اي الحديث الذي لا معنى له كأن نتداول موضوع الطقس او الاستفسار عن الكتب التي قرأناهامؤ خـرا . فهو لا يعبأ بتبادل الافكار او المعلومات الهامة ولا يظهر مزاج المحدث الحقيقي ولا كونه سارا من الناحية الجمالية . او وظيفته تكمن في دعم الابتسامة المحيية والحفاظ على تلاحم الوضع الاجتماعي . انه بديلنا «للتنظيف الجماعي» . وهو يزودنا بأمور اجتماعية غير عدائية ، تمكننا من تعريض انفسنا الى التخاطب مع الآخرين لفترة طويلة . وبهذه الطريقة يساعد على تقوية الروابط الاجتماعية بين البشر .

واذا نظرنا الى الموضوع من هذه الزاوية ، فاننا نجد متعة في استنباط مثل هذه الأحاديث اثناء لقائنا بالآخرين . فهي تلعب دورا عظيماً بعد اجراء شعائر التحية الاجتماعية . ولكنها تتلاشى بعد ذلك لتعود قبيل لحظة الفراق بين الأفراد . فاذا التقت جماعة لأغراض اجتماعية بحتة فقد تستمر هذه الأحاديث بالطبع ، وتكون لها الافضلية على بقية الأحاديث . ان حفلات الكوكتيل هي احدى الأمثلة على هذه الأحاديث ، ولربما تكبت الأحاديث الجادة وتمنع من الظهور اطلاقا . فاذا اريد لهذه الاحاديث ان تنجح فيجب ان يدعى الى هذه الحفلات عدد كبير من الناس الصغيرة غير الرسمية فتعطينا وضعا مغايرا . هنا نجد ان «حديث التنظيف» يتضاءل كلما تقدم

المساء وتصبح أحاديث التي يتبادل فيها الأفراد الموضوعات الجادة ، هي المهيمنة ـ وتزداد هيمنتها بمرور الوقت . وقبل ان تنقضي الحفلة يعود «حديث التنظيف» الى الظهور لكن لفترة وجيزة تسبق الفراق . وتعود الابتسامة الى الظهور ايضا ، في هذه اللحظة ، ويعطي الرباط الاجتماعي دفعا جديدا لضمان تواجده في اللقاء التالي .

واذا انتقلنا الآن الى لقاءات العمل الرسمية حيث تكون الوظيفة الرئيسية للقاء تبادل المعلومات فسنشهد تضاؤ لا اكثر في «حديث التنظيف» ولكن ليس بالضرورة اختفاء كاملا لها . يظهر هنا في لحظة افتتاح اللقاء ولحظة انتهائه . وهو ، بدلا من تلاشيه البطيء كما هو الحال في حفلة العشاء السابقة ، يكبح فجأة بعد تبادل التحيات المهذبة .

ويظهر ثانية كالسابق ، في لحظات انتهاء اللقاء والفراق اي متى بثت مؤ شرات الوداع بشكل او بآخر . وبسبب الدافع القوي للادلاء «بحديث التنظيف» يلجأ افراد المجموعةالذين يجمعهم العمل الى زيادة «الكلفة» فيما بينهم وذلك لمجرد كبح سلطان «حديث التنظيف» . وهذا ما يفسر الاجراءات التي تتخذ في اجتماع اللجان حيث تصل «الكلفة» فيما بينهم الى قمة يندر ان تصل اليها في الأوضاع الاجتماعية الأخرى .

وعلى الرغم من كون «حديث التنظيف» أهم بديل للتنظيف الجماعي الا انه ليس منفذنا الوحيد لهذا النشاط . فجلدنا العاري قد لايبث مؤ شرات تنظيفية مثيرة ، بل قد تتوفر البدائل الأخرى ، فمثلا ، الملابس ذات الفراء او السجاد او اثاث المنزل ، غالبا ماتطلق تجاوبا تنظيفيا قويا . فالحيوانات الأليفة كالقط والكلب مثلا يمكن ان تستخدم كبدائل وقليلون من الناس يستطيعون مقاومة التربيت على فراء القط او تمسيد خلف اذني الكلب . فحين يتقبل الحيوان هذا النشاط التنظيفي الاجتماعي ، فانه يزود المنظف بجزء من المكافأة . ويزودنا جلد الحيوان هذا بمنفذ لدوافعنا الغريزية في التنظيف .

اما بالنسبة لأجسامنا ، فقد تكون عارية في معظم سطوحها ولكن يبقى الرأس مكسوا بالشعر الطويل الذي يحتاج الى تنظيف . وهو يحتاج الى عناية فائقة ، اكثر مما نستطيع شرحه على المستوى الصحي - ويحظى بعناية المنظفين الاختصاصيين والحلاقين ومصففي الشعر . وليس هناك تفسير واضح لعدم تحول عملية تصفيف الشعر الى عملية اجتماعية متبادلة في تجمع بشري عادي . لماذا ، مثلا ، تطور لدينا «حديث التنظيف» كبديل للتنظيف ذاته كما هو حال الرئيسيات الأخرى ويبدو ان تفسير ذلك يكمن في كون الشعر عنصرا مثيرا للجنس . فهو في شكله الحاضر ، يختلف اختلافا كبيرا في تصفيفه بين الاناث والذكور ولذا فهو يزودنا بخصائص جنسية ثانوية . ان علاقته الحتمية بالجنس . ادت الى تداوله اثناء السلوك الجنسي ، لذا فان تمسيده او معالجته باليد اصبحا يحملان معاني مثقلة بالمضمونات الجنسية . ولما حرم الشعر من معالجته اجتماعيا كما تقدم ، بات من الضروري علينا ان نجد منفذا آخر .

وان تنظيف القط او الأريكة قد يزودنا بمنفذ لدافع التنظيف الا ان حاجتنا الى من ينظفنا تتطلب مجالا خاصا . وهكذا فبيوت تصفيف الشعر هي الرد المثالي على هذا السؤال . وهنا نجد الزبون يلعب دور من يجري عليه او عليها التنظيف بملء خاطره او خاطرها دون خوف من اي عنصر جنسي قد يثار من جراء ذلك . وفي تصنيفنا لمصففي الشعر في زمرة خاصة لا علاقة لها بمدلول اجتماعي نجد اننا تخلصنا من مخاطر الاثارة الجنسية . كذلك ايضا ، اذا خصصنا مصففي شعر للرجال فقط ومصففات شعر للنساء فقط نكون قد قللنا من المخاطر الى درجة اكبر . وحيث لا يمكننا ذلك ، فان مصفف الشعر للنساء يتصرف بطريقة انثوية بغض النظر عن شخصيته الرجولية وذلك لكي يطمئن زبونته اما الذكور فيحلقون ذقونهم عند الرجال دائما اما اذا اتفق ان وجدت امرأة مدلكة فهي حتما ستكون «مسترجلة» .

ان تصفيف الشعر كنموذج سلوكي ، له ثلاثة وظائف . فهذه العملية لا تنظف الشعر وتزودنا بمنفذ لعملية التنظيف الاجتماعية فحسب ، بل ايضا تزيّن الزبون .

ان تزيين الجسد لأغراض جنسية ، او عدائية او اجتماعية هي ظاهرة عامة لدى القرد العاري وقد ناقشناها تحت عناوين اخرى في فصول سابقة . وليس لعملية تصفيف الشعر مجال اكبر في هذا الفصل سوى انها مستمدة من احدى النشاطات التنظيفية . ان عملية الوشم او الحلاقة او قلع الشعر او طلي الأظافر او التقاط الشعر من على الاذن هي اشكال بدائية في سلوك التنظيف الغريزي . وبما ان حديث التنظيف استعير من شيء آخر واستخدم كبديل للتنظيف ، فان العملية معكوسة هنا حيث ان سلوك التنظيف قد استعير وزيد عليه ليستخدم في مجالات اخرى . وباكتسابه سلوكا ظاهرا يتعلق بالعناية الجلدية فانه تحول الى ما يسمى «بالتشويه الجلدي» .

ان هذه الظاهرة تلاحظ عند بعض الحيوانات في الأسر . فهذه الحيوانات تنظف بعضها بلسانها وتبالغ في لحسها بلسانها الى درجة انها تتسبب في قشط قطع جلدية او تتسبب في اصابة من تنظفه بجروح . ان السبب في المبالغة في عملية التنظيف يعود الى حالة الملل التي يعانيها الفرد . ان حالات مشابهة لهذه قد دفعت افرادا من جنسنا البشري الى تشويه سطوح اجسادهم باستخدامهم مزيلات للشعر . وان ميولنا الاستغلالية الفطرية ساعدتنا على استغلال ظاهرة التنظيف المخربة وجعلها مجرد وسيلة تزيينية .

هناك ظاهرة اخرى هامة نشأت من حاجتنا الى العناية بجلدنا ، هي العناية الطبية . لقد احرزت الأنواع الأخرى شيئا من التقدم في هذا المضمار اما بالنسبة للقرد العاري فان تطور عملية التطبيب من اصولها ، حين كانت مجرد تنظيف جماعي ، اصبح لها تأثيرها في انجاح تطور النوع البشري ، وخاصة في العصور الحاضرة . ونستطيع ان نشهد ان لدى اقرب اقربائنا ، الشمبانزي ، بداية لهذا التطور .

فبالاضافة الى عملية التنظيف الجماعية والعناية الجلدية بشكل عام ، فقد لوحظ ان احد الشمبانزي يعتني بجرح اصيب رفيقه به وهو يلحس هذا الجرح وينظفه . كما لوحظ على السعادين انها تحاول ان تفقأ الخراجات الصغيرة بقرص الجلد بالأصابع .

وفي احدى الحالات ، لوحظ ان انثى شمبانزي كانت مصابة بحبيبة في عينها اليسرى وقد اقتربت من شمبانزي ذكر وهي متألمة . وقد لوحظ ان الذكر جلس وتفحص العين بعناية ثم مضى يزيل الحبيبة بعناية ودقة فائقتين وهو يستخدم في ذلك رؤ وس اصابعه . ان هذا الأمر اكثر من مجرد تنظيف . انه اولى الدلالات على التعاون الحق في العناية الطبية . ولكن هذه الحادثة لدى الشمبانزي هي قمة ما يستطيع القيام به .

اما بالنسبة لنا ولذكائنا المتفوق وتعاوننا الاجتماعي فان «التنظيف المتخصص» من هذا القبيل كان مجرد بداية للتقنيات الكبيرة التي احرزناها في مجال الاسعاف الجسدي . ان عالم الطب اليوم ، قد احرز انجازات على درجة من التعقيد بحيث اصبح ، بالمعنى الاجتماعي ، التعبير الرئيسي عن سلوكنا التنظيفي الحيواني . فمن معالجة الاصابات الصغيرة وتوسع الطب ليشمل معالجة الأمراض والاصابات الجسدية الرهيبة . اما كظاهرة بيولوجية ، فإن هذه الانجازات عظيمة جدا ، ولكن عندما تصبح معقولة ومنطقية ويتغاضى عن عناصرها غير المعقولة . ولفهم هذا الأمر ، فان من الضروري ان نميز بين الحالات الخطيرة والحالات التافهة للأمراض . وكما هي الحال لدى الأنواع الأخرى ، فالقرد العاري قد يصاب بكسور في ساقه او يصاب بطفيليات عن طريق الصدفة . ففي حالات الاصابات والأمراض البسيطة ، تعالج عادة هذه الأمراض معالجة معقولة وكأنها مجرد نسخة «مصغرة عن الأمراض الأساسية ، ومعالجتها ما هي الا مجرد «تنظيف جماعي» غريزي . فالأمراض المرضية تعكس مشكلة سلوكية اتخذت لنفسها «شكلا فيزيولوجيا» بدلا من «مشكلة فيزيولوجية» حقيقية .

هناك امثلة عن دعوات الى «التنظيف المرضي» ان شئنا ان نسميها كذلك : كالسعال والزكام والانفلونزا وآلام الظهر ، والصداع ، والاضطرابات المعوية والاحتقانات الجلدية والتهابات البلعوم والحنجرة الخ . . . ان حالة المريض ليست خطيرة الا انها غير صحية مما يبرر عناية الآخرين بها . فأعراض المرض تعمل عمل مؤ شرات الدعوة الى التنظيف وتستدعي سلوك التنظيف الذي يقوم به الأطباء

والممرضات والصيادلة والأصدقاء الأقرباء . فالمريض يثير شفقة وعناية تكفيان عادة ، لمعالجته . فوصفه الأقراص الدوائية والأدوية الأخرى تحل محل سلوك التنظيف الغريزي وتقام الطقوس الاجتماعية بين كل من المنظف وطالب التنظيف في علاقتهما المشتركة . ان طبيعة الأدوية الكيمائية الموصوفة للمريض لا تختلف في اهدافها عما كان يمارسه الطبيب الساحر في الأزمنة الغابرة .

حينما تشتد الحاجة إلى عناية الاخرين فمعنى ذلك عندئذ أن المرض قد اشتد . ان الظرف الذي نتلقى فيه أكبر عناية وحماية هو حين نكون أطفالا . فاذا كان المرض شديداً بشكل كاف ليجعلنا نرتمي في فراشنا ، فان له حسنة في تأمين عناية الآخرين بنا . قد نظن إننا أخذنا جرعات قوية من الدواء ، ولكن هذه الجرعات القوية في الواقع إنما هي جرعات قوية من الطمأنينة التي نحتاجها والتي تشفينا . (إن هذا الأمر لا يعني التمارض . ان أعراض المرض حقيقية . فالمسبب هو السلوك ذاته وليس تأثير المرض) .

إننا جميعا ، كمنظفين أو كطالبي التنظيف مصابون باحباط . فالمكافأة التي نجنيها من عنايتنا بمرضانا جوهرية بقدر ما هو كذلك سبب المرض . وهناك بعض الناس يشعرون بحاجة كبيرة للعناية بالآخرين لدرجة إنهم يمددون في فترة مرض من يعتنون به حتى يتمكنوا من التعبير عن دوافعهم هذه على اكمل وجه . ان هذا الأمر قد يؤدي إلى تواجد دائرة شريرة قوامها المنظف وطالب التنظيف وحيث يبالغ في الأمور لدرجة تصبح معها الحاجة إلى العناية أمراً مستديما . فاذا ماواجهناهما بهذه الحقيقة لأنكراها نكرانا عنيفا . بالرغم من ذلك ، كم من الحالات أدت الى نتائج ايجابية مذهلة . ان اولئك الأطباء الروحانين قد استغلوا هذه الناحية وحققوا نتائج مذهلة ومن سوء حظهم تكون لمعظم الحالات التي يواجهونها أسباب فيزيولوجية اكثر من كونها تأثيرات فيزيولوجية . ومما يعمل ضدهم أيضاً ، ان بعض الأمراض لا تحتاج الى الكثير من العناية مما يؤدي إلى اذى للجسم إذا ما طالت فترة التطبيب . ومتى حدث ذلك ، يجب تدّخل المعالجة الطبية الصحيحة .

كنا حتى الآن ، نركز اهتمامنا على الجوانب الاجتماعية لسلوك التنظيف لدى نوعنا البشري . وكما رأينا ، فهناك تطورات كبرى تمت في هذا المضمار إلا انها لم تستطع هذه ان تمنع التنظيف الشخصي أو التطبيب الشخصي . فنحن كبقية الرئيسيات ، لا نزال نحك أنفسنا أو نفرك عيوننا أو نداوي جروحنا الخ . . وقد اضفنا إلى سلوكنا هذا بعض السلوكيات الأخرى المكتسبة كعملية الاستحمام الشائعة بين الناس أجمعين . ان هذا الأمر نادر لدى الرئيسيات الأخرى على الرغم من أن بعضها يستحم أحيانا . لكن الاستحمام بالنسبة لنا ، يلعب دورا رئيسيا في تنظيف الجسد لدى جميع المجتمعات .

وعلى الرغم من حسنات الاستحمام الواضحة ، فان التنظيف بالماء والمبالغ فيه ، يعيق الغدد الجلدية عن افراز الأملاح والزيوت الضرورية للجلد وقد يؤدي الأمر إلى جعل الجلد حساسا جدا تجاه الأمراض . فالاستحمام المبالغ فيه يزيل الأملاح والزيوت الطبيعية أثناء إزالته للأوساخ .

وبالاضافة إلى مشكلة النظافة هناك سلوك عام للقيام بعملية المحافظة على حرارة الجسم . فنحن كبقية الثدييات والطيور لدينا درجة حرارة عالية تزيد من فعاليتنا الفيزيولوجية . فحينما نكون أصحاء لا تتذبذب حرارة جسمنا الداخلية اكثر من ثلاث درجات على مقياس الفهرنهايت . هذه الحرارة الداخلية تتذبذب بنظام يومي ، فأعلى مستوى تصله هو في فترة ما بعد الظهر واخفضه هو في الساعة الرابعة صباحا . فاذا كانت درجات الحرارة في الخارج مرتفعة جدا أو منخفضة جدا فسرعان ما نعاني الضيق . وذلك الشعور غير السار الذي نحسه يكون بمثابة انذار بالحاجة الملحة الى اتخاذ التدابير اللازمة ولمنع اعضائنا الداخلية من التعرض الى البرد الشديد أو الحرارة المرتفعة . كذلك أيضاً ، نجد ان الجسم يلجأ الى اتخاذ تدابيره الخاصة لتثبيت مستوى درجة حرارته . فاذا كانت البيئة حارة جدا يحدث توسع في الأوعية الدموية .

ويؤدي ذلك الى جعل سطح الجسم اكثر حرارة من ذي قبل ويساعد على التخلص من الحرارة عن طريق الجلد . كما يحدث التعرق ايضا . فكل واحد منا لديه ما يقارب

المليونين من الغدد العرقية . وفي ظروف الحر الشديد تستطيع هذه الغدد افراز ما يعادل الليتر الواحد من العرق في الساعة كأقصى حد . ان تبخر هذا السائل من سطح الجسم يجهزنا بطريقة اخرى للتخلص من الحرارة . فنحن اثناء التأقلم مع المناخ الحار نخضع الى زيادة في فعالية التعرق . ان هذا الأمر حيوي جدا لأنه ، حتى في المناخات الحارة كثيرا ، فان درجة حرارة جسمنا الداخلية لا تستطيع ان تتباين بأكثر من أربع درجات فهرنهايت ، بغض النظر عن أصلنا العرقي .

وعندما انتشر نوعنا البشري فوق الكرة الأرضية جرت اضافات حضارية لآلية التحكم بالحرارة البيولوجية . ان ظهور المدافىء واللباس ونظام البناء العازل للحرارة وعملية التهوية والتبريد استخدمت ضد الحرارة . وعلى الرغم من كل هذه التقنيات ، فانها لم تستطيع ان تغير من درجة حرارة جسمنا الداخلية . لقد ساعدت فقط على التحكم في درجة حرارة الجسم الخارجية وذلك لكي نستمر في التمتع بمستوى حرارة معين ضمن ظروف بيئوية خارجية . وعلى الرغم من بعض المزاعم ، فان التجارب التي تقام في سبيل الابقاء على الانتعاش الحياتي عن طريق التبريد ، قد حصرت بعالم الخيال العلمي .

وقبل ان نترك موضوع التجاوب مع الحرارة هناك جانب خاص للتعرق يجب ان نذكره . ان الدراسات المطولة حول تجاوب العرق لدى البشر قد دلت على انها ليست بالأمر السهل كما يبدو . ان معظم سطح الجسم يبدأ بالتعرق بحرية تحت ظروف ازدياد الحرارة وهذا لا ريب ، هو التجاوب الجوهري لنظام الغدد العرقية . إلاّ ان بعض المناطق الأخرى اصبحت متجاوبة مع المثيرات الأخرى ويتصبب العرق منها

بغض النظر عن الحرارة الخارجية . فمثلا ، أكل أطعمة مبالغ في توابلها يسبب تعرق الوجه . كذلك فالتوتر العاطفي يؤدي إلى تعرق اليدين والقدمين والابطين وأحيانا الجبهة . ولكن ليس مناطق أخرى من الجسم . ويتضح لنا من ذلك ان القدمين واليدين قد استعارت التعرق من نظام التحكم في الحرارة وهي الآن تستخدمه لوظيفة جديدة . ان تندية راحة اليدين ونعلي القدمين أثناء التوتر تبدو انها اصبحت تجاوبا

جاهزا لأي شيء يهدد الجسم . ان عملية البصق على راحة اليدين قبل استخدام الفأس هي عملية بديلة لتعرق راحة اليد . وفي هذا المجال ، فان قارىء الحظ في راحة يدنا قد لا يتنبأ لنا عن مستقبلنا أما العالم الفيزيولوجي فيستطيع بالتأكيد ان ينبئنا بالكثير عن مخاوفنا المستقبلية .

الفصـــل الثـــامـــن

الحيــــوانـــات

كنا حتى الآن نتدارس سلوكية القرد العاري تجاه نفسه وتجاه الآخرين . ويبقى علينا الآن ان نتفحص نشاطاته تجاه الحيوانات الأخرى .

ان جميع الأشكال العليا من الحيوانات تدرك على أقل تقدير ، وجود أنواع أخرى تقاسمها البيئة . فهي تدرك وجود الحيوانات الأخرى في خمسة أشكال: اما كفريسة أو منافسة أو طفيلية أو معادية أو متعايشة . أما بالنسبة لنوعنا البشري فتجتمع هذه التصنيفات الخمسة في الاهتمام الاقتصادي بالحيوان ، ويضاف اليه الاهتمام الجمالي والعلمي والرمزي . ان هذه الاهتمامات الواسعة زودتنا بخصائص فريدة في عالم الحيوان . ولكي نفهم هذه الاهتمامات بشكل موضوعي ، علينا ان نتدارسها خطوة خطوة .

وبما ان للقرد العاري طبيعة استغلالية واستكشافية فان قائمة فرائسه من الحيوانات ، طويلة . ففي مكان ما وفي زمان ما ، كاد القرد العاري ان يقتل ويأكل كل ما توفر له من انواع الحيوانات . ومن دراسات عن بقايا ما قبل التاريخ نعلم انه منذ نصف مليون من الأعوام كان الانسان يصطاد ويأكل أنواعا من الحيوانات كالحصان ووحيد القرن والغزال والدب والغنم والجمل والنعامة والايل والجاموس والخنزير البري والضبع والثور والماموت[1] ولا جدوى من استعراض قائمة اخرى لوجباتنا في الأزمنة الحاضرة إلاّ أن هناك جانبا عدائيا من سلوكنا يستحق الذكر ، على

(١) نوع منقرض من الفيلة .

وجه التحديد ، وهو ميلنا إلى تدجين بعض أنواع فرائسنا من الحيوان . وعلى الرغم من اننا نكاد نأكل كل شيء حسبما تدعو الحاجة ، فاننا حصرنا وجباتنا بأنواع معينة قليلة من الحيوانات .

ان عملية تدجين الحيوان تتطلب تربية وتنظيماً وتحكما واختيارا لهذه الفرائس . ونعلم ان تدجين الحيوانات قد مارسه الانسان منذ عشرة آلاف سنة وفي بعض الحالات يمكن ان يرجع هذا التاريخ الى أبعد من ذلك . ان الماعز والغنم والغزال تبدو الأنواع المبكرة من الفرائس لوجبات الانسان . ومع تطور استقرار المجتمعات الزراعية تضمنت وجبات الإنسان أنواعا كالخنزير والبقر والجاموس الأسيوي . ولدينا الشواهد على انه قد طورت أنواع معينة من البقر منذ أربعة آلاف سنة بينما تحول الماعز والغنم والغزال من فرائس صيد الى فرائس مرعية ، ويعتقد ان الخنازير والبقر بدأت تعايشها معنا عندما كانت تضايقنا بأكل محاصيلنا الزراعية . وحالما تحصد المحاصيل كانت تصبح موردا غذائيا غنيا لتلك الحيوانات لذا أمسكها المزارعون الأوائل ودجنوها ووضعوها تحت سيطرتهم .

أما النوع الوحيد الصغير الحجم من أنواع الحيوانات اللبونة الذي خضع لعملية التدجين فهو الأرنب ولكن يبدو ان ذلك لم يحدث إلاّ في مراحل متأخرة . أما بين الطيور المدجنة الهامة التي بكر في تدجينها منذ آلاف السنين فيأتي الدجاج والبط والأوز ثم أضيف إلى هذه القائمة أنواع أخرى كالديك الرومي والسمان والدرج . أما السمك الذي له تاريخ طويل في عملية التدجين فهو سمك الكارب والحريث الروماني والسمك الذهبي . وهذا الأخير أصبح سمكا للزينة فيما بعد ، بدلا من سمك غذائي . ان تدجين هذه الأسماك محدود بألفي عام مضت . وكان لتدجين هذه الأسماك دور في القصة الكاملة في مسعانا المنظم في طلب الطعام .

ان الزمرة الثانية في قائمة علاقاتنا بهذه الحيوانات هي «المتعايشة» . فهذا التعايش هو اشتراك نوعين من الحيوانات في سبيل مصالحهما المشتركة . وهناك عدة

أمثلة على التعايش الذي يقوم بين الحيوانات ، مثلا بين طيور القرّاد وبين حيوانات ضخمة كوحيد القرن والزرافة والجاموس . فهذه الطيور تأكل الطفيليات التي تعلق بجلد هذه الحيوانات وتساعد هذه الحيوانات الضخمة على البقاء صحيحة الجسم ونظيفة بينما توفر هذه الأخيرة للطيور مصدرا للطعام .

وحينما نكون نحن ايضا ، في تعايش من هذا القبيل ، فان المصلحة المشتركة التي تقوم بيننا وبين الحيوانات متحيزة وتميل الى ترجيح كفة منفعتنا ، ولكنها على الرغم من ذلك تدخل في زمرة منفصلة تتميز عن تلك العلاقة المميتة التي تنشأ بين حيوانين لكونها لا تتطلب موت احد المتعايشين . فنحن نستغل هذه الحيوانات وبالمقابل ، نطعمها ونعتني بها . انه تعايش متحيز لأننا نتحكم في الوضع وليس للحيوان المتعايش اي اختيار .

هناك زمرة اخرى تدخل في حساب التدجين تلك التي تعتبر مصدرا للتكاثر . والحيوانات هنا لا تقتل ، فلا يمكن اعتبارها فرائس .

ان اهم الحيوانات المتعايشة معنا في تاريخنا هو لا ريب الكلب . ولا يمكننا ان نؤكد متى بدأ اسلافنا لأول مرة ، يدجنون هذا الحيوان القيم ، لكن يبدو انهم بدأوا ذلك منذ عشرة آلاف سنة ، على اقل تقدير . ان قصتنا مع الكلب ممتعة . ان اسلاف الكلب الشبيه بالذئب ، لابد أنها كانت منافسة لأسلافنا الصيادين . فكلاهما صياد جماعي متعاون يصطادفرائس كبيرة. وكانت الكلاب البريةتملك بعض الخصائص التي يفتقر اليها صيادونا . فهي قادرة على رعي قطيع من الفرائس وقيادتها اثناء مناورات الصيد وباستطاعتها القيام بذلك بأقصى سرعة . كما ان لديها حاستي الشم والسمع القويتين . فاذا استغلت هاتان الحاستان كبديلتين عن حصة من الغنيمة لكانت صفقتنا رابحة . وبطريقة من الطرق - لا نعلم كيف - وقع هذا الأمر .

ولربما بدأ الأمر كنتيجة لاحضار صغار الكلاب الى منازل القبيلة حيث تسمن لتصبح طعاما .

ان قيمةهـذه المخلوقـات كحـراس ليليين سجلـت نقطـةفي صالحهـافي وقت مبكر . وتلك الكلاب التي سمح لها بالعيش في ظروف التدجين ومرافقة الذكور في رحلات الصيد ، سرعان ما ساعدتهم في تعقب اثـر الفـرائس . فبعـد ان تدجـن الكلاب تعتبر نفسها احدى اعضاء جماعة القرد العاري وسرعان ما تتعاون غريزيا ، مع اسيادها الذين تبنوها . ان التدجين الصحيح لهذه الكلاب على مدى العصور ، احدث وجود سلالات من الكلاب يمكن ضبطها او تدجينها في سبيل الصيد .

وقال بعضهم ان تدجين الكلاب هذا ، هو الذي ادى بالتالي ، الى امـكانية تدجين الحيوانات الأخرى الضخمة . فالماعز والغنم والغزال كانت الى حد ما ، تحت سيطرتنا قبل بدء مرحلة الزراعة الفعلية واصبحت سلالات الكلاب المحسنة عاملا حيويا مساعدا لعملية رعي القطعان على نطاق واسع .

ومنذ وقت ليس بالبعيد ادت عملية تربية مختارة ومكثفـة للـكلاب الى انتـاج مجموعة كبيرة من الكلاب المتعايشة والمتخصصة . فكلب الصيد البدائي ساعـد في جميع المراحل عملية تربيته الا ان سلالته اتقنت نموذجا او اكثر من السلوكيات . اما سلالة الكلاب التي تطورت لديها مهارات غير عادية في اتجاه معين ، فقد ربيت على تكثيف مميزاتها الخاصة . وكما رأينـا سابقـا ، فان تلك الـكلاب ذات الخصـائص الحميدة في المناورة اصبحت كلاب الرعي ، وينحصر اسهامها في تطويق الغنم . اما الكلاب الأخرى التي لها حاسة شم خارقة فقد فطرت على شم الأثر وسميت بكلاب الصيد .

اما تلك التي لها خاصة رياضية كأن تسرع في الركض ، فأصبحت كلاب سباق وتستخدم في مطاردة الفرائس بمجرد رؤ يتها . وهناك مجموعة اخرى دربت على تعيين مكان الفريسة . وهناك مجموعة ثانية دربت على ايجاد وحمل الفرائس وهناك نوع تطور ليصبح قاتلا للطيور او الحيوانات الأخرى الضارة . اما كلاب الحراسة البدائية فتحسنت سلالتها واصبحت اكثر تخصصا .

وبالاضافة لهذه الاشكال الواسعة الانتشار من الكلاب المحسنة هناك انواع منتقاة لتأدية وظائف غير عادية . ان المثال على ذلك هو الكلب الهندي . العاري من الشعر والذي يمتاز بارتفاع حرارة جسمه بشكل خارق والذي كان يستخدمه الهنود الأمريكيون في العصور البدائية كما نستخدم نحن «اكياس الماء الساخن» في فراشنا .

في الأزمنة المتأخرة اخذ الكلب المتعايش يكتسب قوته في تأدية اعمال مرهقة كجر العربات او حمل الرسائل او التحري عن الألغام في اوقات الحروب او كعامل انقاذ او كمحدد لموقع المتسلقين الذين يدفنون تحت الثلوج ، وككلب الشرطة او كمقتف اثر المجرمين او كدليل او كمرشد للمكفوفين او كبديل لرجال الفضاء . وليس هناك اي نوع آخر من الحيوانات المتعايشة خدمنا كما فعل الكلب في شتى الطرق المعقدة والمتنوعة . حتى في ايامنا الحاضرة ومع كل تقدمنا التقني ما يزال الكلب يستخدم بشكل فعال في معظم الأدوار الوظيفية . ويمكن الآن تمييز مئات من السلالات التي تستخدم للزينة الا ان دور الكلب في تأدية المهمات الصعبة لم ينته بعد .

لقد كان الكلب ناجحا كمرافق في الصيد الى درجة ان محاولات جرت لتدجين انواع اخرى وجعلها تتعايش معنا لهذا الغرض . ولا يشذ عن هذا الموضوع سوى نوع قرد الشيتة وبعض انواع الطيور الجارحة وخاصة الصقر ، وفي كلا الحالين ، لم يحرز اي تقدم في مضمار التحكم في التدجين . وكانت الحاجة دائما الى التدريب الفردي . ففي آسيا استخدم الغاق[1] كمرافق لصيد الأسماك . وتؤخذ بيوضه ويجعل الدجاج المدجن يحضنها . بعد ذلك تربى الصغار التي فقست حديثا وتدرب تدريبا يدويا على صيد السمك عند نهاية الصنارة . وتعاد الاسماك الى الزوارق ويجعل الغاق يتقيؤها حيث يوضع رباط خاص على عنقه لمنعه من التهام فريسته . وهنا ايضا لم تجر اية محاولة لتحسين النوع عن طريق التدجين المنتقى .

---

(١) طائر مائي .

هناك شكل قديم آخر لاستغلال الحيوان ، هو استخدام حيوانات صغيرة آكلة للحوم لكي تخلصنا من الحشرات . ان هذه الطريقة لم يستفد منها تماما الا عندما بدأت مرحلة الزراعة الفعلية . وبتطور التخزين الواسع النطاق للحبوب اصبحت الحيوانات القارضة مشكلة خطيرة . كما شجع العاملون في حقل ابادة هذه القوارض . وقد جاءت الى نجدتنا بعض الحيوانات كالقط والنمس للقضاء على القوارض ثم تلتها عملية تدجين متخصصة وكاملة .

ولربما كان اهم انواع التعايش هو استخدام انواع الحيوانات الضخمة كالحصان والحمار الاسيوي والحمار الافريقي والقطيع بما فيه الجاموس والغزال والجمل واللامة والفيل وقد اخضعت هذه القطعان لاستغلال واسع . وفي معظم هذه الحالات فان الأنواع الأكثر شراسة قد «حسنت» عن طريق الترويض ولم يشذ عن ذلك سوى الفيل فهو على الرغم من انه لا يزال يوظف في اعمال ثقيلة الا انه كان دائما متحديا للمروض ولم يكن بالامكان ارغامه على الترويض المتخصص .

هناك زمرة اخرى في تدجين انواع كثيرة لتصبح مصدرا للانتاج هنا ، لا تقتل الحيوانات لذا لا يمكن اعتبارها فرائس ولا يؤخذ منها سوى بعض الاجزاء : كالحليب من البقر والماعز والصوف من الغنم والبيض من الدجاج والبط والعسل من النحل والحرير من دود القز .

وبالاضافة الى هذه الزمر الرئيسة لمرافقتنا في الصيد ولمبيدة الحشرات والحيوانات المستخدمة في الأعمال الثقيلة وتلك التي تعتبر مصدرا للانتاج ، فقد دخلت بعض الحيوانات في علاقة متعايشة مع البشر على اسس اكثر تخصصا . فقد دجن الحمام على حمل الرسائل . وقد استغلت غريزته هذه في الهجرة وفي العودة الى الوطن منذ آلاف السنين . ولقد اصبحت علاقتنا به ذات قيمة كبيرة في اوقات الحروب الى درجة ابتدع نوع من التعايش « المضاد » لهذا الطائر حيث دربت الصقور على الانقضاض على هذا الحمام الزاجل . وفي مجالات اخرى نجد ان الديك والسمك السياميين قد دربا بعناية

فائقة ليصبحا وسيلتين للمقامرة . وفي عالم الطب فالفأر الأبيض استخدم على نطاق واسع ، «كحقل للتجربة» في المخابر .

هذه اذن ، الحيوانات المتعايشة . اي التي اجبرت على التعايش مع نوعنا المتفوق . اما الحسنة التي تجنيها هذه الحيوانات من تعايشها معنا فهي عدم اعتبارها عدوقلنا. وقدزيدت اعدادها بشكل ملحوظ. اماالثمن الذي دفعته هذه الحيوانات فهو حريتها في التطور. لقد فقدت استقلاليتها الوراثية ، وعلى الرغم من اطعامها بشكل جيد والعناية بها ، فهي تخضع لتخيلاتنا وامزجتنا .

اما الزمرة الثالثة من الحيوانات ، بالاضافة الى الفرائس والمتعايشة ، فهي الزمرة المنافسة لنا . فأي نوع ينافسنا في طعامنا او مكان عيشنا او يتدخل في ادارة حياتنا بشكل فعال ، فقدازيح بشكل عنيف . ولا حاجة لتعداد هذه الأنواع . وبشكل عام ، فان اي حيوان لا يؤكل اولا جدوى من تعايشه معنا ، نحاول القضاء عليه .

ان هذه العملية شائعة في جميع انحاء العالم . وفي حالة المنافسة الثانوية فان اضطهادنا لها اعتباطي اما المنافسة الخطرة فلاحظ لها معنا . في الماضي كانت الحيوانات الرئيسيات ، اي اقرب اقربائنا ، هي التي تتهددنا وليس من قبيل الصدفة ان نكون نحن النوع الوحيد الباقي من المجموعة الكاملة . لقد كانت الحيوانات الضخمة الآكلة للحوم هي المنافسة الأخرى لنا ، وهذه ايضا تخلصنا منها كلما اشتدت كثافتها السكانية او وصلت الى مستوى معين . فأوربا مثلا ، تخلو الآن من كل اشكال الحيوانات الضخمة ما عدا ، تلك الأعداد الضخمة من القرود العارية .

اما بالنسبة لتلك الزمرة من الطفيليات ، فالمستقبل يبدو اكثر كآبة . هنا ، تشتد المعركة وتكثف ولسوف لن نهدر دمعة واحدة على اشتداد ندرة البراغيث .

اما الزمرة الخامسة الرئيسة فهي الحيوانات القاتلة التي هي في طريقها الى لزوال . فنحن لم نكن نشكل وجبة رئيسية لاي من هذه الحيوانات ولم ينخفض

عددنا في اي مرحلة من مراحل التاريخ ، بسببها . لكن آكلة اللحوم الضخمة كالنمر والكلاب المتوحشة البرية وانواع التماسيح الكبيرة وسمك القرش وبعض الطيور الجارحة كل هذه الحيوانات اصبحت ايامها معدودة . والمفارقة هي ، ان الحيوان الذي تنسب اليه اكبر نسبة من موت القرد العاري ، لا يستطيع ان يلتهم ما يقتله من القرود العارية . ان هذا الحيوان القاتل هو الأفعى السامة التي اصبحت اكره حيوان بالنسبة للانسان ، وسنرى ذلك فيما بعد .

ان هذه الزمر الخمس التي تشكل علاقة معينة مع الانسان ـ اما فرائس او متعايشة او منافسة او طفيلية او قاتلة ـ يمكن ان ترى متواجدة مع حيوانات اخرى . ونحن نزيد من علاقتنا مع هذه الحيوانات بمقدار ما يدخل في اهتمامنا الاقتصادي . وبالاضافة الى ذلك ، فلنا اهتمامات اخرى بها ، كالاهتمام العملي والجمالي والرمزي .

ان اهتماماتنا العلمية والجمالية بالحيوانات هي شواهد على دوافعنا الاستكشافية القوية . ان دوافعنا الفضولية والاستفسارية التي تحرضنا على تحري كل الظواهر الطبيعية والحيوانية اصبحت محور اهتمامنا . وبالنسبة للعالم بالحيوان فان جميع الحيوانات يجب ان تكون ، جديرة بالاهتمام . ليس هناك نوع جيد او نوع سيء بالنسبة له . فهو يدرسها جميعا ويتحرى عنها لذاتها . اما الاهتمام الجمالي فله علاقة بالاهتمام الاستكشافي لكن مع تعديل هو ان الأنواع المتعددة لأشكال الحيوانات والوانها ونماذجها وحركاتها تدرس كموضوعات جمالية بدلا من موضوعات للتحليل .

اما الاهتمام الرمزي فيختلف اختلافا كبيرا . ففي هذه الحالة ، لا علاقة للاهتمام الاقتصادي او الاستكشافي بهذا الاهتمام . فالحيوانات توظف كرموز لمفاهيم . فاذا بدا الحيوان عنيفا شرسا عندئذ يصبح رمزا للحرب . واذا كان لعوبا يصبح رمزا

للطفولة . اما اذا كان فعلا كما نصفه او لم يكن ، فالأمر سيان عندنا . ان طبيعته الحقيقية لا يتحرى عنها في هذا المجال ، اذ ان اهتمامنا به هنا ليس اهتماما علميا . فقد يكون الحيوان اللعوب مزودا بأسنان حادة وقد يكون عدائيا ، لكن اذا اعتبرنا ان هذه الخصائص غير ظاهرة تماما لنا ، فاننا نعتبره رغم ذلك ، رمزا للطفولة . وبالنسبة للحيوان ـ الرمز فالعدالة ليست امرا ضروريا وكل ما هو ضروري هو ان نتظاهر بها .

وبغض النظر عن تعمدنا استخدام الحيوانات كأصنام او رموز ، هناك ايضا ضغوط خفيفة علينا طيلة الوقت تجبرنا على اعتبار الأنواع الأخرى من الحيوانات صورا ممسوخة لنا من بعضها نستلطف بعضها . فنحن محبون للحيوانات وبنفس الوقت كارهون لها ولا يمكن شرح هذه المشاعر على اسس اقتصادية او استكشافية لوحدها .

فنحن نخدع انفسنا حين نقول اننا نتجاوب مع الحيوانات على اساس انها مجرد حيوانات . اننا نصرح بأنها جميلة او لا تقاوم او مخيفة ولكن ما الذي يجعلها كذلك ؟

ولكي نجد الاجابة على هذا السؤ ال علينا بتجميع بعض الحقائق . ما الحيوانات التي نحبها وما التي نكرهها ، وكيف تختلف بحسب سن الناس وجنسهم . لقد قامت التحريات حول هذا الموضوع واشرك ثمانون الفا من الأولاد البريطانيين تتفاوت اعمارهم بين الرابعة والرابعة عشرة . وقد طرح عليهم في برنامج تلفزيوني السؤ ال البسيط التالي : «اي حيوان تحبه اكثر من غيره ؟ واي حيوان تكرهه اكثر من غيره ؟» وقد جمع اثنا عشرة الف اجابة لكل سؤ ال واجريت عليها التحاليل .

بالنسبة للحيوانات «المحبوبة» وجد ان نسبة ٩٧/١٥ بالمائة من جميع الأولاد يفضلون حيوانا ثدييا من نوع ما . ووجد ان الطيور حصلت على نسبة ١/٦ بالمئة والزواحف علي واحد بالمائة والأسماك ١/٠ بالمائة الخ . . ويتضح ان هناك شيئا ما خاصا بالثدييات .

(وتجدر الاشارة هنا ، الى ان الاجابات على الأسئلة كانت مكتوبة وليست شفوية ويصعب تمييز الحيوان من الأسماء التي اعطيت وخاصة بالنسبة للأولاد الصغار جدا .)

والآن اذا احببنا حصر الأسماء العشرة الأولى للحيوانات «المحبوبة» فيكون ترتيبها كالآتي : ١ ـ الشمبانزي (١٣/٥ بالمائة) ٢ ـ السعدان (١٣ بالمائة) ٣ ـ الحصان (٩ بالمائة) ٤ ـ البوش بيبي ٥ الباندا (٧/٥ بالمائة) ٦ ـ الدب (٧ بالمائة) ٧ ـ الفيل (٦ بالمائة) ٨ ـ الأسد (٥ بالمائة) ٩ ـ الكلب (٤ بالمائة) ١٠ ـ الزرافة (٢/٥ بالمائة) .

يتضح لنا مباشرة ، ان هذه التفضيلات لا تعكس التأثيرات الاقتصادية او الجمالية . وهذه ليست عملية واعية . ان كلا من الأنواع المدرجة تزودنا بمحرض يذكرنا جيدا بخصائصنا واننا نتفاعل معها آليا دون وعي منا لما تجذبنا نحوها . ولهذه الحيوانات العشر خصائص مشتركة :

١ ـ ان لجميعها شعرا وليس لها ريش . ٢ ـ لها خطوط خارجية مستديرة . ٣ ـ لها وجوه منبسطة (كالشمبانزي ، والسعادين والدب والحصان والأسد والكلب) ٤ ـ لها وجوه معبّرة (الشمبانزي والسعدان والحصان والأسد والكلب) ٥ ـ تستطيع معالجة الأشياء الصغيرة (الشمبانزي والسعدان والباندا والفيل) ٦ ـ ان قاماتها بطريقة من الطرق او في بعض الأحيان ، شاقولية (الشمبانزي والسعدان والباندا والدب والزرافة) .

وكلما سجل النوع نقاطا لصالحه كلما ادرج اسمه في اعلى القائمة . اما الحيوانات غير الثديية فلا حظ كبير لها لأنها ضعيفة في هذه الخصائص . اما بين الطيور فالتفضيل يقع على البانكوان (البطريق) (٨/ ٠ بالمائة) والببغاء (٢/ ٠ بالمائة) وكان حظ البانكوان اكثر من غيره باعتبار قامته اكثر استقامة . كما ان الببغاء يستطيع ان يقف على غصنه باستقامة اكثر من معظم الطيور وله عدة حسنات اخرى. فمنقاره له شكل يوحي بوجه مسطح كما ان طريقة طعامه غريبة ؛ فهو يأتي بالطعام بقدمه الى فمه بدلا

من تخفيض رأسه ويستطيع تقليد اصواتنا ، ولسوء حظ شعبيته فانه يخفض قامته عند السير ولهذا يخسر بعض النقاط لصالح البطريق .

اما بين الثدييات الأولى فهناك نقاط خاصة جديرة بالملاحظة . لماذا يكون الأسد مثلا الوحيد في القائمة بين القطط الكبيرة ؟ تكمن الاجابة في انه الوحيد الذي له عرف شعري يحيط برأسه . ولهذا العرف تأثيره في تسطيح الوجه (كما يتضح ذلك من تصوير الأطفال للأسد في رسومهم) ولذا ، يساعد هذا الأمر على تسجيل نقاط اضافية لصالح نوعه .

اما التعابير الوجهية فهي هامة بشكل خاص كما رأينا في الفصول السابقة ، فهي ـ اي هذه التعابير ـ الأشكال الأساسية المؤثية للتخاطب بين البشر . فلقد تطورت لدى قلة من الثدييات ـ الرئيسيات العليا والحصان والكلب والقطط . وليس من قبيل الصدفة ان تكون الخمسة الأوائل من قائمة الحيوانات العشرة المفضلة تنتمي الى هذه المجموعات . ان تغيرات في تعابير الوجه تؤ شر الى تغيرات في المزاج وهذا الأمر يزودنا بصلة قيمة بيننا وبين الحيوان على الرغم من ان ماهية التعبير الصحيح للحيوان قد نجهلها .

اما بالنسبة للقدرة على معالجة الأشياء فالباندا والفيل ينفردان بها . الأول تطور لديه عظم معصم طويل يستطيع به ان يمسك عصا من الخيزران رفيعة يتغذى بها . ان بنيان جسمه هذا لا يتوفر لدى الحيوانات الأخرى . فهذا البنيان يعطي حيوان الباندا القدرة على الامساك بالأشياء الصغيرة وإدخالها في فمه بينما يجلس في وضعية شاقولية . كما ان الفيل قادر على معالجة الأشياء الصغيرة بخرطومه ورفعها الى فمه ـ وهذا ايضا بنيان ينفرد به .

ان قامتنا المستقيمة تعطي اي حيوان آخر له هذه الخاصة نفسها حسنة مباشرة . فالرئيسيات العشر الأوائل في القائمة بما فيها الباندا والدب تستطيع الجلوس بقامة مستقيمة في ظروف كثيرة . فهي تستطيع احيانا الوقوف شاقوليا وتستطيع حتى السير

هكذا، وكل ذلك يساعدها على تسجيل نقاط في صالحها. اما الكلب الذي له شعبية اجتماعية فيخيب امله في الوقوف مستقيم القامة . فهو ذو قامة افقية . وبما اننا نرفض هزيمته حللنا هذه المشكلة فجعلناه يجلس مستقيما ويستجدي ما نقدمه له . اذن ، فنحن لا نرى الحيوانات كحيوانات فقط بل كانعكاسات لأنفسنا .

كنا نناقش حتى الآن ، ما يحبه الأطفال بين سن الرابعة والرابعة عشرة ، من الحيوانات . والآن اذا قسمنا اجابات الأطفال حول ما يفضلونه من الحيوانات وفصلنا هذه الاجابات الى مجموعة اعمار الأطفال حول ما يفضلونه من الحيوانات لبرزت امامنا نواح جديرة بالاهتمام . هناك بالنسبة لبعض الحيوانات ، انخفاض منتظم كلما ارتفع سن الأطفال . اما بالنسبة للحيوانات الأخرى فهناك ارتفاع منتظم .

ان الاكتشاف غير المتوقع هنا هو ان هذه النواحي تبين مدى العلاقة المعينة في الحيوانات المفضلة وهي حجم الجسم . فالأطفال الأصغر سنا يفضلون الحيوانات الأكبر حجما والعكس صحيح .

ولنتذكر ان التفضيل يعتمد على المعادلة الرمزية ، والتفسير البسيط لهذا التفضيل هو ان الأطفال الأصغر سنا ينظرون الى الحيوانات كبدائل لأبويهم بينما الأولاد الأكبر سنا ينظرون اليها كبدائل للأولاد . ولا يكفي ان يذكرنا الحيوان بنوعنا البشري بل لا بد من ان يذكرنا بزمرته الخاصة . فعندما يكون الطفل صغيرا جدا يصبح ابواه هامين لأنهما يوفران له الحماية . فهما يهيمنان على وعيه . وهما كبيران في الحجم وهما ودودان . لذا فالحيوانات الكبيرة الودودة تتمثل بصورة الأبوين . وكلما كبر سن الطفل ، يبدأ بتكوين شخصيته ويبدأ بمنافسة والديه . فهو يرى نفسه مسيطرا على وضعه الا انه تصعب عليه السيطرة على الفيل والزرافة . لذا ، على الحيوان المفضل ان ينكمش الى حجم يمكن معه التحكم فيه . فالطفل يصبح ، بطريقة من الطرق ، والديه نفسهما . والحيوان اصبح رمزا لطفله . فالطفل الحقيقي صغير جدا بحيث لا يمكن ان يكون احد الأبوين حقا لذلك يصبح رمزا لأحد

الأبوين . ان امتلاك الحيوان امر هام كما ان تربية القطط والكلاب في البيوت ، تطورت من «الأبوية الطفولية» . (يجب هنا انذار الأبوين ان عليهم ألا يسمحوا لأولادهم الا في سن متأخرة ، بتربية الحيوانات ، فخطأ فادح ان يسمح لصغار الأطفال بتربية الحيوانات لأنهم سيتجاوبون معها على انها اشياء يمكن تدميرها بقصد الاستكشاف .)

اما الخاصة الفريدة بالحصان فهي انه يمكن امتطاؤه. وهذا الأمر لا ينطبق على اي من الحيوانات العشر الأولى في القائمة . فاذا استطعنا ان نربط هذه الملاحظة مع حقيقة ان شعبيته تتوافق مع سن البلوغ الانساني فاننا سنجبر على قبول النتيجة التي نخلص اليها في ان تجاوبنا مع الحصان يعتمد على عنصر جنسي قوي . فاذا صغنا معادلة لاعتلاء الحصان وللاعتلاء الجنسي لوجدنا لدهشتنا ، ان الحصان له شعبية اكبر لدى الفتيات . لكن الحصان حيوان مهيمن وله عضلات قوية لذا فهو يناسب دور الذكر . واذا نظرنا الى الأمر بموضوعية ، لوجدنا ان عملية امتطاء الحصان تتألف من حركات طويلة ايقاعية بحيث تصبح الساقان منفرجتين ومتلاحمتين مع جسم الحصان . فجاذبيته تجاه الفتيات هي نتيجة اشتراك فحولته وطبيعة الوضعية والسلوك اللذين يمارسان فوق ظهره . ولا بد من التأكيد هنا، اننا نتعامل مع مجموعة من ا الأطفال ككل . فطفل واحد بين احد عشر طفلا يفضل الحصان على بقية الحيوانات. وجزء بسيط من هذه النسبة يمتلك حصانا . فهؤلاء الذين لديهم حصان يعرفون المكافآت التي يجنونها منه .

هذا هو اذن ، الوضع بالنسبة لشعبية الحيوان لدى الأطفال . اما تجاوب البالغين فيختلف ويتطور ويتنوع .

وقبل ان نتدارس الطرف الأخر للعملة ـ اي كراهيتنا للحيوان او قلة شعبيته ـ هناك انتقاد لا بد من الاجابة عليه . فقد يقول احدهم ان النتائج التي ناقشناها هي ذات دلالات حضارية بحتة ولا معنى لها بالنسبة لجنسنا البشري ككل . وبالنسبة لطبيعة الحيوان الحقيقية ، فهذا صحيح . فلكي نتجاوب مع حيوان الباندا لا بد لنا

من ان نتعلم شيئا عن وجوده . فليس هناك تجاوب فطري لدينا تجاهه . لكن هذه ليست المشكلة . فاختيارنا للباندا قد يتحدد حضاريا لكن الأسباب التي تؤدي الى اختياره تعكس عملية بيولوجية دفينة تعمل عملها فينا . فلو تكررت هذه التجارب عند شعوب اخرى لوقع التفضيل على انواع اخرى من الحيوانات ولكن سيكون الاختيار طبقا لاحتياجاتنا الرمزية الأسياسية .

ولنلتفت الآن الى كراهيتنا للحيوان . نستطيع ان نخضع احصاءاتنا الى تحليل مشابه . فالحيوانات العشر الأولى المكروهة هي ١ ـ الأفعى (٢٧ بالمائة) ٢ ـ العنكبوت (٥/ ٩ بالمائة) ٣ ـ التمساح (٥/ ٤ بالمائة) ٤ ـ الأسد (٥/ ٤ بالمائة) ٥ ـ الجرذ (٤ بالمائة) ٦ ـ الظربان (٣ بالمائة) . ١٠ ـ النمر (٥/ ٢ بالمائة) .

تشترك هذه الحيوانات بخاصة واحدة هامة : انها جميعا خطرة . فالتمساح والأسد والنمر قاتلة وآكلة للحوم . اما الغوريلا ووحيد القرن وفرس النهر فتستطيع الاقدام على القتل بسهولة اذا ما اثيرت . اما الظربان فلديه شكل من اشكال الحرب الكيميائية . اما الجرذ فحيوان ينشر الأمراض . كما ان هناك افاعي وعناكيب سامة .

ان الأسد هو الحيوان الوحيد الذي يدرج اسمه في القائمتين المتناقضتين والسبب في ذلك انه يتميز باشتراك خاصتين فيه هما جاذبيته في الشكل وسلوكه العنيف العدائي . اما الغوريلا فلسوء حظه ان تعابير وجهه تبدو عدائية ومخيفة . ومرد ذلك الى بنيان عظامه ولا علاقة لذلك بشخصيته الحقيقية (اللطيفة الى حد ما) ولكن قوته الفيزيولوجية تحوله مباشرة الى رمز للقوة المتوحشة .

اما ما يلفت نظرنا الى الحيوانات المكروهة فهو ذلك التجاوب الكبير ضد الأفعى والعنكبوت . ولا يمكن تفسير ذلك على اساس اعتباره نوعا ساما وخطرا . فهناك عوامل اخرى . وتدل تحليلات اسباب كراهيتنا لهذه الحيوانات على ان الأفعى مكروهة لأنها «نحيلة وقذرة» وان العنكبوت مقزز لأنه «ذو شعر وزاحف» . ولا بد لهذا الأمر من ان يعني ان لهذه الحيوانات ماهية رمزية من نوع او آخر او ان لدينا تجاوبا فطريا قويا ضدها يجعلنا نتجنبها .

لقد اعتبرت الأفعى منذ زمن بعيد كرمز جنسي . وبما انها سامة فربما يفسر هذا الأمر بشكل جزئي ، عدم شعبيتها ، لكن الأمر ابعد من ذلك . فلو تحرينا عن المستويات المختلفة لكراهية الأطفال للأفعى ، بين سن الرابعة والرابعة عشرة ، لوجدنا ان عدم شعبيتها يأتي مبكرا قبل سن بلوغ هؤلاء الأطفال . وحتى عند سن الرابعة فمستوى الكراهية مرتفع - حوالي ٣٠ بالمائة - ثم يبدأ بالارتفاع قليلا حتى يصل القمة في سن السادسة . ومن ثم يبدأ المستوى بالانحدار البطيء حتى يصل الى اقل من عشرين بالمائة عند سن الرابعة عشرة من عمر الولد . هناك اختلاف قليل بين الجنسين ، وعلى الرغم من كل مستوى للسن يكون تجاوب الفتيات اقوى بقليل من تجاوب الصبيان . ولا يبدو ان لسن البلوغ اي تأثير في تجاوب كلا الجنسين .

فمن هذه الحقيقة يصعب قبول الأفعى كمجرد رمز جنسي . ويبدو كأننا نتعامل هنامع اشمئزاز فطري لدينا تجاه كل مايشبه الأفعى . وهذا لايفسر النضج المبكر لتجاوبنافحسب بل يفسر ايضا المستوى العالي له بين التجاوب الايجابي او السلبي تجاه الحيوانات الأخرى . وهذا، ينطبق على ما نعرفه عن اقرب اقربائنا كالشمبانزي والغوريلا والأورانج اوتان . فهذه الحيوانات تظهر خوفا من الأفعى .

وهنا ايضا يتطور هذا الخوف بكبر سن الشمبانزي والغوريلا والأورانج اوتان . ان تجاوبها المشمئز من الأفعى له علاقة ببقائها وكان لهذا التجاوب الصادر عنها نفعا كبيرا لأسلافنا . وعلى الرغم من كل هذا ، قيل ان تجاوبنا تجاه الأفعى ليس فطريا بل ظاهرة حضارية تنتج عن ثقافة الفرد . فصغار الشمبانزي التي وضعت في الأسر المنفرد فشلت في اظهار الخوف عندما عرضت امامها افعى . الا ان هذه التجارب ليست مقنعة جدا . ففي بعض الحالات كانت صغار الشمبانزي صغيرة السن جدا عندما اقيمت هذه التجارب فلو تكررت هذه التجارب بعد بضعة سنين لظهر الخوف عليها ومن ناحية ثانية ، فان عزل هذه الصغار من الشمبانزي ربما يؤدي الى عطب ملكاتها الذهنية . فمثل هذه التجارب مبنية على مفهوم خاطىء حول طبيعة التجاوبات الفطرية التي تنضج في الأسر الانفرادي غير المعرّض للبيئة الخارجية . ففي

حالة التجاوب تجاه الأفعى ، على الطفل او صغير الشمبانزي ان يقابل عدداً من الأشياء المخيفة المختلفة في حياته المبكرة وعليه ان يتعلم ان يتجاوب سلبيا تجاهها .

فالعنصر الفطري في حالة الأفعى سيظهر للعيان بشكل تجاوب كبير لهذا المحرض اكثر من الآخر والخوف من الأفعى يشذ عن بقية المخاوف وان هذا الشذوذ سيكون عاملا فطريا . فالفزع الذي يتولد لدى صغير الشمبانزي عند تعرضه للأفعى وشدة كراهيتنا لها امران يصعب شرحهما بأية طريقة اخرى .

ان تجاوب الأطفال تجاه العنكبوت يأخذ منحى آخر . هنا نجد اختلافا في الجنس . فلدى الصبيان كراهية متزايدة تجاهه بين سن الرابعة والرابعة عشرة الا ان هذا التزايد قليل . اما مستوى التجاوب لدى الفتيات فهو نفسه في سن البلوغ الا ان هذا المستوى يأخذ في الارتفاع المتسارع لدرجة أنهن ما ان يصلن الى سن الرابعة عشرة حتى يصبح المستوى ضعف مستوى الصبيان . ويبدو هنا ، اننا نتعامل مع عامل رمزي هام . فالعناكيب السامة بمعنى التطور هي خطرة بالنسبة للذكور بقدر ما هي كذلك بالنسبة للاناث . قد يكون هناك اولا تجاوب فطري تجاه هذه المخلوقات ، لدى كلا الجنسين لكنه لا يفسر تلك القفزة الهائلة في الكراهية التي ترافق سن بلوغ الاناث . ويبدو الجواب على ذلك فيما تقوله الاناث بأن العناكيب اشياء لئيمة وذات شعر كثيف . ان سن البلوغ هي بالطبع ، المرحلة التي يبدأ عندها نمو الشعر في جسم الصبيان والبنات . ان وجود الشعر لدى الأولاد يعني حتمية الرجولة . اما نمو الشعر في جسم الفتيات فله دلالة مزعجة بالنسبة لهن اكثر مما هو كذلك لدى الصبيان .

فساقا العنكبوت المليئتان بالشعر ظاهرتان اكثر مما هو كذلك لدى الذباب ولذا فيمكن اعتبار العنكبوت رمزا مثاليا في هذا المجال .

هذه اذن ، مشاعر الحب او الكراهية التي تدخل في تجربتنا عندما نقابل انواع الحيوانات او نفكر بها . وتشترك هذه المشاعر مع اهتماماتنا الاقتصادية والعلمية لتؤلف مزيجا معقدا من التجاوبات التي تتغير كلما كبرنا سنا . ويمكن لنا ان نلخص الموضوع

في حصر تجاوباتنا في سبع مراحل من عمرنا . فالمرحلة الأولى نسميها «المرحلة الطفولية» عندما نكون فيها معتمدين اعتمادا كليا على ابوينا ونتجاوب فيها تجاوبا قويا تجاه الحيوانات الضخمة ونستخدمها كرموز لأبوينا . وثاني هذه المراحل هي «المرحلة الأبوية الطفولية» عندما نبدأ بمنافسة اباتنا ونتجاوب فيها تجاوبا قويا تجاه الحيوانات الصغيرة التي نستخدمها كبدائل للأولاد . اما ثالث هذه المراحل فهي «مرحلة ما قبل البلوغ» ، اي المرحلة التي تتغلب فيها النزعات الاستكشافية والجمالية على النزعة الرمزية . ورابع هذه المراحل هي «مرحلة البالغين الصغار» . ففي هذه المرحلة تصبح الحيوانات اعضاء من الجنس الآخر لنوعنا البشري . اما المرحلة الخامسة فهي «المرحلة الأبوية عند البالغين» . وهنا تدخل الحيوانات الرمزية حياتنا ثانية ، ولكنها هذه المرة تكون دواجن لأطفالنا . والمرحلة السادسة هي «مرحلة ما بعد المرحلة الأبوية» عندما نفقد اولادنا فنلتفت الى الحيوانات كبدائل للأولاد . (وفي حال عدم توفر الأولاد عند الزوجين فان استخدام الكلاب والحيوانات كبدائل للأولاد امر يأتي بالطبع ، مبكرا) . واخيرا نأتي الى المرحلة السابعة وهي «مرحلة الشيخوخة» التي تتميز بتزايد الاهتمام بالحيوانات . ففي هذه المرحلة يتركز الاهتمام على تلك الأنواع التي هي في خطر الانقراض . ولا علاقة لذلك ، فيما اذا كانت هذه الحيوانات جذابة ام كريهة ، مفيدة ام لا سوى انها نادرة وآخذة في الندرة . ان تزايد ندرة وحيد القرن والغوريلا ، مثلا ، اللذين هما مكروهان جدا من قبل الأطفال تجعلها يصبحان مركز الاهتمام في هذه المرحلة . ويجب ان «ينقذا» . فالرمز هنا ، واضح بشكل كاف : فالفرد الشيخ هو على وشك الانقراض شخصيا لذا يستخدم الحيوانات كرموز لحتميته . ان اهتمامه العاطفي بانقاذ هذه الحيوانات من الانقراض يعكس رغبته في اطالة بقائه شخصيا .

ولقد انتشرت ظاهرة الحفاظ على الحيوانات مؤخرا بين الناس الأصغر سنا وكان ذلك نتيجة لتطور الأسلحة النووية القوية جدا. ان قوتها المدمرة الماثلة تهددنا جميعاً بغض النظر عن السن ، لذا فاننا جميعا نشعر بحاجة للحيوانات لتكون رموزا للندرة .

هذه الملاحظة يجب الا تفسر على انها السبب الوحيد في الحفاظ على حياة الحيوانات البرية . هناك بالاضافة الى ذلك ، اسباب علمية وجمالية تحتم علينا تقديم المساعدة لأنواع الحيوان غير الناضجة . فلو اردنا الاستمرار بالاستمتاع بتعقيدات عالم الحيوان واستخدام الحيوان لأغراض علمية وجمالية واستكشافية فان علينا مساعدتها . ولو سمحنا لها بالانقراض فنكون قد جعلنا بيئتنا سهلة بطريقة غير مرضية . ولكوننا نوعا مستكشفا فلا نستطيع ان نستغني عن مصدر قيم لمادة استكشافنا .

ان العوامل الاقتصادية تذكر احيانا في معرض الحديث عن مشكلة الحفاظ على الحيوانات . وقد نوّه بعضهم ان الحماية الذكية والتحكم في حياة الحيوانات بامكانه ان يساعد الشعوب الجائعة بتزويدها بالبروتين . وبينما يصح هذا القول على المدى القصير فان صورته على المدى البعيد اكثر كآبة . فلو استمر تزايد اعدادنا بالنسبة الحاضرة المخيفة فلسوف تصبح القضية قضية الاختيار اما نحن او هي . ومهما كانت الحيوانات مفيدة لنا من حيث الرمز الا ان الوضع الاقتصادي والعلمي والجمالي سيكون ضدها . والحقيقة المرة هي عندما تصل كثافة نوعنا البشري الى حد ما ، فلن يكون هناك مكان او متسع للحيوانات الأخرى . اما القول بأنها مصدر الطعام بالنسبة لنا ، فلسوء الحظ ليس هذا قولا منطقيا تماما . فمن الأجدى لنا ان نأكل النبات مباشرة ، بدلا من تحويله الى طعام للحيوان ومن ثم نأكل لحم هذا الحيوان .

وبما ان هناك تزايدا في طلب مساحة للعيش عليها ، فيجب اتخاذ تدابير اكبر ولسوف ندفع في النهاية الى تصنيع مواد طعامنا . واذا لم نستطع ان نستعمر كواكب اخرى وعلى نطاق واسع ونتنشر فيها او نلجأ الى الحد من زيادة السكان بطريقة من الطرق ، فلسوف يتوجب علينا ازالة كل اشكال الحياة الأخرى على الكرة الأرضية ، وذلكم في المستقبل غير البعيد .

فاذا بدا الأمر لك مبالغا فيه ، انظر الى الاحصاءات التالية : كان عدد سكان الأرض خمسمائة مليون نسمة في نهاية القرن السابع عشر وقد ارتفع الآن الى ثلاثة

آلاف مليون . ويزداد السكان بنسبة مائة وخمسين الف نسمة في كل اربع وعشرين ساعة . وفي خلال مائتين وستين سنة واذا بقيت نسبة الزيادة ثابتة ـ وهذا غير مرجح ـ سيكون تعداد العالم أربعمائة الف مليون نسمةتزحم سطح الكرة الأرضية .

هذا العدد يفرض على كل احد عشر الف نسمة ان يعيشوا ضمن ميل مربع من مساحة الأرض اليابسة . وبكلام آخر ، فان الكثافة التي نعاني منها الآن في مدننا الرئيسية ستتواجد في كل زاوية من زوايا الكرة الأرضية . وتكون النتيجة واضحة بالنسبة لجميع انواع الحيوان . وسيكون التأثير علينا قاتما ايضا .

ولا حاجة بنا ان نطيل التفكير في هذا الكابوس : ان احتمال حدوثه بعيد . فكما اكدنا في هذا الكتاب ، اننا ، رغم تقدمنا التقني لا نزال ظاهرة بيولوجية بسيطة . وبالرغم من افكارنا العظيمة وكبريائنا فنحن لا نزال حيوانات متواضعة عرضة لكل القوانين الأساسية للسلوك الحيواني . وقبل مدة طويلة من وصولنا الى مستوى العيش المتخيّل الذي تحدثنا عنه سنكون قد حطمنا الكثير من ا لقوانين التي تتحكم في طبيعتنا البشرية ولسوف تكون نهايتنا . فنحن نميل الى الاعتقاد ان مثل هذا الأمر لن يحدث ابدا وان هناك شيئا خاصا فينا واننا فوق التحكم البيولوجي . ا لا اننا لسنا كذلك . لقد انقرض الكثير من الحيوانات المثيرة في الماضي ولسنا حالة شاذة في ذلك . فعاجلا ام آجلا ، سننقرض ونفسح المجال لغيرنا . فان كان الأمر آجلا ، عندئذ علينا ان نطيل النظر في انفسنا كنماذج بيولوجية ولنفهم حدودنا . ولهذا السبب كتبت هذه الكتاب ولهذا تعمدت الاساءة الى انفسنا عندما قلت اننا «قرود عارية» بدلا من الأسماء المعتادة التي نطلقها على انفسنا . فهذا يجبرنا على ان نعي ما يدور تحت سطح حياتنا مباشرة . ولربما بالغت في الوضع اثناء تحمسي للموضوع فهناك الكثير من المديح كان يمكن ان اجزله لتلك الانجازات التي حققناها . وعندما غضضت النظر عنها ، اعطيت وجها واحدا للصورة . فنحن مخلوقات خارقة وليس في نيتي ان انكر ذلك او اقلل من شأننا . الا ان هذه الأمور قد قيلت مرارا وتكرارا . فنحن عندما

نقذف قطعة العملة في الهواء نجدها غالبا ما تسقط على وجهها وآن الأوان الآن لأن نرى الوجه الآخر للعملة . ولسوء الحظ ، فاننا متفوقون واقوياء بالمقارنة مع الحيوانات الأخرى ، لذا نجد انه من الاساءة الى انفسنا ان نتأمل في اصولنا .

ان بعض الناس المتفائلين يشعرون انه بما اننا وصلنا الى مستوى ذكائي مرتفع وامتلكنا دوافع الاختراع فبامكاننا اذا ان نكيّف اي وضع ليكون في صالحنا . اننا نستطيع ان نعيد تشكيل طرقنا الحياتية بحسب المتطلبات الجديدة واننا ، في الوقت المناسب ، ستتمكن من التلاؤم مع الازدحام السكاني والتوتر وفقدان الاستقلالية في السلوك ، اننا سنعيد تشكيل نماذج سلوكنا ونعيش وكأننا نمل عملاق . واننا سنتحكم بمشاعرنا العدائية والجنسية وميولنا الأبوية ، وان ذكاءنا سيسطر على دوافعنا البيولوجية . اني اعلن ان كل هذا الكلام لغو لأن طبيعتنا الحيوانية الخام لن تسمح بكل ما تقدم . صحيح اننا استغلاليون من حيث سلوكنا لكن هناك حدودا قاسية لشكل استغلاليتنا . فباصراري على النواحي البيولوجية في هذا الكتاب ، حاولت ان ابين طبيعة هذه التقييدات . وبالاعتراف بهذه التقييدات والرضوخ لها سنوفر لأنفسنا حظا اكبر في البقاء . ان هذا الأمر لا يعني العودة الى الطبيعة ، بسذاجة . انه يعني بكل بساطة ، انه يتوجب علينا ان يكون تقدمنا الاستغلالي الذكي يتوافق مع متطلبات سلوكنا الجوهرية . علينا بطريقة من الطرق ، ان نحسّن من النوع بدلا من الكم . فان فعلنا ذلك ، نستطيع الاستمرار في التقدم التقني دون انكار تطورنا الموروث . وان لم نفعل ، عندئذ ، فان دوافعنا البيولوجية المكبوتة ستكبر وتكبر حتى ينفجر السد ويجرف السيل كل وجودنا المعقد .

المحتـــــوى



من إصداراتنا

- سحر الرمز والأسطورة - مجموعة من المؤلفين - ترجمة ومقاربة عبد الهادي عبد الرحمن
- الجنس والثقافة - إ. اس . كون - ترجمة منير شحود.
- الأسطورة والمعنى - شتراوس - ترجمة صبحي حديدي.
- الحكايات والأساطير والأحلام - إريش فروم.
- منعطف المخيلة البشرية - ص . هـ. هووك - ترجمة صبحي حديدي.
- التخييل الروائي للجسد - نعمة خالد.
- في تاريخ الدين والفلسفة - هايني - ترجمة صلاح حاتم.
- الخنفساء المنقطة - لورانس - ترجمة زكي الأسطة .
- القوى الروحية وعلم النفس التحليلي - ك. غ. يونغ - ترجمة نهاد خياطة.
- الرواية العربية والحداثة - محمد الباردي.
- فتنة السرد والنقد - نبيل سليمان .
- جرماني أو ملف البلاد التي سوف تعيش بعد الحرب - نبيل سليمان.
- حوارات وشهادات - نبيل سليمان.
- فضاء النص الروائي : مقاربة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان - محمد عزام.

دار الحوار للنشر والتوزيع - سورية - اللاذقية
ص - ب 1018 - هاتف 422339